كانطا إبراهيموف إيرينا يرماكوفا

في الطريق الطويل ليلاً

مختارات من قصص القوقاز

مكتبة النخبة

ترجمة: رامي القليوبي

كانطا إبراهيموف إيرينا يرماكوفا

في الطريق الطويل ليلاً

مختارات من القصص القصيرة لكتّاب

شمال القوقاز ومنطقة الفولغا

ترجمة: **رامي القليوبي**

مراجعة: **عبدالله حبه**

© دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي، مشروع «كلمة»

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PG3279.A7 F5 2020

في الطريق الطويل ليلاً: مختارات من القصص القصيرة لكتّاب شمال القوقاز ومنطقة الفولغا / إعداد كانطا إبراهيموف، إيرينا يرماكوفا؛ ترجمة رامي القليوبي؛ مراجعة عبدالله حبه. - ط. 1. - أبوظبي: دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

346 ص.؛ 21 سم.

ترجمة كتاب: Антология короткой прозы писателей Северного Кавказа и Поволжья

تدمك: 978-9948-35-808-4

1- القصص الروسية- مترجمات إلى العربية. 2- القصص العربية- مترجمات من الروسية. أ- Ibragimov, Kanta، 1960-. ب- Ermakova, Irina.

ج- قليوبي، رامي. د- حبه، عبدالله. هـ- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي: Канта Ибрагимов и Ирина Ермакова Original title: Антология короткой прозы писателей Северного Кавказа и Поволжья © O.G.I., Moscow, 2018

www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+

إنّ دائرة الثقافة والسياحة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الدائرة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّ وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأيّ وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطيّ من الناشر.

في الطريق الطويل ليلاً

مختارات من القصص القصيرة لكتّاب

شمال القوقاز ومنطقة الفولغا

الفهرس

كلمة مصنفي المجموعة
7

نوزيت أوميروف. الانتقال
9

إلدار غورتويف. الخطف
29

يونس تشوياكو. حذاء يدوي الصنع من جلد العجل
47

آدم غوتوف. منطق داباغو
63

عيسى كابايف. متى يعود أماناكاي؟
77

روزا بازوفا. المنافِسة
97

موسى أحمدوف. الدمى الخشبية
107

نابيرا غيماتدينوفا. المستقبل
125

فخر الدين غيريبسيس. شجرة الكرز
147

إبراهيم إبرهيموف. إخطار بالوفاة
157

أربين كارداش. الثلج
163

غيبيك كوناكبييف. في الحافلة
187

فياتشيسلاف أر- سيرغي. اختفاء «باديش»
195

ماشار أيضميروفا. في الطريق الطويل ليلاً
203

بايرا بالبوروفا. زاياباري
217

إسيت تيركاكييفا. التفاح
231

سليمة كوركمازوفا. الصباح
243

قربان أوماخانوف. راعي الغنم والملائكة
261

منير كونافين. تحت الشمس الهالكة
265

زوراب بيمورزوف. أشباح المقاتلين
287

حمزة عز الدينوف. في ممر جبل خاريب
293

أيغون جليلوفا. حريق في القرى
303

رستم غاليولين. الغريب
319

أصلان كاسايف. نصيب الإنسان البخيل
331

نبذة عن المؤلفين
337

كلمة مصنفي المجموعة:

روسيا الاتحادية هي بلاد متعددة القوميات تستخدم فيها إلى جانب الروسية، 60 لغة يكتب بها المؤلفون في مناطق القوقاز ونهر الفولغا والأورال وسيبيريا والشرق الأقصى وأقصى الشمال.

وصدرت في روسيا أخيراً مجموعة كبيرة من الأعمال القصصية الحديثة تضم روائع الأعمال بلغات شعوب روسيا.

تضم المختارات التي بين أيديكم، 24 قصة قصيرة لكتاب من شمال القوقاز ونهر الفولغا، حيث تقطن شعوب تعتنق الإسلام.

يواصل الكتاب المعاصرون التقاليد الأدبية، ويعملون بأساليب فريدة، وينظرون إلى الظواهر والتقاليد والمشكلات نفسها من مختلف النواحي، ولكن ما يجمع بينهم هو حبهم للكلمات المعبرة والدقيقة، والوفاء لـمُثُـل الخير والعدالة.

نوزيت أوميروف

الانتقال

تردد الطرق على البوابة. اعتقدت العجوز لينا أن الفتيان يعبثون. تكرر الطرق. من هذا؟ لن يدق الجيران مرتين، فهم يعلمون كيف يمكنهم الدخول. نهضت بصعوبة من السرير، وتوجهت إلى الباب، محركة ساقيها المتورمتين بصعوبة. تكرر الطرق مرتين أخريين أثناء سيرها عبر الفناء. قالت العجوز لينا بنبرة من التأنيب أو السعادة بداخلها، لأن الله أرسل أحداً إلى بيتها المنعزل: - أنت يا عديم الصبر.

كان هناك رجل في نحو الـ50 من عمره يقف أمام البوابة، وكانت عيناه خضراوين وشعره أصهب. فكرت العجوز لينا: «يبدو أن ابن شقيقتي قد حضر!». ترنحت ساقاها، فاضطرت للإمساك بالبوابة.

- مرحباً يا جدة!

لا، هذا ليس سيرغي. كان في صوت الرجل شيء غير روسي وحادّ بعض الشيء يختلف عن اللهجة الناعمة في قريتهم.

- هل تستقبلون ضيوفاً؟

كان وجه الرجل مبتسماً وعيناه شبيهتان الشقيقة ناتاليا، وبهما شيء من المكر. ربما هو سيرغي؟ أو شخص آخر من القرية. يصعب التكهن. متى حضرَت إلى القرية لآخر مرة؟ مرت 30 سنة تقريباً...

سأل الرجل بنبرة من انعدام الصبر: - أسألكم، هل تستقبلون ضيوفاً؟

- بالطبع يا بني، بالطبع!

فجأة خشية من أنه قد يغادر، فتحت البوابة وسارعت للسماح له بالدخول.

سارت وراءه حتى لا تتأخر عنه رغم أنه لم يكن مسرعاَ، بل كان ينظر بشيء من الفضول إلى الحظيرة والسطح المبلط ذي مدخنة شبه منهارة. إنه ضيف غريب... لم ينتظر حتى دعوته، بل فتح باب البيت ودخل إليه وكأنه قد حضر إلى هنا مراراً. وفي الغرفة، ألقى نظرة إلى صندوق قديم تحت الأيقونة. هز رأسه مندهشاً، وسأل وكأنه ليس ضيفاً: - ما اسمك يا جدة؟

- العجوز لينا.

- هل تقيمين هنا بمفردك؟

ردت عليه، شاكية: - نعم يا بني، بمفردي تماماً.

إما بسبب نسيان الجميع عنها، أو لسبب آخر، أرادت أن يبقى هذا الضيف الغريب في البيت لأطول فترة ممكنة، فانشغلت. أخرجت السماور من الخزينة، بعد أن ظل في الظلام لنحو خمس سنوات، وكل ما كان لديها من الخبز وقطعة جبن، وعلبة مربى القرانيا التي كانت تحافظ عليها على سبيل الاحتياط. نظرت بشيء من الإحباط إلى قاع العلبة القصديرية للشاي.

- لماذا تعيشين في هذا الفقر يا جدة؟

لم يقل ذلك، وهو يؤنبها، بل، وكأن شخصاً آخر كان عليه أن يتحمل المسؤولية عن عيشها. أدركت ذلك ولم تنزعج.

- يا بني... بني. يا ليت كان زوجي على قيد الحياة وما أكلت الحرب ميتكا... سأشكو إلى من الآن؟ إلى الله فقط...

- أين المتجر؟

- أين سيكون؟... في نفس المكان في الموقع القديم.

- سأجري إلى هناك سريعاً قبل أن يغلي السماور.

قال «سأجري»، وكأنه كان في سن الفتى، وما كان للعجوز لينا سوى أن تبتسم: - اجر إذا لم يكن ذلك صعباً عليك، هل أعطيك نقوداً؟

أخرجت من جيب العباءة ورقة مجعدة من فئة ثلاثة روبلات، ولكنه أمسك يدها بين كفيه: - ما هذا يا جدة...

غادر، فلم تتحمل وانفجرت باكية. تذكرت كيف كتب لها ميتكا في أول رسالة لها: «عزيزتي يا أمي...». كانت هذه الرسالة هي الأولى والأخيرة. مسحت دموعها، وتذكرت أنها لم تقل له أين المتجر، وهو لم يسأل. شخص غريب... ربما من القرية...

صفر السماور، واهتز غطاؤه لدى غليان المياه. حين أخرجت العجوز لينا القابس، عاد الضيف، محضراً معه كما من المأكولات المتنوعة. تورتة وحلويات وبضع علب شاي وكاكاو وزيت وسجق...

- لماذا كل هذا الكم؟

هز كتفيه، راضياً لاسترضائها، قائلاً: - أصبحنا اثنين.

رجعت ساقاها ضعيفتين وغير حيويتين، فسارعت للجلوس على الكرسي. «يبدو أنه من القرية. ما كان لشخص غريب أن يقول شيئاً كهذا أبداً». أدركت أنها تخشى من سؤال الضيف عن اسمه ومكان نشأته. خافت من انكشاف أنه غريب وسيغادر بشكل مفاجئ مثلما حضر. تجرأت على حيلة بسيطة: أثناء تناول الشاي، أفصحت للضيف عن كل المعلومات حول نفسها، وعن قريتها في مقطعة سمولينسك، وعن زوجها الذي قتله الألمان، وابنها الذي ذهب إلى الحرب حين كان في الـ16 من العمر وفُقد أثره. روت كيف نُقلت مع شقيقاتها الصغيرات إلى القرم بعد الحرب مباشرة. عادت شقيقاتها فيما بعد، ولكنها بقيت، خوفاً من إيجاد خطاب يفيد بوفاة ميتكا هناك. ثم ندمت على بقائها. والآن، لن يسمح معاش التقاعد البالغ 40 روبلاً لها بالعودة. عملت لمدة 40 عاماً، واكتسبت معاش التقاعد 40 روبلاً. روبل عن كل عام.

استمع الزائر إليها بانتباه دون أن يقاطعها. وبعد أن سكتت، قال: - إذن تم تهجيركم أيضاً...

لم تنتبه لكلمة «أيضاً»، وهزت رأسها علامة الإيجاب، قائلة: - هُجِّرنا. حتى الآن، لا أفهم عن أي ذنوب. ربما أراد الله ذلك. لا يمكن الوصول إليه. وأخيراً تجرأت: - وأنت نفسك من أين؟ يبدو أنك من الحضر وليس من هنا...

- من الحضر، أعيش بالقرب من طشقند...

- يا الله، هذا بعيد جداً!

اندهشت العجوز لينا عاجزة عن التكهن، ماذا دفع بهذا المرء إلى منزلها. «ربما أخطأ البوابة؟». تجرأت وسألت: - ألم تخطئ صدفة يا بني؟ هل

أعطوك عنواني تحديداً؟

- لا يا جدة، لم أخطئ.

كاد أن يدهشها حتى الموت. أين سمولينسك وأين طشقند! ولم يخطئ البوابة. تنفست بعمق ورسمت إشارة الصليب.

- الحمد لله أنك لم تخطئ.

- ولدت يا جدة في هذا المنزل، وفي هذه الغرفة التي يوجد بها الصندوق.

- يا الله...

حاولت أن تقول شيئاً، ولكن صوتها اختفى.

صب لها شاياً ساخناً، وانتظر حتى تثوب إلى رشدها.

تحدث عن حياته وأسرته، ووالده الذي قتله الفاشست رمياً بالرصاص في شتاء عام 1941، ووالدته التي توجهت فور الإفراج عنها إلى سيمفروبول أملاً في الحصول على معاش عن زوجها. إلا أنه تم توقيفها في المحطة وإيداعها عربة شحن ممتلئة بالبشر لنقلها إلى الأورال. هكذا أصبحوا متفرقين في مختلف أنحاء البلاد، الأم في الأورال والأبناء في أوزبكستان. لم ينج من أربعة أبناء سوى واحد منهم. وجدته الأم في مستشفى في ميرزاتشول. كان مصاباً بالتيفوئيد، ولم يتعرف على والدته...

أثناء تناول الشاي، لم يلاحظا حلول الظلام وظهور النجوم في النافذة. نهضت العجوز لينا من مقعدها، وذهبت إلى الركن وضغطت على زر الضوء. سلطت اللمبة الضوء على الوضع الفقير: سرير حديدي قديم، وخزينة بدائية وصندوق ذو غطاء به شروخ. خطت العجوز لينا إلى المائدة، ولكنها توقفت فجأة، منادية ضيفها بأصبعها.

رفعت غطاء الصندوق ببطء، فجاء دور الضيف ليمسك بقلبه، إذ كان الصندوق مليئاً بالأواني وتشاريكي [1]، وفستان زفاف الأم، وحتى لعبة أطفال لم يعد يتذكرها أحد. كان كل ذلك مرتباً بعناية ومغطى بالنفثالين.

همس الضيف: - يا ليت أمي كانت موجودة هنا...

كان يعتزم المغادرة، ولكنها لم تتركه، بل أفرشت له سريراً.

- ما اسمك؟ أنت لم تقل...

رد مندهشاً: - حقاً؟ بدا لي أنك تنادين باسمي.

ضحك كلاهما على أحدهما الآخر أولاً، ثم على العجوز لينا التي وجدت صعوبة في نطق اسمه، وكانت تقول «جاوديت» بدلاً من «جودت».

رقدت في المطبخ فوق السرير. نظرت إلى الغرفة قبل النوم بحذر. كان ضوء القمر الشفاف يتسلل عبر الزجاج، وجعل وجه الضيف وشعراً من اللون الكتاني مثل ميتكا أثناء الطفولة. رسمت علامة الصليب فوق الضيف النائم، ثم لوحت بيدها، وكأنها أخطأت. لم تتمكن من النوم لفترة طويلة، متخيلة والد جودت ووالدته، ثم عادت أفكارها إلى قريتها الأم وأيام شبابها. بين ابتسامة وتشنج شفتيها، همست ليلاً بمرارة: «عقاباً عن أي ذنب يا الله؟».

تدهورت حالتها الصحية في الصباح. غادر الضيف، وعاد سريعاً برفقة امرأة ملوَّحة السحنة و شائبة، قائلاً إنه أحضر طبيبة. شككت في البداية في حقيقة كلماته. كانت تعرف جميع الأطباء في البلدة، بينما رأت هذه لأول مرة. استمعت المرأة إليها، وقاست درجة الحرارة، وهزت رأسها، وقالت شيئاً لجودت، لكن ليس باللغة الروسية. تحدثت إليه بنبرة من الغضب، وكأنه السبب في وصول العجوز لينا إلى مثل هذه الحالة. قالت المرأة إن العجوز لينا يجب إيداعها المستشفى، ولكنها رفضت ذلك رفضاً قاطعاً.

- لم ولن أرقد هناك. إذا حضر الموت، فسأموت في البيت.

حضرت المرأة لثلاثة أيام على التوالي، وعملت حقناً للعجوز لينا. حينئذٍ تحسنت حالتها، وزال تورم الساقين، واتضحت رؤيتها، وسيطر عليها التساؤل، لماذا يعتني بها جودت، وكأنها قريبته تربطه بها صلة الدم. لم تخرج من البيت منذ أيام طويلة، ولم يهتم بها أحد من الجيران، رغم أنهم من أتباع نفس الديانة المسيحية...

في اليوم الرابع، وقفت على قدميها. أحضرت البطاطا والبصل من القبو، وأشعلت النار في الموقد لسلق اللحم. بادر جودت بالحديث أثناء الغداء: - العجوز لينا. الطبيبة قالت إنه لا يجوز لك البقاء بمفردك. أليس لك أقرباء هنا؟ ربما صديقة ما...

- الشقيقات بعيدات، وكانت لي صديقة، ولكن الله أخذها الى جواره. أصبحت بمفردي.

صمت الضيف لفترة طويلة، وكأنه خاف أن يحزنها: - ربما تنتقلين إلى الشقيقات؟

- يمكن... لكن كل واحدة منهن لها أسرتها وهمومها... إذا كان لي ركن هناك...

هكذا كشفت لضيفها أكبر سر لها لم تشاركه حتى صديقتها.

حل جودت جميع همومها، قائلاً: - لماذا ركن؟ يمكن شراء منزل هناك.

لم تتمالك نفسها من الضحك: - بمعاشي... آه يا جودت، يا جودت، ما أسوأ أن يعمل المرء طوال حياته ولا يملك قرشاً في نهاية الأمر.

- العجوز لينا، لتبيعي المنزل. سأدفع المبلغ المطلوب.

فكرت طويلاً في عرضه، وكأن شخصين يصارع أحدهما الآخر بداخلها، ويحاول كل واحد منهما جرها إلى طرفه.

- خصم مني مبلغ 500 روبل بالنقود القديمة مقابل البيت، فكيف أطالبك بمبلغ غير عقلاني. حتى إذا أعطيتني خمسة آلاف، فهل سأستطيع شراء بيت بسيط مقابل هذا المبلغ.

- لقد قلت إنني سأدفع المبلغ المطلوب.

- الله وحده يعلم كم هو المبلغ المطلوب. لو كنت أصغر سناً، لسافرت إلى شقيقاتي وأخذت رأيهن. لكن إلى أين سأسافر في هذا العمر...

جاء دور جودت ليفكر.

- هل هناك بريد في قريتكم؟

- هناك بريد.

شعرت العجوز لينا بالفضول، ماذا يريد هذا الضيف المتحمس؟

- هل هناك هاتف بالبريد؟!

- يجب أن يكون هناك هاتف...

بعد يوم، اصطحب جودت العجوز لينا إلى مكتب البريد، وأجلسها أمام جهاز الهاتف، وقال: - ستحضر شقيقاتك الآن. تحدثي من دون استعجال مثلما تريدن. سأحرس المكان هنا حتى لا يزعجك أحد.

ردت على الهاتف الشقيقة الأصغر سناً أريشا، وانفجرت في البكاء، حين سمعت صوت لينا.

حسبت لينا أن تكلفة الانتقال وشراء المنزل والحطب والمعزة والهدايا للشقيقات وأزواجهن وأحفادهن لن تقل عن ثمانية آلاف. أفصحت عن هذا المبلغ لجودت بتردد، وباتت تنتظر.

لم يستعجل جودت في الرد. قبل رحلته إلى القرم، قدّر هو ووالدته إمكانياتهما، واتضح أنه يمكنهما تخصيص 15 ألفاً لشراء المنزل. تذكر كلمات والدته: «إذا كان البيت سليماً، فوافق على مبلغ أكبر يا بني. سأبيع كل شيء. أتمنى أن أعيش بين جدران بيتي لبضع سنوات، ثم يمكن أن أموت». طال أمد الصمت لبعض الوقت، وصرخ جودت بدلاً من الرد: - هل أنت متأكدة أن هذا المبلغ سيكفي؟

أصيبت العجوز لينا بصدمة. كانت تتوقع أن تخيف الضيف، وأنها ستضطر للاعتذار أمامه، ولكن لم يرف له جفن، بل سأل فيما إذا كان هذا المبلغ كافياً أم لا. من النعمة أن الله موجود...

غادر جودت، ووعد بأنه سيعود بعد أسبوعين أو ثلاثة، قائلاً: «سأعود فور إرسال حاويات الحاجيات». وحتى اقترح على العجوز لينا دفع المقدم، ولكنها رفضت رفضاً قاطعاً.

فور انصراف السيارة، حضر إلى البوابة الجار ميخائيل المقيم في المنزل المقابل مع ابنته وأحفاده. زوجته كاتيا هي التي ذكرتها العجوز لينا لجودت، حين سألته عن صديقتها. توفيت كاتيا قبل سبع سنوات، وحاول أرملها حينها التقدم إلى جارته للعيش سوية. لم ترفضه فحسب، بل أطلقت عليه اسم «العريس العجوز». ربما كانت ستوافق، ولكنه لم يكن بوسعها نسيان، كيف كانت كاتيا تحضر إليها، مصابة بالكدمات وتطلب إخفاءها من زوجها.

جلس الرجل العجوز تحت النافذة، مسنداً العكاز إلى الحائط، وأخرج من جيبه السجائر والكبريت، واستنشق الدخان مرتين أو ثلاث مرات، ثم سأل مثلما يُسائِل الكبير صغيراً آثماً: - من هو القريب الذي ظهر عندك؟ هل هو غني؟إنه يستقل سيارة «فولغا».

أرادت أن ترد عليه رداً شائكاً، ولكنها عجزت عن ذلك، وكشف عن الحقيقة كما هي: - يقول إنه ولد في هذا البيت، واسمه جودت.

أصيب الرجل العجوز بصدمة إلى حد أن السيجارة سقطت من بين أصابعه. حاول أن يقول شيئاً، وفتح فمه، عاجزاً عن إصدار صوت.

- أغلق فمك حتى لا يدخل الغراب إليه!

هكذا صدته، ولكنه لم يسمع ولم يفهم ذلك.

- إذن هو حي... الابن الأصغر لعثمان... جودت...

اندهشت العجوز لينا، قائلة: - صحيح. هكذا كان اسمه جودت. هل كنت تعرفهما إذن؟

- نعم! كنت أذهب مع والده إلى نفس المدرسة... المرحومة يكاتيرينا كانت تروي كيف تمت عملية إعدامهم رمياً بالرصاص... وكم قرية لهم أحرقت...

- ولهذا كان يتم تشويه صورتهم طوال كل هذه السنوات. يعني ذلك أن شعبهم كابد الظلم.

- كان الشعب لدينا هو دائماً من يدفع الثمن. هناك من يعيش في بحبوحة وآخرون يتحملون المسؤولية عن غيرهم. ألم تتضرري أنت نفسك؟ أنت صامتة، فلتتحدثي.

أمسك الرجل العجوز السيجارة، وقطع طرفها، وبدأ يدخن مرة أخرى، مضيفاً: - تحدثوا عنهم في التلفزيون اليوم...

- عمن؟

- عن تتار القرم. أنت لا تشاهدين التلفزيون.

- إذا كان أهداني أحد التلفزيون، لكنت شاهدته. وماذا قالوا عنهم؟

- قالوا إن من واجب الحكومة أن تعتذر لهم عن الإبادة الجماعية بحقهم! هكذا انقلبت الأمور. قالوا إنه ستتم إعادة جميع الراغبين إلى أرضهم.

- وهل عددهم كبير؟

- لا يعرف أحد. ربما مليون، ربما أقل. سيحضرون وسيطالبون باسترداد منازلهم وأملاكهم. ربما حضر جودت لاستطلاع الوضع. إذا كانت أوراقهم سليمة، فلهم كامل الحق في مصادرة هذا المبنى منك. ألا تخشين أن تجدي نفسك في الشارع؟ حينئذٍ ستندمين أنك لم تتزوجيني حين كنت أصغر سناً.

ابتسمت العجوز لينا وهزت رأسها.

- لماذا تهزين رأسك، ألا أقول الحقيقة؟

- كل ما تقوله صحيح.

- هذا هو الأمر. والآن إذا حضرت طالبة الزواج، فلن يتسنى ذلك، لأنني تنازلت لابنتي عن كل ما كنت أحوزه من المنزل والأملاك.

- أبيع المنزل يا ميخائيل. هذا هو الأمر.

قفز الرجل العجوز وسقط مرة أخرى، مندهشاً: - ما هذا! لقد جُنِنتِ! ستبيعين المنزل وإلى أين ستذهبين؟ إلى جبل مجهول.

نطق بكلمة جبل، ولكنه أشار باتجاه المقبرة.

- سأسافر إلى شقيقاتي في القرية الأم. يجب أن يموت الإنسان حيث توجد جذوره. تقول الأخت إنه بدأت إعادة بناء القرية. تقول إنه حتى الشباب يعودون.

- كم دفع لك؟

- دفع ما طلبته.

- لا تخفي أسراراً، نحن مقربان...

- ثمانية آلاف.

استغرق الرجل العجوز في التفكير، والعجوز لينا لم تكن قادرة على الفهم ما إذا كانت طلبت قليلاً أم بالغت في الرقم.

- إذن ثمانية.

- المبلغ يتناسب مع حالة المنزل. لماذا أفاصل عن ثلاثة جدران وبلاط السطح؟

- هذا بلاط بالنسبة إليك، وبالنسبة إليه هذا بيت الوالدين. لو أنك طلبت ضعف هذا الرقم، لكان وافق.

- الشيطان معك! لا تغريني. سأبيع كما اتفقنا.

- نحن مليونيرات. ستسد الألف الزائدة الحنجرة. أنتِ غبية! سيزداد معاشك التقاعدي بقدر 20 روبلاً شهرياً خلال ثلاثة أعوام!

- أتمنى أن يعطيني الله العمر حتى العام المقبل...

- ستعيشين، أنت يا جدة بحالة صحية جيدة. فكري. لديك وقت.

عاد جودت بعد أسبوعين، ولاحظ على الفور تغيراً في مزاج العجوز لينا.

- ماذا حدث يا جدة؟

- أنت تفهم يا بني...

كانت محرجة جداً أن تكدر جودت، ولكن حسابات ميخائيل لم تكن تتركها في حالها والهدوء. كان يمكنها أن تمكر، ولكن ضميرها لم يكن يسمح لها بذلك.

تعرقت العجوز لينا، واحمرت، وحتى لعنت نفسها على جشعها وانصياعها لميخائيل...

- قال لي أشخاص أذكياء إنني طلبت سعراً رخيصاً.

- لقد قلت لك، فكري جيداً. إذا كان قرارك نهائياً... أرجو إبلاغي وسأرفع السعر.

قال ذلك من دون ضيق، بل مبتسماً، وكأن الأمر لم يكن يهمه حتى إذا طلبت مبلغاً أكبر بمئات الأضعاف.

- هل ستضيف ألفاً؟

- بالطبع، سأضيف.

سافر جودت إلى سيمفروبول، وقال إنه يحتاج إلى استخراج شهادة عن والده وبعض الوثائق اللازمة لتسجيل عملية البيع والشراء.

في اليوم الثالث، تلقت العجوز لينا رسالة من أرينا التي كتبت لها أنهن ينتظرنها بفارغ الصبر، وقد اتفقن على شراء منزل مجاور لها فيه حظيرة وحمام وحديقة، والأهم أنه بجوارهن. يطلب صاحب البيت 7500 روبل، ولكنه يمكن الفصال والتخفيض إلى سبعة آلاف...

وضعت العجوز لينا الرسالة على ركبتيها، وأسبلت عينيها، واستندت بظهرها إلى الحائط. خرجت الشمس الخريفية الناعمة من خلف الغيوم، فنعست. أيقظتها أرخيبوفنا. كانت تعيش بالقرب من هنا، وكانت تزور العجوز لينا بين الحين والآخر، بعد أن عملت معها بخط الإنتاج نفسه بمصنع النسيج لسنوات طويلة.

- ماذا حدث لك؟ هل فزت بورقة يانصيب رابحة؟

كانت تتذكر أن العجوز لينا تعشق مختلف أنواع السحب باليانصيب، وكانت دائماً تشتري البطاقات عند توزيعها بالمصنع، ولكن بما لا يزيد على روبل واحد.

تباهت لينا، قائلة: - تلقيت رسالة من شقيقتي.

- ماذا تكتب؟ هل تدعوك للحضور إليها؟

- تدعوني. ووجدت منزلاً في جوارها.

- يقال إنك اغتنيت وستبيعين بيتك. عليك ألا تفكري طويلاً.

- هذا ما أفكر فيه.

أخفت العجوز لينا الرسالة في جيب ردائها.

- كم دفع لك هذا التتاري؟

شعرت العجوز لينا بأن أرخيبوفنا تحترق من الفضول، وسألت، مندهشة: - من أبلغك؟

- الشارع كله يتحدث عن ذلك. ذهبت إلى السوق، والتقيت هناك إحدى معارفي. قالت لي إن التتار اشتروا بالقرب منهم بيتاً بـ25 ألفاً. وماذا حدث...

أعطـوا الأموال لصاحب البيـت، فانصـرف ليــلاً، وترك لهم إيصالاً بتسلم كامل المبلغ... وغادر...

كيف دفعوا مثل هذا المبلغ مقابل قطعة من الورق...

- لماذا قطعة ورق، والمنزل؟ سلم لهم المنزل...

لم تعترض أرخيبوفنا، بل سألت: - كم دفعوا لك مقابل المنزل؟

- تسعة آلاف.

ردت عليها، مندهشة: - فقط؟!

- السعر حسب حالة المنزل.

أظهرت العجوز لينا بشكلها أنها لا تنوي الحديث عن هذا الموضوع، إلا أن أرخيبوفنا تجاهلت ذلك.

- كم سعر المنزل في القرية إذا لم يكن ذلك سراً؟

- 7500.

- إذن تبيعين مقابل تسعة آلاف وتشترين مقابل 7500...

استغرقت أرخيبوفنا في التفكير لدقيقة، وهي تحسب الفارق، وأضافت: - هل حسبت الضرائب؟ ستدفعين الضرائب هنا وهناك، وسيكلفك المنزل ثمانية آلاف. أضيفي إلى ذلك الحاجيات والحاوية وتذكرة السفر إلى القرية، والوداع والاستقبال، ولن يبقى لديك قرش واحد!

سعدت لإشغال العجوز لينا بهم جديد، وجلست بجوارها، وهي راضية جداً.

دفعت العجوز لينا جارتها بكوعها، وقالت: - ماذا تقترحين؟

- من دفع تسعة، لن يبخل بعشرة!

لم يرجع جودت بمفرده، وإنما برفقة أمه فاطمة، وهي سيدة عجوز جريئة ونشيطة تمكنت على الفور من إيجاد لغة مشتركة مع العجوز لينا، وكأنها كانت تعرفها منذ سنوات طويلة جداً. وحين فتحت الصندوق أمام

الضيفة، انفجرت فاطمة بالبكاء، وهي تنظر إلى كل هذه الثروة، واحتضنت العجوز لينا: - كيف حافظت على ذلك يا لينا، كل هذا لا يقدر بثمن...

- جمعته، ووضعت فوقه كيلوغراماً من النفثالين وأغلقته بالمفتاح حتى لا تطمع فيه عين بخيلة...

في الصباح أثناء الاستعدادات للذهاب إلى موثق العقود، أفصحت العجوز لينا لجودت عن كل ما أعدته خلال الليل الذي لم تنم فيه. كان من الصعب عليها اللجوء إلى كذبة صغيرة: - تلقيت رسالة من شقيقتي.

حتى عرضت على جودت الظرف لكيلا يشكك في صحة كلامها.

- وجدن لي منزلاً مقابل 8500... إذا كان بمقدورك إضافة ألف أخرى، فسأُصلِّي، أنا العجوز، من أجلك حتى الموت.

- بالطبع، سأضيف يا جدة. لا داعي للانزعاج من ذلك. ستصلين إلى القرية الأم، وستسير حياتك بشكل مختلف تماماً، صدقيني.

تنفست الصعداء ومسحت بطرف المنديل دموعها العفوية.

بمجرد أن غادر جودت عند غروب الشمس، ظهرت أرخيبوفنا.

- هل ذهبتما إلى موثق العقود؟

مزحت العجوز لينا، قائلة: - هل كنت تطاردیننا؟

لم تستسلم أرخيبوفنا، وكأنه كانت لها عمولة جيدة عن تقديم نصيحة ذكية: - إلى ماذا توصلتما؟

- أضاف ألفاً من دون نقاش حتى.

انكمشت وكأن أحداً كان يهددها، همست للعجوز لينا: - ماذا قلت. ربما هو مجرم؟ طلبت ألفاً، أضافها، طلبت ألفاً أخرى، أضافها... هناك شيء غريب أو خطة ما... ربما نبلغ الشرطة... هل تريدين أن أبلغ بيوتر؟

- من هو بيوتر؟

- زوج ابنتي، وهو نائب مدير الشرطة المحلية...

- الله معك يا أرخيبوفنا... ليس مجرماً... لتتحدثي معه...

- المجرمون الأذكياء أساتذة في الكلام، سيقنعون من يشاءون...

نظرت العجوز لينا إلى جارتها من تحت الجبهة، وقالت: - عشت حتى الشعر الشيب...

ودّعت إحداهما الأخرى. ظلت العجوز لينا تبتسم لفترة طويلة، وهي جالسة في غرفة مظلمة، تراجع أفكار أرخيبوفنا الفارغة. إلا أن ابتسامتها لم تكن في محلها. في الصباح حضرت سيارة الشرطة لأخذ العجوز لينا. في مكتب رئيس قسم الشرطة كان يجلس بيترو صهر أرخيبوفنا و... جودت. وقف كلاهما حين أحضر رجل الشرطة «المعتقلة».

بدلاً من التحية، صرخت العجوز لينا: - سأقطع شعر حماتك الشريرة!

أبلغت البائسة الشرطة...

هدأ بيوتر العجوز لينا وأجلسها أمام جودت.

ضرب نائب رئيس القسم المائدة بقبضة كفه، قائلاً: - لا يوجد في ذلك شيء غير مسموح به. القانون هو نفسه للجميع. سنراجع الأوراق وسنتحقق من الأمر.

ظل يراجع الأوراق لفترة طويلة وبعناية. دفتر التقاعد لعاملة مناجم بمرتبة شرف، وبطاقة عضوية الحزب، ومستندات الوسام والميداليات.

- إذن قررت شراء المنزل؟

- قررت.

- لماذا لم تطلبوا إذناً منا؟ كان يجب الحضور إلينا أولاً...

شعرت العجوز لينا في صوت بيوتر وسلوكه بتهديد لخطتها، وقالت: - منذ متى بات يجب الحضور إليكم؟ هذا بيتي وأبيعه لمن أشاء! لا أخضع لك في ذلك.

- سنفكر في ذلك، وسنأخذ رأي اللجنة التنفيذية المحلية للحزب...

امتلأت عينا العجوز لينا بالدماء وشدت قبضتيها، قائلة: - لا تحدثني في أمور لا علاقة لها بالموضوع... ليس هناك مثل هذا القانون في بلادنا. لن أعود

أسمح بانتهاك حقوقي. كفاكم. لم تكبر بعد، وقد أصبحت تسير في الاتجاه ذاته... يا ترى من أنجب أشخاصاً أمثالكم؟

جلست العجوز لينا على المقعد، وشعرت بسوء حالتها، وكأنه حان الوقت لترقد على الأرض وتموت.

التف بيوتر إلى جودت.

- الرفيق العزيز... أنتم استعجلتم في موضوع الشراء...

كان من الواضح أنه يستمتع بإظهار سلطته وأهميته أمام شخص غريب...

لم تهتز أي عضلة في وجه جودت.

- من قال لكم أيها الرفيق نائب رئيس الشرطة إنني أشتري هذا البيت. لا أشتريه، بل أسترده تداركاً للخطأ في عام 1944.

لم يفهم نائب مسؤول الشرطة: - كيف تصححونه؟

أخرج جودت بضع أوراقٍ أخرى من جيبه الداخلي، ووضعها على المائدة: - هذه الوثيقة تثبت أن والدي عثمان بينرجي أعدم رمياً بالرصاص بالميدان هنا أمام نوافذكم، لكونه عنصراً في العصابات. هذه الوثيقة تؤكد أن والدتي فاطمة بينرجي كانت تدعم عناصر العصابات أيضاً. وهذه الوثيقة أصدرها المجلس المحلي في عام 1939، وتؤكد أن البيت رقم 28 بشارع «كومونيستيتشيسكايا» مملوك لوالدي.

كان بيترو ذا أعصاب حديدية، وإذا انفجرت قذيفة أمام نوافذ مكتبه، لما اهتم. ولكن ما رآه أربكه إلى حد أنه لم يكن بوسعه إيجاد ما يرد به ويعترض على الحقائق. التفت إلى العجوز لينا، وقال: - لينا باتكوفنا المحترمة، لن تتم عملية البيع. عليكم رد المنزل لأصحابه الحقيقيين...

كان صوت نائب مسؤول الشرطة مليئاً بالشماتة إلى حد أن جودت لم يتمالك نفسه: - لماذا هكذا؟ أبرمنا عقداً، ووقعه موثق العقود، وذيَّله بختمه. لست متأكداً ان المبنى كان سيظل قائماً لولا هذه المرأة...

توجه جودت إلى العجوز لينا وأمسك بها من تحت ذراعها، قائلاً: - لنذهب إلى البيت يا جدة.

ظلت العجوز لينا راقدة في السرير لنحو عشرة أيام. طوال هذا الوقت، لم تبتعد فاطمة عنها خطوة واحدة. وبعد شفائها وشعورها بالثقة في النفس، بدأت تستعد للسفر. وضع جودت الحاجيات في الحاوية وأرسلها. ثم سلمها خطاب اعتماد بمبلغ عشرة آلاف وتذكرة إلى مدينة سمولينسك. كان وداعاً سريعاً. حضر ميخائيل وأرخيبوفنا، شربوا كأساً، وأكلوا فطائر باللحم أعدتها فاطمة. أحيوا ذكرى الموتى...

قبل ركوب السيارة، استدعت فاطمة العجوز لينا إلى المطبخ وأعطتها كيساً.

- هذا مني لك عن كل خير. في حال وجود صعوبات، اكتبي لي، ولا تخجلي إن احتجت أدوية أو مالاً... اكتبي.

اصطحب جودت العجوز لينا إلى المحطة حتى مقصورة القطار، واحتضنها قبل الوداع... تحرك القطار. نظرت إلى ظهر جودت لآخر مرة، ورسمت شارة الصليب، وجلست، ماسحة الدموع. فتحت الكيس، ووجدت فيه شالاً من الريش وحذاء مبطناً بالفرو المستورد في داخله. لفترة طويلة، عجزت عن إبعاد نظرها عن الهدية.

سألت المرأة الجالسة أمامها: - هل هذا نجلك؟

- ابني... ابني...

تسارع القطار، ليحملها بعيداً بعيداً عن منزل عاشت فيه لنصف قرن تقريباً. كانت تبحث في داخلها عن حنين لما تركته. كانت تبحث دون أن تجد ما تبحث عنه.

وكأنها لم تعش تلك السنوات الصعبة الطويلة... هدأت. تخيلت كيف ستصل إلى القرية وستسير بخطوات هادئة في الشوارع، وستذهب إلى قبر زوجها، وستضع أنفها في العشب وستستنشق الرائحة المنسية للأرض الأم. ما أجمل أن يكون للمرء بيت والديه وشارع الطفولة وقرية الشباب والأرض الأم التي لا يمكن لأحد مصادرتها منك، لأنها في قلب الإنسان وهبة من الله.

إلدار غورتويف

الخطف

يا الله، يبدو أن زمناً جديداً حضر بالفعل إلى بلدة سوستار القديمة! لم يعد أحد من سكان القرية يهرع من منزله عند سماعه صوت الطائرات البدائية من نادي نالتشيك للطيران. فقط الصبيان يودعونها بنظراتهم، وبها شيء من الحسد، ويمسكون قبعة أستراخان فوق رؤوسهم حتى لا تسقط، وتنبح الكلاب.

وحتى في ساحة القرية، حيث يناقش الحكماء الشؤون والأخبار، لن يقطع أحد حديثه، عند سماع هذا الصوت.

إلا أنه في أحد أيام الصيف وقع حدث هز القرية بأكملها وتحول إلى موضوع للأحاديث النسائية الحيوية. كان يوماً عادياً. لا كثافة الخضر بالحقول والغابات المحيطة، ولا صفاء السماء الزرقاء، لم تكن تنذر بشؤم عند سماع الصوت المعتاد عليه من جانب نالتشيك.

كان إنالوك، وهو الرجل الأكبر في آل جانبيرميزوف يصنع في ظل الحظيرة سريراً لحفيده الجديد، وحتى لم يرفع رأسه، إذ كان هناك عمل أهم من الفضول. كما يبدو أن الزوجة والكنات في المطبخ لم يسمعن الصوت من أساسه. بينما كان النجلان يجزان العشب.

مارزيات البالغة من العمر 18 عاماً، وحدها خرجت من المنزل بعد سماعها صوت الطائرة. كان هناك شيء من اللبس فيما يتعلق بعمر مارزيات. بحسب تسجيلات مواليد الكتاب المحلي، كانت ستتمم عامها الـ19 في الخريف، بينما تزعم الأم أنها أصغر من ذلك بعام. ما الفيصل هنا: لا يخطئ الأفندي، وتعلم الأم متى ولدت ابنتها الوحيدة! والأغرب أن الأم والأفندي تمكنا، بالمناسبة، من التصالح في هذا الجدل.

بدأت الطائرة الهبوط التدريجي، مغطية الشمس بجناحيها، وكأنها طائر كبير، ثم صعدت إلى الأعلى، وتوجهت إلى الأسفل مرة أخرى، وكادت أن

تلامس المداخن فوق الأسطح.

ألقت الطائرة بكيس ذي حجم رأس الثور إلى فناء إنالوك، ثم سمع صوت محركها، وانصرفت.

العجوز إنالوك ترك عمله، وفكر قليلاً، وخرج إلى الفناء بتأنٍ، اقترب من الكيس ونظر حوله. سارع أفراد أسرته والجارات للحضور إليه، ووقفوا حول أسوار منزله، ولم يكن واضحاً من ملامح وجههم ما إذا كانوا يشعرون بالخوف أم الفضول.

حملت الثلاثينيات مفاجآت كثيرة لسكان سوستار مثل السينما الناطقة والجرارة التي حركت الأحجار، مصدرة دخاناً أزرق، وحتى المرأة تجرأت على الخروج إلى الشارع، مرتدية حذاء ذا رباط. هل يمكن حصر كل ما حدث في سوستار في ذلك الزمن العجيب؟!

ولكنه لم يحدث أن سقطت من السماء أكياس لا يعلم بمحتواها سوى الله.

نظر إنالوك حوله مرة أخرى، وتلاقت عليه أنظار النساء، وهو الرجل الوحيد، وما كان له أن يظهر خوفه أو انعدام حزمه. اقترب من الكيس، ولمسه بقدمه، ثم التفت إلى ذويه، آمراً الكنة الكبرى: - تعالي هنا وافتحي. سننظر ماذا أرسله لنا الملائكة. تجرئي أكثر!
نظرت الكنة الكبيرة إلى الحشد الصامت، وكأنها تبحث عن حماية أو تودعهم قبل حدوث ما هو لا مفر منه. إلا أنه لم يستجب لنظرتها أحد، كما تراجع بعضهم خطوة للخلف.

فكت رباط الكيس، وأخرجت الهدية، وفتحت علبة كبيرة. كانت بداخلها أربعة أكياس أخرى.

أمام أعين الحشد المندهش الذي بدا وكأنه لم يعد يتنفس، أخرجت الكنة الكبيرة الهدايا السماوية: حذاء أبيض يلمع تحت أشعة الشمس ذو كعب عالٍ، وقطعة من الحرير الأحمر للفستان، ومنشفة ذات زخرفة رائعة، وزجاجة عطر صغيرة.

أصيبت النساء بدهشة، وهن ينظرن إلى هذه الأعجوبة.

وجدت الكنة الكبيرة رسالة في الحذاء. إنها تعلمت مؤخراً القراءة، وتلت بصوت عالٍ مرتين: - «لعزيزتي القمر مارزيات!»

صرخت الكنة الصغيرة بنبرة من الانبهار: - يا للأعجوبة! مثل الحكاية...

أمسكت زجاجة العطر، وهي متأكدة أنها ستحصل عليها تحديداً.

خلعت الكنة الكبيرة حذاءها الجلدي، قائلة: - يا الله! لأقيس هذا الحذاء الرائع!

أمسكت أم مارزيات بقطعة الحرير والمنشفة تحت ذراعها. أما مارزيات، فوضعت بعد سماعها محتوى الرسالة كفيها على وجهها المحمر من العار والفرحة في آن معاً، وهرعت إلى المنزل.

تبعها إنالوك، وهو يهمس شيئاً. عاد إلى العمل الذي تركه، ولكنه لم يعد يشغله. كان رأس العجوز إنالوك ممتلئاً بعشرات من الأسئلة لم يجد إجابة عن أي منها. «من هو ابن الشيطان هذا الذي فقد كبرياء الرجال؟ ربما الفتاة تعرف؟ أو ربما لا تعرف. يقال إن مائة شخص يتقدم للفتاة وتتزوج واحداً منهم. قد يكون هناك فرسان كثيرون وقعوا في غرام هذه الفتاة الحمقاء... ربما تعرف الأم؟ تعرف وتخفي عني؟ أو الكنات... هؤلاء يعرفن كل شيء ما عدا يوم وفاتي. لتضغط الأم عليهن كما ينبغي، فسيكشفن عن كل شيء، خاصة إذا استرضيتهن بالهدايا...».

- تعالي هنا يا امرأة من تشيغيم.

حضرت أم مارزيات فوراً. الزوجات المطيعات لم يكن بأمر نادر في الثلاثينيات...

واصل إنالوك عمل النجارة، ودون أن ينظر إلى زوجته، قال: - اسمعيني.. هل تعرفين هذا الوغد الذي تسبب في عار لشاربي الأشيب واسم والده أيضاً. أعتقد أن الكنات، لاسيما أصغرهن، يعرفن من هذا. هي صديقة مارزيات وهما تشاركان الأسرار. لست مهتماً بأسرارهما سوى من هو هذا البائس الذي فقد عقله؟ وزعي هداياه على العرائس حتى تفك ألسنتهن. فقد قلت ما كنت أريده.

حين بدأ الحديث عن الهدايا، شعرت الزوجة بقلق، وعلى عكس العادة عارضت زوجها بشجاعة. لم يكن يحدث ذلك في الثلاثينيات إلا نادراً...

- أرجو ألا تغضب مني، ولكنه سيكون من العدالة أن تذهب الهدايا لمن أرسلت. لتبقى أسرار الكنات بداخلهن، أعرف بنفسي هذا الفارس واسم والده. لتعلم أنت أيضاً. هذا إسماعيل نجل إسحاق تشامايف.

اندهش إنالوك، وأبعد أداة النجارة. واصلت الزوجة الحديث، وكأنها لم تلاحظ قلق زوجها.

- هل تتذكر تلك السنة السوداء، حين بات الأولاد يتامى؟ هرب كبيرهم من الأقرباء، وانتشرت بعدها شائعات بأنه تم العثور عليه في نالتشيك وتحويله إلى دار أيتام لإنقاذه. تخرج في مدرسة دار الأيتام، فالتحق بدورات الطيران، وأصبح يحضر إلى بلدة نيجنييه كثيراً، وتعارف هناك على مارزيات. كشفت الكنة الصغيرة أن ابنتنا حتى رقصت معه. لماذا تغضب؟ يرقص الشباب في حفل «توي». لا تحظر ذلك لا الشريعة ولا القوانين السوفيتية. حتى قررت ألا أشغل بالك بهذه الأمور التافهة...

أمسك إنالوك بالسكين وأخرجه وأرجعه، وانتفخ أنفه غضباً فوق الشارب الأشيب مبكراً، وقال: - كفاك يا امرأة! أرى أنكم تعلمون كل شيء. والآن استمعي إلي أيتها المرأة الحمقاء. لتكن الأرض ناعمة والجنة ملجأ لروح إسحاق الراحل. لا أشعر بضيق تجاهه. لكنني سأقول وتذكري: لن أسلم ابنتي الوحيدة لشاب لا يملك منزلاً ومواشي. قلت ما أردت. انصرفي.

قام إنالوك منحني الرأس، وذهب إلى الحديقة. في لحظات الغضب والحزن كان يبحث دائماً عن الطمأنينة في حديقته القديمة. كل شجرة هنا زرعها والده أو هو نفسه، وكان يحدثها ويشكو انعدام رحمة الناس أو يطلب نصيحة، وعاماً بعد عام كانت تزداد قناعته بأن أضعف الأشجار خير من إنسان شرير...

لم يمر شهر على ذلك اليوم، إلا و حضر إلى فناء إنالوك أقرباء الراحل إسحاق. بدا أنهم واثقون في نجاح خطتهم ولم يخفوا طويلاً الهدف من مجيئهم على عكس ما يحدث في أحيان كثيرة.

استقبل إنالوك المتقدمين ببرود، ولم يعاملهم بكرم الضيافة، مقدماً لهم مشروب «أيران» اللبني فقط.

طلب المتقدمون يد الحسناء مارزيات للفارس إسماعيل، قائلين إن هناك علاقة حب بينهما، فلترافقهما السعادة والحظ في حياتهما الأسرية. وأضافوا أن أسرتهما ستكون جيدة، مبتسمين وكأنهم معزومون على حفل «توي».

رد إنالوك بالرفض دون أن يشرح دوافع قراره، ولم يرافق الضيوف سوى إلى عتبة البيت. قلة الذوق لا مثيل لها!

كان المتقدمون، كما هو معتاد عليه، أذكياء ومنضبطين، فلم يظهروا إحباطهم، وحتى انصرفوا مبتسمين ابتسامات دافئة في وجه صاحب البيت الذي رد لهم ابتسامة باردة.

لم يمر وقت طويل على الخطوبة الفاشلة، إلا و سمع صوت محرك الطائرة. إلا أنها لم تلق بهدايا هذه المرة، بل ظلت تهبط إلى بيت إنالوك، ثم تصعد إلى الأعلى، ثم تهبط مرة أخرى وتكاد تلامس المدخنة والسطح، مثيرة فزع الدجاجات.

أثار ذلك خوف أفراد الأسرة. كاد دم إنالوك يغلي من الغضب. لم يتمالك نفسه، فهرع إلى الفناء، مهدداً الطائرة المصابة بالجنون بقبضته.

انتشرت في سوستار الشائعات حول أن إسماعيل ابن إسحاق تقدم إلى القمر مارزيات بهداياه السماوية ورسالة حب، ولكنه رُفض. تمت إعادة تسمية عائلة جانبيرميزوف بمزحة إلى قيزبيريميزوف، أي الذين لا يسلمون فتياتهم.

ثم حدثت واقعة شغلت كثيرين وأثارت خوف البعض.

في مساء أحد الأيام، عند غروب الشمس فوق الجبال المحيطة بالقرية، اجتمع الرجال في جلستهم الاعتيادية. ظهرت الطائرة، وحلقت فوق رؤوسهم، وكأنها تبحث عن شخص معين، وعند الدوران الثاني أطلقت دخاناً أسود هبط إلى البلدة ببطء دون أن يتشتت.

صار الرجال الشيوخ المندهشون ينظرون خلف الطائرة، وأخذ أحدهم يهمس: - توبة استغفر الله، توبة استغفر الله...

كان نيوزيور توبييف، وهو أحد الرفاق القدماء لإنالوك، يداعب لحيته الخفيفة، ولفت أنظار الحاضرين، قائلاً: - اسمع يا إنالوك يا روحي، لماذا تعذب نفسك بالتفكير عديم الجدوى والشكوك؟ زوّج ابنتك ذات العينين الجميلتين لهذا الفارس! أتذكر والده إسماعيل، لتكن الجنة ملجأ لروحه المتمردة، كان شخصاً جريئاً. وكما هو معروف، فإن ابن الوز عوام... زوّج حبيبتنا وفرح عيوننا قبل أن يخطفها بنفسه. فكر يا إنالوك، فقد كنت تتميز دائماً بالعقل السليم.

بيبريت الذي ينتمي إلى آل نوغيروف، وهو ساكن الجبال ذو خبرة وحكمة، قال: - نيوزيور معه الحق. فكر يا إنالوك: في أحيان كثيرة، كانت تصرفات آل تشامايف تسبق القرار العاقل. فكر وحل المسألة بذكاء.

انضم دالخات غازايف إلى المحادثة، وقال: - هذا كلام ذكي ونصيحة مهمة.

في أيام شبابه قبل الثورة، سُجن دالخات بسبب عصيانه الإدارة المحلية، وكان يجيد اللغة الروسية بشكل مقبول، وكان يستطيع الكتابة، ولذلك كان الجميع، بمن فيهم أصحاب اللحى التي وخطها الشيب، يستمعون إليه بانتباه.

- إذا كان هذا الفارس قادراً على إصدار الدخان الأسود على اجتماع محترم، فيمكنه أن يلقي قنبلة على سوستار. قرر يا إنالوك، ماذا أغلى بالنسبة إليك، الجماعة أم ابنتك الوحيدة التي يبدو أنها تحب مثل هذا الفارس الجريء؟ ولا تنس أن هذا الشاب ابن الشيطان قد يكون له أصدقاء يحلقون في مثل هذه الطائرات أيضاً. إذا حضروا جميعاً بقنابل... يا الله، احفظناً من مثل هذه المصيبة.

رفع دالخات يديه بالدعاء، وهو ينظر نظرة ماكرة إلى إنالوك، وأضاف: - قرر بنفسك أيها الصديق القديم والحكيم.

لم يرد إنالوك، وكأنه لم يسمع الكلام الموجه إليه. جلس منحني الرأس.

تحدث بيبيرت مرة أخرى: - إذا كان هذا الأبريك [2] ابن أبيه، فإنه لن يتراجع. الحب ماكر وقوي. حين يسيطر على العقل، فإن الإنسان قادر على كل شيء، ويجب أن تتذكر ذلك. وهناك أمر آخر انتبه إليه حين تتخذ قراراً: لا تنس في أي زمن نعيش. ألا يمكن لهـذا الفـارس أن يصبـح رجــلاً كبيراً ومحترماً؟ لا داعي لنذهب بعيداً! كان رئيس مجلسنا القروي من أفقر الناس، ومن أصبح؟ ومن يستطيع القول إنه ليس في محله؟ هكذا الوضع يا إنالوك. فكر...

بعد مرور بعض الوقت على سماعه هذه الكلمات، رفع إنالوك رأسه، ونظر إلى الجالسين حوله، وهز كتفيه.

- أيها الرجال المحترمون في القرية، ألا تجدون موضوعاً للحديث عنه سوى ابنتي الصغيرة وهذا الشاب الذي حتى لا أريد نطق اسمه؟ أم أنتم أصحاب القبعات قلقون من مصير ابنتي؟ أم ربما هذا المشرد أثار خوفكم إلى حد أنكم تحاولون تخويفي؟ إذا تجرأ على الحضور مرة أخرى بطائرته الكريهة، سأسمح لأشقاء ابنتي بالتوجه إلى نالتشيك لضربه حتى ينسى مخلوق

الشيطان هذا الطريق إلى هنا براً وجواً! أدعوكم إلى الحديث في أمور أخرى تستحق الانتباه.

وفي تلك الأثناء، كانت الصديقتان الحميمتان مارزيات والكنة الأصغر تتهامسان في أبعد غرفة في بيته.

انخرطت مارزيات مرة أخرى بالبكاء: - ماذا أفعل؟ ماذا أفعل الآن؟ انصحيني عزيزتي الكنة، فأنت تجدين الكلمة المناسبة دائماً.

- انتظري يا بنت، لا تحزني قبل الأوان. سنخترع شيئاً. لدي فكرة...

ابتسمت مارزيات عبر دموعها، ومسحت خديها، قائلة: - عزيزتي الكنة، لقد كنت طيبة تجاهي دائماً.

- لم يكن والدي ينوي تسليم ابنته العزيزة لعائلتكم. لكن شقيقك أظهر نفسه كرجل حقيقي وإنسان جريء. هل تتذكرين أن أكثر من عام مر قبل أن تتصالح عائلتانا؟ وماذا كان يبقى لهما أن تفعلا؟! تصالحتا وتعيشان الآن في الصداقة والوفاق. هكذا يحدث دائماً، إذ يصالح الزمن بين الجميع.

- لماذا تقولين كل هذا؟

- لأن عليك أن تتجرئي أيضاً، فأنتما تحبان إحداكما الأخرى! هذا هو الأهم. لست الأولى ولا الأخيرة. أقسم بشقيقي الوحيد، يجب ترتيب الخطف!.. لماذا تخافين؟ لن يعرف أحدٌ إلا الله، وهو لن يكشف عن المسكينين طاهر وزهرة.

كانت مارزيات تنظر حولها، وكأنها تخشى أن الجدران الصامتة ستتحدث بوجود والدها وأشقائها، وهمست: - ماذا تقولين يا روحي! كيف يمكنني أن أجرؤ على ذلك؟ سيشنقونني مثل القطة...
- صحيح، ماذا يبقى لهم أن يفعلوا؟ لن يمدحوكِ... لكن بفرارك إلى حبيبك، ستكونين تحت حمايته. الفرسان الشباب مثل إسماعيل قادرون على الدفاع عن أقمارهم.

- لا، أتركي أحاديثك الخطيرة يا كنة.

- ماذا يبقى لك؟ يجب ألا تفقدي السيطرة على نفسك. كفاك بكاء. من الأفضل أن تذكري اليوم المناسب وسنبدأ بالاستعدادات. لا أرى مخرجاً آخر.

- لا، لا يا كنة، أنا لا أستطيع...

وكأنها لم تسمع همس مارزيات، قالت الكنة الصغيرة: - اكتبي له رسالة حتى يستعد. وإذا فات الأوان، سيقدمون لك من لم تريه من أساسه. هل تتمنين ذلك؟

بدأت الكنة الصغيرة برسم مشاهد الخطف، وهي تتعمق في ذكرياتها.

كانت مارزيات تسمعها، مصابة بالفزع والبهجة في آن معاً.

- فكري في الآتي: إنه فتى رشيق مثل شجرة الحور ويرتدي زياً عسكرياً وحذاء يلمع، يسير إسماعيل في نالتشيك، وتوجه فتيات المدينة نظراتهن إليه. وما أجملهن! لهن شفاه وأظافر، ويضعن المسحوق ومستلزمات التجميل، ويبتسمن ابتسامات بلا خجل. هل إسماعيل من حجر؟! خذيه قبل فوات الأوان وقبل أن ينشغل بهن.

يبدو أن هذه الحجة كانت الأقوى. توقفت مارزيات عن البكاء، ولمعت عيناها غضباً. تخيلت كيف تلتف فتيات حسناوات حول إسماعيل، فيغادر مع إحداهن إلى الأبد دون إبداء مقاومة قوية.

- انتظري يا كنة. فقد اختلط كل شيء في رأسي المسكين. لم أعد أعلم ماذا أفعل...

صرخت الكنة الصغيرة: - الفرار! الفرار فقط... هل تتذكرين بنت أوبكير؟ لم يلاحظ أحد كيف خطفها أربعة فرسان من الفناء مباشرة، حيث كانت تنتظرهم مع كيس حاجياتها. أما دوخبارينا زامايفا، فتم خطفها مع الرشاش. أنا صراحةً لم أر الرشاش، ولكن الناس يقولون ذلك. والحمقاء الجميلة بوكميناتكا، تم خطفها وكأنها دمية على متن «إمكا» [3]. هي من حسدتها من أعماق الروح. ولست أنا فقط. الحمقى لهم حظ جيد...

- ماذا سأفعل أنا المسكينة؟ يا الله، امنحني العقل والقوة لهذه الخطوة الغريبة. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

- عدت مرة أخرى! اكتبي رسالة. سأذهب في يوم السوق إلى نالتشيك، وسأضع رسالة حب منك في صندوق لبني. وأنت لا تظهري شيئاً. أعدي الأشياء الضرورية بهدوء، واجمعي الكيس. والعريس سيرتب الباقي.

أصبحت الكنة الصغيرة تدور في الغرفة، وكأنها هي التي تجرأت على مثل هذا التصرف.

- لا تنسي أن تضيفي أن الكنة الصغيرة المشاركة في هذا العمل الخطر تستحق على الأقل حذاء ذا كعب عال مثل ذلك الذي كان في «الهدية السماوية» وعطراً جيداً. وإذا قرر إسماعيل إضافة أقراط من الياقوت، فلا تثنه عن ذلك. يا ترى، كيف يحضن طلاب الكلية العسكرية هؤلاء حبيباتهم؟ ماذا أقول؟! اغفر لي، أنا حمقاء. أنا قلقة أيضاً كما ترين. الليلة التي ستكونين فيها في حضن حبيبك، سأتعرض لاستجواب حقيقي، وكأنني في جهنم.

مر شهران تقريباً. وبدأ نسيان الخطوبة وأعمال الجريء إسماعيل، فظهرت أمور أهم.

هدأ إنالوك أيضاً. كان يسلم على المتقدمين السابقين ويحدثهم بابتسامة طيبة. لم يعد يتذكر الخطوبة الفاشلة أحد. كان إنالوك يفكر أحياناً أن هذا الفارس فقد الأمل وتزوج فتاة من المدينة. ماذا ستفعل، لن تواصل دق الباب المغلق إلى الأبد. لكن أحياناً كانت تأتي إليه أفكار مفاجئة مثل «ماذا يعني أن هذا الفارس لا يملك بيتاً أو فناء أو مواشي، ولكن لديه رأس! إذا صدقنا كلام النساء، فإنه ليس غبياً على الإطلاق. كما أنه في الوقت الحالي، يحقق اليتامى نجاحات، ويصبحون رجالاً بارزين. نعم، إن والده أربيك، ولكنه طالب بكلية عسكرية! تُوفِّر الدولة لهم لباساً وغذاء وتعلمهم قيادة الطائرات! تثق الدولة فيهم. من يعرف شباب اليوم...».

رغم أن مثل هذه الأفكار لم تكن تأتي إليه كثيراً، إلا أن إنالوك كان يبعدها عن نفسه بإصرار، وكأنها ذبابة خريفية تسعى للجلوس إلى جبهته.

أحياناً كان يتذكر كلمات نجله الأكبر والذي نطق بها يوم سقوط «الهدايا السماوية»: - إذا تجرأ على الظهور هنا مرة أخرى، سأحدثه بطريقة لن يستطيع بعدها صعود عربة قديمة لا الطائرة فقط. سيتذكر إلى الأبد أنه لا مزاح مع آل جانبيرميزوف.

أما النجل الأصغر، فلم يكن يبشر بالخير أيضاً، إذ عرف بشخصيته المتمردة وكثيراً ما كان يشارك في الشجارات قبل الزواج. كان مصارعاً معروفاً، وكان ذلك يثير قلق إنالوك.

أما النساء، فلم يعدن يتذكرن إسماعيل لا خيراً ولا شراً، وكأنه لم تكن هناك أحداث هزت قرية سوستار القديمة.

كان ذلك يذكر إنالوك بالخدش في الظهر، أي في مكان لا تستطيع الوصول إليه بيديك، وكأن الأمر بدأ وترك في المنتصف دون استكماله...

أوشك الصيف على الانتهاء. كانت النساء يجمعن البطاطا، وذهب الأبناء لجز العشب، وكان إنالوك نفسه يصنع سلة لحفظ الذرة.

أصبحت الشمس في السماء الصافية تشبه ابتسامة المتقدم للخطوبة. ومرة أخرى دخلت إلى رأس إنالوك الحكيم فكرة: «كانت تحلق الطائرات دائماً في مثل هذه الأجواء الواضحة... ربما نقلوهم إلى مدينة أخرى؟ لا أنباء عنهم، وكأنهم لم يكونوا موجودين من أساسهم. لا يحضرون... مرة أخرى عنهم. لعنة على تلك الطائرات. هل من شأني أن أفكر فيهم قبل جني محصول الذرة، وأنا لم أنته من الدعاء؟ يقترب موعد نزول المواشي من الجبال، أليست هناك هموم كثيرة متعلقة بإعداد الحظيرة؟ والعشب هذه السنة قليل أيضاً: لا سامح الله أن يطول أمد الشتاء ويكون بارداً وممطراً».

في تلك الأثناء، مرت بجوار إنالوك مارزيات والكنة الصغيرة وبحوزتهما دلوان.

سأل إنالوك بصوت منخفض دون أن يترك عمله: - إلى أين تذهبان وأنتما بهذه الأزياء الجميلة؟ أم أن هناك حفلاً في وضح النهار؟

وفكر: «تعيشان في الود، وهذا جيد أنهما صديقتان، لأنه في أحيان كثيرة تعيش الكنة مع شقيقات الزوج مثل القط مع الكلب. كان لي حظ جيد مع الكنات، لاسيما الصغيرة منهن، فهي ذكية وخجولة ومؤدبة...».

ردت الكنة الصغيرة بصوت غريب، وهرعت خلف مارزيات: - نذهب إلى المنبع، وفي الطريق نتفقد المتاجر.

«ما أغرب النساء! يجب أن يرتدين ملابس فاخرة عند الذهاب إلى متجر ولجلب المياه. هذا مفهوم بالطبع، فالمرأة هي دائماً امرأة، وتحب إظهار جمالها. أين ستظهره؟ تذهب إلى السينما نادراً مرة أو مرتين شهرياً. متاليف موجود في المحل، ويبدو أنه يتمنى أن يصبح صهراً لعائلة جانبيرميزوف، ولكنه لم يجرؤ بعد. ليس مصادفة أنه لم يأخذ مني ثمن النبيذ مرتين. لن تشتريني بهذا الرخص. لكن لماذا متاليف ليس عريساً؟ إنه مالك لبيت فاخر ذي فناء واسع وله عمل محترم ومربح، ويذهب إليه الجميع بانحناء وكلام من العسل. بالطبع، هو ليس شاباً، بل أرمل، ولكنه إنسان موضوعي. إذا أرسل متاليف متقدمين للخطوبة...».

لكن منذ فترة طويلة، كانت نظرة إنالوك تتجول في السماوات فوق نالتشيك. شعر بالضيق وأخذ عكازاً جديداً.

صدق من قال: بداية لشخص ونهاية لآخر. لن تتكهن بمصير أحد. من كان يتوقع أن يصبح شاب فقير متحكماً لا في حصان ولا جرارة ولا سيارة، وإنما في طائرة؟ يبدو أنه شاب ذكي، وإلا لما كانوا وثقوا فيه. وبعد الانتهاء من الدورات، يقال إن راتبه لن يقل عن المهندس المشرف على بناء الطريق إلى جيربيتيج. ويقال إن فوروشيلوف نفسه يسلم لهم الشهادات بعد الدورات، ويحضن كل واحد منهم بحفاوة، وكأنه شقيقه الأصغر. هذا هو المسكين إسماعيل ابن إسحاق. هذا ليس متاليف. إلا أن متاليف...

بعد إدراكه أنه لن يتخلص من هذه الأفكار المزعجة، توقف إنالوك عن الدعاء، وذهب إلى البيت لتناول اللبن الرائب البارد. وفي الطرقة، سمع صوت الطائرة الذي اعتاده، فهرع إلى الفناء، وبدأ يتأمل في السماء الصافية فوق الجبال. لم ينتبه إلى تسارع نبضات قلبه، وكأنه رأى ضيفاً عزيزاً يسرع إليه على الطريق الجبلي.

سرعان ما تحولت النقطة الصغيرة السوداء إلى الطائرة المعتادة. رفع إنالوك يده، وكأنه نوى أن يُلوِّح إليها، ولكن الطائرة حتى لم تقترب من بيته، بل اختفت خلف المنحدر.

«يبدو أن عريساً فقد الأمل في الحصول على ابنتنا، فلم يعد يحضر إلى هنا. أين بات فرحات وشيرين وصاحب جمال وبوزجيغيت الذين كانوا مستعدين لكل شيء من أجل الحب؟ لم يعد الحب كما كان، ولم يعد الفرسان كما كانوا. تنشأ قبيلة جبانة. يريدون أن تسقط التفاحة إلى أفواههم بنفسها، ولكنهم يخشون من تسلق الشجرة في حديقة غيرهم! ماذا أفكر فيه، حين ينتظرني عمل عاجل؟!».

عاد إنالوك إلى العمل الذي تركه، ولكنه لم يتقدم. سيطر هذا الشاب المسكين مرة أخرى على فكره، وغالباً ما كان يتم طرده من الدورات بسبب تحركاته فوق سوستار. «معهم حق، فالطائرة ليست عربة شخصية، بل ملكية للدولة ذات ثمن عال. يبدو أن الإدارة علمت بتصرفاته، فطردت اليتيم المسكين، وربما سجنته... لكن لماذا تطرده وتسجنه؟ لعب الطالب قليلاً، عاقبه، ولكن لا تنس أنك نفسك كنت شاباً. لماذا كل هذه الصرامة؟ الشيطان! هذا ليس أمري ما إذا كانوا طردوه أم لا... هل هو حفيدي أو ابني أو ابن شقيقي؟ ما علاقتي بالأمر؟ أتعاطف طبعاً مع الفارس مثلما أتعاطف مع أي شخص آخر يقع في مصيبة...».

قاطع صوت الطائرة العائدة تفكير إنالوك، وانهال عليه الحزن لسبب لا يعلمه. كانت الطائرة في السماء الزرقاء تصبح أصغر فأصغر، وحزنه الأليم

وغير المفهوم أكبر فأكبر...

- يا لليوم الأسود الذي وقع علي! يا للمصيبة التي حدثت لي! وأنا السبب في كل ذلك! اقتلوني أنا الحمقاء! اذبحوني! لم أتمكن من حماية الفتاة المسكينة! لم أتمكن من حماية الفتاة الضعيفة. كيف سأنظر إلى عينيْ والدتها؟ يا للمصيبة...

لم يتعرف إنالوك على صوت الكنة الصغيرة فوراً، عند سماع هذا العويل. كان يمكن أن يظن أن كل مصائب الدنيا وقعت على رأسها.

دخلت مترنحة إلى الفناء، حيث أحاط بها أفراد الأسرة والجارات بطوق ضيق. ظل إنالوك يقف في محله، وهو يمسك مقبض السكين بقوة.

كانت الكنة الصغيرة تقطع وتشد شعرها وتخدش وجهها. ولكنها لم تقطع شعراً كثيراً، ولم يكن هناك أي خدش جديد على وجهها، إلا أنه كانت هناك دموع حقيقية على خديها تظهر مدى اليأس والمصيبة. باكية، حاولت الكنة رواية ما جرى: - هذا الشيطان... لتأكل الذئاب الجائعة رأسه... هذا إسماعيل، ليُنطق اسمه بعد المغرب فقط، حضر على متن طائرته... ليحرق كاملاً... هبط إلى الحقل بجوار المنبع، وقفز من «عربة الشيطان»، لتدهسه هذه العربة... أمسك المسكينة مارزيات! هرعتُ وراءه، ولكنه دفعني، لتسقط الصخرة عليه، وخطفها!.. ماذا سأفعل؟ يا الله، ساعدني في أن أموت فوراً!..

كانوا يستمعون إليها بانتباه ويهزون رؤوسهم، ولكن كان واضحاً أنهم لا يصدقونها. إلا أن والدة مارزيات والكنة الكبيرة اللتين حضرتا متأخرتين، انضمتا إلى البكاء أيضاً.

كان إنالوك يتابع هذا المشهد المروِّع بصمت. كان الحشد يكبر، وكأن شخصاً ما كان يسير في الشوارع ويدعو الجميع إلى بيت العجوز إنالوك. كان المارة يدخلون إلى الفناء، مستعجلين للتعبير عن تعازيهم.

حضر الشيوخ المحترمون، نيوزيور ودالخات وبيبيرت، برفقة غيرهم من الرجال. لم يكونوا على علم بالمصيبة التي وقعت على بيت جانبيرميزوف، ولكن كلماتهم ونظراتهم كانت مليئة بالتعاطف.

حينئذٍ دخل إنالوك إلى طوق النساء، ووضع يده على كتف الكنة الصغيرة. انتظر الصمت، وقال، متمالكاً الضحكة بصعوبة: - كفاك يا كنة. يرى الله أنك نجحت في مهمتك الصعبة. اهدئي وكفاك بكاء، فلن أصدق أن الأمر

تم من دون تدخلك. داعب شعرها واحتضنها. يرى الله أن معاناتك تستحق أعلى تقدير. اتركي الله في هدوء. كفاك إرباك المحجبات ونحن أيضاً.

ثم توجه بالحديث إلى أصحاب اللحى الشيباء: - لماذا تقفون مثل الثيران الشبعانة؟ لماذا تهزون رؤوسكم حتى دون أن تعرفوا ماذا حدث؟ أيها الأصدقاء الملحتون، تم خطف ابنتي مارزيات بواسطة طائرة! لا بعربة قديمة ولا بسيارة «غاز إم»، وإنما بالطائرة! هل تسمعون؟! اذكروا لي أي شخص آخر في الجبال خطفت ابنته بواسطة طائرة حقيقية. لماذا فتحتم أفواهكم، وكأنكم في عرض الحبل المشدود بسوق نارسانينسك؟ ألا أقول كلاماً واضحاً؟ لا يزال في جبالنا فرسان حقيقيون وشجعان من أصحاب نظرة النسور وقلوب الأسود. فقط انتقلوا من الحصان إلى الطائرة. شاطر يا مسكين أو بالأحرى يا ابني!

عاد مستمعو هذا الخطاب الغريب إلى الوعي تدريجياً، وبدأوا يبتسمون بخجل، مترقبين مأدبة قريبة وفرحاً. لم تكن عائلة جانبيرميزوف من البخلاء.

لم يكن أفراد الأسرة يتوقعون مثل هذا التحول، وكانوا ينظرون إلى إنالوك بريبة. ربما ظن بعضهم أنه أصيب بالجنون من الغضب والحزن في صدره القوي.

كانت الكنة الصغيرة هي أول من أدرك أن العاصفة الرعدية مرت بعيداً، فابتسمت وانضم إليها الآخرون.

وواصل إنالوك يردد: - لماذا أيها الشيوخ المحترمون لا تدخلون إلى بيتي ولا تهنئونني، وكأن عظام الخراف سدت أفواهكم؟ وأنتن أيتها المحجبات وصاحبات القلوب الماكرة، افرشن الموائد واذهبن إلى متاليف لشراء النبيذ. وسريعاً، لأن الفرحة لا تحب الانتظار!

يونس تشوياكو

حذاء يدوي الصنع من جلد العجل

بعد يوم شاق في العمل تذهب الطبيبة نيوسيا إلى غرفة خلع الملابس، وتفتح أزرار الرداء الأبيض. كانت مشيتها هادئة ورشيقة وخداها أحمران. إنها ليست نحيفة ولا سمينة، طويلة ورشيقة، امرأة ميسورة الحال.

حين تخلع رداء الطبيب الأبيض هذا، يبدو لها أن صدرها مرتفع بشكل مبالغ فيه، وحتى البلوزة الصوفية التي ارتدتها، بدت عاجزة عن إخفاء جمالها الأنثوي.

لم تجلس مرة خلال اليوم كله، وأصابها الإرهاق بشكل ملحوظ. داخل الكابينة تخلع شبشبها المتدني من جلد الماعز وترتدي حذاء ذا كعب مدبب حاد. تصبح أطول، وفي تلك اللحظة تبدو نيوسيا لنفسها أنها حسناء، ولكن ذلك لا يسعدها كثيراً اليوم.

قبل المغادرة، تأخذ حقيبة يد مصنوعة من الجلد، وتبتسم للمربية العجوز كالمعتاد.

قالت المربية لها:

- أتمنى حظاً سعيداً لك ياعزيزتي! أرى أنك أرهقت نفسك اليوم، فاستريحي.

كلمات بسيطة وصادقة نابعة من الروح. يبدو وكأنها لم تقل شيئاً، ولكنها تنفست الصعداء. نظرة دافئة وطيبة يكاد لا يلحظ فيها التعاطف: جميلة جداً، ولكنها لا تملك سعادة عادية...

تخرج نيوسيا من المستشفى وتعبر حديقة الحي. مشيتها جميلة، فأطراف قدميها موجهة إلى الجانب، وخطواتها صغيرة. ليست مستعجلة هنا أيضاً، بل تريد الاستمتاع بالمساء. هواء الخريف طازج وشفاف، والشمس

تشبه سبيكة نحاسية ضخمة عالقة فوق سطح البيت. توافر كثير من الضوء وقليل من الدفء، فلم تعد الأرض دافئة مثلما كانت في الصيف. لا يكفي سوى لإحراق أوراق الأشجار التي أشعلتها نيران الخريف الصفراء التي تلون حتى السماء الزرقاء بالألوان الأصفر والوردي والذهبي... أشعل الخريف اللعوب نيرانه الساحرة، متأملاً تمرد الألوان، وتغني مئات الطيور أغاني صفراء لهذا العالم الأصفر، مكررة همس أوراق لم تسقط بعد.

لم تكن ترغب في ركوب الحافلة المليئة بالركاب. قبل الوصول إلى المحطة، رفعت نيوسيا يدها، لتوقف سيارة. ندمت على ذلك، ولكن سيارة «فولغا» البيضاء قد فرملت ووقفت بجوارها. كان يقودها رجل شاب يرتدي زياً عسكرياً، ولا أحد يجلس بجواره... لم يثر ذلك خوف نيوسيا، ولكن أفكاراً سلبية خطرت على بالها: سيقولون إنها تستقل سيارات مع الضباط بعد أن أودعت شاباً رائعاً في السجن!.. أم قررت ألا تتزوج على الإطلاق؟

نعم، طبعاً سيقولون ذلك، وسيسخرون منها. عليها أن تسعد، فهي ليست الأولى ولا الأخيرة من يلحق بها هذا المصير، إذ تقبل جميع المختطفات تقريباً بمصيرهن والبقاء في الأسرة دون إيصال القضية إلى المحكمة. ولكنها مصابة بالكبرياء... أليست هناك أمور كثيرة يتحدث عنها الناس؟ يقال إن ما لهم سوى التحدث، ولكنه من المزعج أن تتنقل من الأذن إلى الأذن داخل القرية نميمة جديدة عنك.

فتح السائق الباب برفق، وقال بصوت منخفض وبتلك البساطة، وكأنه يعرف نيوسيا منذ ألف سنة:

- تعالي، اركبي! السيارة كبيرة والمكان كاف.

قررت نيوسيا أن تقول إنها لن تركب، حيث عليها أن تنتظر صديقتها التي أوشكت على الوصول، فتعتذر عن توقفه وتعطيله. ولكنها لاحظت أن الضابط الشاب ينظر إليها بتلك اللامبالاة، وكأنه لا يعنيه من سيركب معه، فغيرت رأيها وامتثلت. إذا تحدثوا عني، فليتحدثوا، وهذا أمر يخص ضمائرهم، ومن سيرى؟ بدلاً من الاعتذار، جلست إلى مقعد ناعم عميق، وهي تعطي ظهرها للرجل، وعدلت تنورتها وشدتها إلى ركبتيها، ووضعت حقيبة اليد الجلدية عليهما، وابتسمت بشيء من الارتباك. لم تبتسم للسائق، وإنما لنفسها، إذ خجلت أن تتأمله، كما أنه لم ينظر إليها أيضاً، بل واصل التفكير في أموره. ثم مد يده ليغلق الباب، وهو يسعى ألا يلامس الراكبة.

تردد صوت الإذاعة، ثم انتبه واعتذر:

- ألا يزعجك؟ يمكنني إغلاقها...

ردت عليه نيوسيا بعجالة:

- لا، لا، لا يزعجني.

- لا أخطو خطوة من دون موسيقى. هل هذا طريقك؟

فكرت المرأة الشابة: «كم هو شريف! أم ربما يمثل؟». واصلت تفكيرها: «كم من الرجال يعتبرون أنه لا يوجد شخص أقوى منهم! مثل هؤلاء لن يهدأوا إلا بعد تحقيق ما يريدونه. لاسيما مع النساء: يظنون أنهن سيتحملن كل شيء، وطال الزمن أو قصر سيقبلن بمصيرهن في نهاية المطاف، وسيعشقن من اعتدى على عذريتهن».

كان من بين الاتهامات المعتادة التي كانت نيوسيا توجهها إلى الرجال بشكل عام، أنه لا يمكن ركوب السيارة مع بعضهم، حيث يبدأون بإلقاء المزحات والتلميحات فوراً. لكن هذا الرجل قليل الكلام لم يكن مثل غيره، وعلى عكس العادة، شعرت نيوسيا بنوع من الامتنان تجاهه، وذلك على تواضعه، ورأت في ذلك دفاعاً، ولو جزئياً، عن كرامة الرجال.

لم تتمكن من حب الرجل الذي أهان شبابها. لم تتمكن من حبه حتى بعد أن شعرت بنبضات قلب صغير تحت قلبها. يرى الله أنها لم تكن ترغب في ذلك، بل كانت تدعوه نهاراً وليلاً أن يغير مصيرها. لكن ألم يكن الأمر كذلك لمجرد وقوعها في غرام رجل آخر؟ لكن من سيطر على قلبها كاملاً اختفى، وكأنه غرق تحت سطح الماء.

كانت سبيكة الشمس النحاسية تغرب، وهما يسيران وراءها. كانت الأشجار الذهبية - الوردية تمضي في تتابع على جانبي الطريق، وبينها حقل. كان الأسفلت الأسود، يصعد إلى التل، بينما تتساقط أوراق الأشجار على زجاج السيارة. قبل السقوط والارتطام بالزجاج، كانت تنقلب في الهواء، وكانت خفيفة وأخف كثيراً من أفكار نيوسيا!

وعلى الجانب الآخر من الزجاج، تتشابك أشعة الشمس الوردية الفاتحة بألواح قوس قزح. كانت كثيرة، وكانت تتساقط على الزجاج. عندما تلاحظها، تتأملها نيوسيا، وتمد يدها إليها عبر النافذة المفتوحة حتى تصطادها، ثم تقطعها بكفها البيضاء الناعمة، وتغمض عينيها مبتسمة.

ربما الموسيقى هي السبب في ذلك؟ كانت في البداية تتناغم مع نبرة السائق بهدوء ونعومة، ثم ارتدت حلة جميلة وازدادت جرأة، وباتت تنتشر في صالون السيارة. وكأنها فعلاً موسيقى أوركسترا تضم جميع الآلات الموسيقية الموجودة في العالم. بدأت جميعاً بالدوران سوية وبحرية: الآلات الخفية والموسيقى وأوراق الأشجار وقوس قزح أشعة الشمس على الزجاج والأشجار والتربة السوداء المتطايرة.

لم تكن سيارة «فولغا» تهتز على الإطلاق: إنها تسير بشكل ناعم ولا تتأثر بتعرجات الطريق. بدأ الجسم المجهد يرتاح تدريجياً، ممتلئاً بالدفء والراحة والهدوء. كانت نيوسيا تشعر بهذه التغييرات، وباتت عيناها تغلقان وحتى بدا لها أنه لا لمسات للحياة، بل هي تطير فقط إلى وجهة ما. وكأن فرحة ويقظة ما، نشأتا قلبها. تذكرت فجأة ببساطة ابنها السمين والطيب. تكاد عيناها تغلقان... الموسيقى جيدة.

بعد نغمة الرقص، بدأت امرأة بالغناء. كان صوتها شاباً، وكانت بداية الأغنية حزينة: «الطيور المهاجرة إلى الجنوب تعود يوماً. إذا بقي فيك شيء من الإنسانية، لتعود أنت أيضاً إلى البيت...». لكن كانت هناك أيضاً أغنية مضيئة ومثيرة للأمل، ولو كانت عن الحب من طرف واحد بلا مستقبل. خطرت على بال نيوسيا فجأة فكرة أن شخصاً أحب بعمق فقط كان يمكنه أن يؤلف هذه الأغنية. يمكنك حتى القفز إلى النار بسبب الحب! كان مؤلف الأغنية مستعداً لمثل هذه الخطوة البطولية!

كم عدد المساكين الذين أحبوا من طرف واحد واجتمعوا تحت هذه العين النحاسية - الصفراء؟ تخيلت نيوسيا، وغمرها الحزن. «... اسمع أغنية الحب وعد إلي...». ظلت كفا السائق العريضتان على عجلة القيادة، فيوجهها بهدوء إلى اليسار وإلى اليمين، متابعاً منحنيات الطريق الريفي ويبتسم ابتسامة غير ملحوظة. لأول مرة نظر إلى الفتاة، بالمناسبة! وكأنه يؤنبها: «هل ذهبنا لشراء ملح؟ ألا ينبغي أن نخفف من متاعب الطريق بحديث عن أمر شيق؟ أم أن هذه الأغنية هي السبب بعد أن سيطرت على القلب!». حينئذٍ انتبه الضابط لجمال الفتاة: بالفعل فتاة جميلة غير عادية!

أبعد نظره، ثم نظر إليها مرة أخرى، وكأنه نسي أن ينظر في عينيها، وبقيت نظرته لثانية واحدة على صدرها المرتفع خلف البلوفر. خجل من نفسه، فبات ينظر إلى وجهها... وكأنه لا يخاطب أحداً، قال:

- كم هو سعيد من هو محبوب!..

هذا الكلام ليس عن الأغنية. لم ترد نيوسيا بكلمة، وإنما بابتسامة خفيفة على شفتيها.

- هناك فتاة اختفت في بجيدوجيا. يقال إنها اختفت بلا أثر...

فكرت نيوسيا، وهي تنظر إلى العسكري باهتمام: «كم من الأشياء تحدث في العالم!». انتبهت إلى أربعة نجوم رغم أن سواد شعره وحاجبيه كان يدل على أنه ليس كبيراً في السن ولا يتجاوز الـ30 من العمر. أم أقل؟ أخيراً أدركت بمن يذكرها! نصر الدين! إنه يشبه نصر الدين في أيام شبابه... وأرادت أن تنظر مرة أخرى إلى الرجل وتتأمل فيه، وهو عاد للتفكير في أموره: ربما في الأغنية وربما في الفتاة المفقودة...

وفي تلك الأثناء، كان العسكري يسأل نفسه: «أين رأيتها؟ وكأنني أعرفها... إنها ليست غريبة بالنسبة إلي». لكنه لم يكن قادراً على أن يتذكر. فجأة تغير وجهه وامتلأ بالفرح:

- نيوسيا!..

لم يقل ولم يصرخ بهذه الكلمة، بل خرجت من صدره تلقائياً وبتلك العفوية والقوة، وكأنه كان يحمل هذا الاسم بداخله وحلم به طوال حياته. انحرفت «فولغا» عن الطريق ووقفت على الناصية.

- نيوسيا...

فرحة خفيفة لامست شفتي الفتاة الورديتين، وفتحتا ذاتياً، وكأنهما تتعطشان للحب. لكنها لم تصدق بعد، ولم تدرك كل شيء بعد، وكأنها تقنع نفسها: «لا، لماذا، قد يحدث أي شيء... وصحيح أن نصر الدين يجب أن يكون في هذا العمر تقريباً الآن...».

* * *

سأل:

كم سنة مرت منذ ذلك الحين؟ انتظري، انتظري، فقد كنت تلميذاً في السنة السادسة، أليس كذلك؟

رفع يده من عجلة القيادة وبدأ العد بأصابعه.

إلا أن نيوسيا سبقته:

- 17 عاماً مرت، وبدأ العام الـ18.

ضحك نصر الدين:

- نعم، 17! أربع سنوات، وسنة هدراً، وخمس سنوات في كلية الطيران، وعام في الخدمة... صحيح، 17!

- هل تتذكر كيف كان الجمهور أثناء الفرح يصرخون: «يا نصر الدين، لا تستسلم!..».

- ... ضاقت الدائرة بسبب المصفقين! وأولئك الذين كانوا يطبلون بالآلة الشعبية «تريشيوتكا»؟ أولئك الذين كانوا يطبلون «تريشيوتكا»، آه؟! ما أكثر تطبيلهم روعة! كان يبدو لي بين الحين والآخر أنهم سيلامسون حذاءك بـ«تريشيوتكا». وكانت النساء بالطبع يشجعنني...

تتحدث نيوسيا بلا توقف، وكأنها عصفور الربيع. احمر وجهها دون أن تلاحظ ذلك، وباتت تصفق بكفيها، وكأنها تصفق لتلك الرقصة غير المرئية، متذكرة مزيداً من التفاصيل الجديدة:

- كان الأمر مضحكاً للغاية يا نصر الدين! كان الجميع يصرخون: نيوسيا، نيوسيا!.. وقد اشتبكت معك في الرقص. يصرخون: «لا تستسلمي أمام هذا الأسود يا نيوسيا، لا ترحمي حذاءك: إنه يدوي الصنع من جلد العجل...»، هكذا كانوا يشجعونني!

يضحك نصر الدين هو الآخر بلا توقف إلى حد البكاء، ودون أن يتوقف عن الضحك، يقول:

- وأنا بالطبع صدقت ذلك فوراً؟..

- بالطبع، صدقت!

لم تعد نيوسيا تجلس هادئة، ولم تعد تخجل من نصر الدين، وكأنها كانت تلتقي معه طوال هذه السنوات الـ17 وتحدثه... لم يعد يقلقها أن الناس قد يرونهما، ولم يعد يهمها ماذا سيقولون بهذا الخصوص: ليقولوا ويفعلوا ما يشاؤون...

نظرت إلى نصر الدين نظرة دافئة:

- وأنت... لا، لا أستطيع أن أحكي!..

- كيف لم تنس ذلك حتى الآن!

- وأكثر شيء أدهشني هو حين خلعت حذاءك من جلد العجل، وأصبحت ترقص حافياً!.. وكأنك قررت أن تبلعني دون أن تقرر بعد كيف تبدأ، فتنظر إلي وتقيسني بنظرتك، فشعرت بنفسي وكأنني فأرة صغيرة بلا حماية. وأنت نسر يحلق في السماء، ويزداد الرجال جنوناً، ويصرخون: لا تستسلم أمامها أبداً!

يعود نصر الدين بسيارته إلى الطريق السريع، وينظر إلى نيوسيا بدفء، ويقول ضاحكاً:

- ومع ذلك، أتذكر أنني مهما حاولت، فأنت لم تستسلمي!

احمرَّت، وقالت:

- هذا ليس ذنبي... أنت فقط، أنت فقط كنت تنظر إلي...

- وأنا لم يعد يهمني الفوز يا نيوسيا...

- وماذا؟

- يصعب التعبير عن ذلك. حتى الآن يبدو لي أنني لن أستطيع النطق بذلك...

ينظر إليها نظرة تعبر عما يزيد على كل ما قالاه خلال الطريق. لم تتحملها نيوسيا، فأبعدت نظرتها. لماذا؟ إنها نفسها لا تعلم. لكن على الأرجح يتعلق ذلك بما تعرضت له ومصيبتها النسائية السابقة. وغالباً ما جعل هذا الماضي وحده قلبها بارداً تجاه الرجال. وكان الأكثر مهانة أنه كان هناك أناس في القرية لم يدينوا الشاب الذي اغتصب شبابها، وإنما أدانوا الفتاة بسبب قسوتها تجاه خاطفها ودفاعها عن نفسها وكرامتها كفتاة. لم تكن تنصت لأحد: لو وجد وراءها من يحميها، لما ارتكبوا ذلك معها. إذا كانت الفتاة الشابة عاجزة عن حب من حرمها من أغلى ما لديها، ولم تنس من سيطر على قلبها منذ الطفولة، فما ذنبها؟ شعرت بالضيق مرة أخرى، وأصبحت أفكار نيوسيا مرتبكة مثل أوراق الأشجار الصفراء المتساقطة...

كرر نصر الدين مرة أخرى:

- لا، حقيقة، يصعب علي التعبير عن كل ذلك يا نيوسيا. رغم أنني كنت أفكر وأندم على ذلك... كدت أحفظ ذلك على مدى هذه السنوات... لكنني لم أتمكن...

تتردد داخل رأس نيوسيا جملة: «تعارفنا مبكراً، التقينا متأخراً». لكنها تسيطر على نفسها، وصوتها الفرحان يملأ صالون السيارة بالكامل:

- ... في اليوم الثاني من الفرح قبيل خروج العروسة من الغرفة، رقصت معك مرة أخرى، وعندما أدركت أنني سأنتصر مرة أخرى، فقد خلعت حذاءك دون أن تنتظر نهاية الرقصة، وهرعت من الغرفة. هل شعرت بالعار؟ لكنني لم أفرح أيضاً، صدقني، فلم أراك منذ ذلك اليوم...

تنظر إلى نصر الدين، وتقول نظرتها: «كم كنت أتمنى ذلك!..».

- نيوسيا، حضرت بعد ذلك إلى القرية عدة مرات، ولكنني لم أجدك.

قاطعته، ضاحكة:

- حتى تأخذ حذاءك؟ عندما تركت الحذاء، ظلت السيدات والفتيات يسخرن منك، قائلات إن الأم ستعلم هذا الغجري الآن، بلا شك، كيف يرقص الطبطبة على الأرض «تشيتشيوتكا».

- لم أر أمي أبداً. جدتي هي التي صنعتها لي.

- اعذرني، لم أكن أعلم ذلك! سمعتهم يقولون إن هذا اليتيم سيصبح بعد بلوغه راقصاً شهيراً، ولكنني كنت أعتقد أنك بلا أب فقط... في ذلك الوقت، كان هناك أطفال كثيرون بلا آباء...

إلا أن الحوار انقطع. انتهى البرنامج الموسيقي أيضاً، وبات صوتيْ رجل وامرأة يتلوان آخر الأخبار. انتهت الأشجار في حرم الطريق، لتمتد السهول الصفراء الحزينة، وشعرت نيوسيا مرة أخرى بالإجهاد الذي تراكم طوال اليوم...

نطقت في نهاية المطاف:

- انتظرنا والدك طويلاً، ولكنه لم يكن بين العائدين. حينئذٍ انتقلنا إلى جدنا في قرية أخرى، حيث التحقت بالمدرسة الثانوية والمعهد الطبي...

ثم أطرقت برأسها، وسألت نصر الدين بصوت منخفض، وكأنها تقول سراً:

- هل تريد رؤية ذلك الحذاء يدوي الصنع مرة أخرى؟ هل تريد؟

- هل هو موجود حتى الآن؟ ألا تمزحين نيوسيا؟

- لست حمقاء إلى حدِ أن أفقد مثل هذه القيمة! كنت أعتقد فعلاً أنك حتماً ستصبح راقصاً شهيراً، وحين تحضر إلى قريتنا، سأقدم لك أمام الجميع ذلك الحذاء يدوي الصنع، أي ما بدأت به! لذلك، حافظت عليه، وكنت أخبئه من أفراد أسرتي... وماذا؟

ضحك كلاهما.

يقول نصر الدين، وهو يواصل التحكم في عجلة القيادة:

- المرء لديه مواهب رائعة كثيرة أثناء الطفولة. أين تختفي فيما بعد؟! والله يا نيوسيا!..

يندهش الشاب، ولكن ليس لما يقوله. تندهش نيوسيا أيضاً، ويبدو لها مرة أخرى أنها سعيدة.

انتهى الأسفلت، وحين نزلا من الجبل، بدأ الطريق غير المعبد. وفي جوانب الطريق، كانت هناك أشجار أكاسيا ذات فروع بلا أوراق، وعلى الجانب الأيمن يندلح الحقل الأخضر للمحاصيل الشتوية، وعلى الجانب الأيسر حقل ذرة قد تم جني المحصول منه، وباتت الأوراق تصفر مثلما يصفر كل شيء آخر.

- أين أصبحت يا نيوسيا؟

- أعيش؟ في بيت جدي نفسه.

- وهل تعملين؟

- أعمل طبيبة في مستشفى الحي.

- من أين تأتين الآن؟

- هل أنت جاد في سؤالك يا نصر الدين؟ يقال إنه إذا علمت أشياء كثيرة، فـ... وأنت؟

- ماذا أنا؟ أنا أطير.

- إذن طيار؟

- ومن غيرهم يطير؟

- رواد الفضاء.

اندهش مرة أخرى بشيء من التمثيل:

- آه، صحيح! انتصرت هذه المرة أيضاً! والله يا نيوسيا، أنت إنسانة رائعة تصعب مجادلتك.

- انتظرتك، وكنت أظن أنك ستعود إلى قريتنا راقصاً شهيراً. لماذا لا تطير الآن؟

- إنني في إجازة غير اعتيادية.

- أي إجازة؟

بسعادة وشعور بتدفق القوة، ينزل القبعة الضيقة من الجبهة إلى الجزء الخلفي من الرأس.

- أي بيضة وضعتها الدجاجة للجد والجدة؟ إجازة ذهبية! كنت أحب الحكايات دائماً. هل تريدين أن أحكي لك حكاية؟ ألست مجهدة؟

نظرتاهما تلتقيان.

«كان يا مكان عاشت أسرة سعيدة. لكن ذات مرة، جلبت رياح شمالية غيوماً سوداء كبيرة، وخرج منها النسر الشرير وخطف أب الأسرة. هاجمه النسر بشكل مفاجئ من ظهره، وإلا لما كان له أن يسيطر على الأب الذي كان قوياً. كان الأب يعشق ابنه ووالدته بقوة. كان يحب أيضاً الشمس وقريته المشمسة كل الحب. لكن الآن، أصبحت الأم والابن الصغير وحيدين، وحتى لم تعد الشمس تزورهما.

وبعد مرور نحو قرن على اختفاء الأب، حضر إلى فنائهما شخص متجول.

بعد استراحته لعدة أيام، قال الضيف للأم: لديك من يمكنك أن تتركيه له. لذلك، لنطِر إلى مكان مشمس وخصب. وافقت الأرملة وأم الابن: «حسناً، لنذهب إلى مكان مشمس وخصب، وعلى من بقي على قيد الحياة أن يعيش، وله الله».

فعلاً مثلما قالا، طارا...

بقي الطفل اليتيم بمفرده. ذات مرة صادف نجمة لامعة جداً. لم يكن يعلم أنها وحيدة أيضاً، ولكنه أعجب بها. ثم تعارف عليها عن قرب وأحبها جداً. لكن في يوم ما، فقد النجمة أيضاً. حين فقد أحدهما الآخر، بات يفتقدها بشكل أكبر ويبحث عن مقابلتها وازداد حبه لها.

ظل الفتى اليتيم يبحث عن هذه النجمة لفترة طويلة...

بعد إدراكها جوهر الأمر، قالت نيوسيا بشيء من الحزن:

- ربما لم يكن يبحث كما ينبغي؟

رد عليها نصر الدين، قائلاً:

- لا، لا، كان يبحث عنها بجهد كبير! لف حول العالم كله. ثم اقتنع بأن النجمة غير موجودة في أي مكان، بدأ البحث من جديد، وأقسم أنه لن يعود إلا بعد العثور عليها. ذهب إلى كل مكان! ذهب إلى حافة العالم، ولكن النجمة وكأنها ذابت! لم يكن يستطيع التصديق أنه لن يجدها: كان مؤمناً بحظه.

- انظر، كم هو عنيد!

- ثقل رأسه من التفكير، وكان مجهداً إلى درجة الموت، وذات مرة حين كان عائداً، رأى فجأة بريق نجمته مرة أخرى بعد بحث طويل، بعد طرق كثيرة قطعها، باتت تسطع...

قالت نيوسيا مفرحة:

- لقد قلت إنه لم يكن يبحث كما ينبغي! فقد قلت ذلك!

- حينئذٍ، قال الفتى اليتيم للنجمة: كفانا، لا أريد أن أفقدك مرة أخرى! وحتى لا تختفي، ستعيشين معي من الآن!

- لا تحدث مثل هذه النهايات السعيدة إلا في الحكايات يا نصر الدين...

بقيا معاً: الفتى اليتيم والنجمة. عاشا في سلام ولم يعرفا المصيبة. هكذا الحكاية.

نظر إلى رفيقته بشيء من التردد.

أما نيوسيا، ففهمت بالطبع فوراً معنى ما قيل، وخمنته منذ بداية القصة. لا، حتى قبل الحكاية، بل منذ الكلمات الأولى للفتى الذي لا أعز منه عليها في العالم. ولكن الحكاية لم تهدئها، بل أيقظت في روحها هموماً جديدة، وكان يصعد أمام عينيها ابنها الذي بدأ يتعلم المشي للتو. الطفل الذي تحملت من أجله معاناة كبيرة وصعوبات كثيرة، وسمعت الكثير من النميمة... هذا ليس ذنبه، وهي لن تتركه بسبب رجل ما. هل سيفهم وسيتقبل نصر الدين ذلك؟ يبدو أنه يعرف كل شيء عنها، وربما يتكهن بوجود الطفل أو سمع من شخص ما؟ هل يعرف؟! يصعب فهم هؤلاء الرجال، هل يعقل أنه كان يمثل طوال ذلك الوقت؟

قالت بهدوء وفخر:

- لدي طفل يا نصر الدين...

قال نصر الدين، مستعجلاً:

- نعم، نعم! نسيت، أذكر أنه في الحكاية، حين وجد الفتى اليتيم نجمته، قالت له فوراً إن لديها طفلاً...

- وكيف رد على ذلك؟

- بدأت الحديث عن ذلك: رد على النجمة بأنه يحب الأطفال كثيراً. ربما لأنه نفسه كان يتيماً...

انتهت نشرة الأخبار بإذاعة «مایاك»، وبدأت إذاعة الأغاني مجدداً. إلا أنهما كانا وكأنهما يطاردان السبيكة النحاسية الضخمة التي اكتسبت الآن لوناً ورديا تماماً...

آدم غوتوف

منطق داباغو

حضر ضيف من مكان بعيد إلى بيت الضيافة «خاتشيش» [4] هو داباغ من آل زاخوخ الذي كان معروفاً بحكمته. تبين فيما بعد أنه كان قادماً من كياخيا [5]. تم استقباله بكرم الضيافة، وفقاً للعادات: بمجرد أن دخل إلى الغرفة، تم إحضار المياه للشرب والوضوء، ثم ظهرت المائدة [6]، وعليها أكلات خفيفة، ثم تم إشعال النيران في الموقد واصطحاب الحصان إلى الحظيرة وتقديم العلف له، وأخيراً حضر صاحب البيت شخصياً للترحيب بالضيف. بعد مرور بعض الوقت واسترخاء الضيف، بدأ وضع موائد عليها وجبات متنوعة وتناولها معاً مع تبادل الأحاديث أثناء ذلك. اجتمعت مجموعة كاملة من الناس في «خاتشيش» بحلول المساء. إنهم يتناولون الطعام والمشروبات، ويروون الأساطير القديمة، ويطربون ويمزحون ويرقصون. يتنصل الضيف من الإجابة عن الأسئلة، ولا يغني ولا يروي الأساطير، ولكنه لا يظهر تعباً أيضاً. هكذا مرت أول ليلة. وتلتها الليالي الثانية والثالثة والرابعة. الضيف نشيط، ولكنه متحفظ وقليل الكلام، ولا يروي عن نفسه شيئاً، ولا يذكر الغرض من حضوره. لا يزعجه داباغو بالأسئلة، منتظراً أن ينكشف الضيف بنفسه.

في مساء اليوم السابع على حضور الضيف، كان يتم وضع موائد عليها وجبات متنوعة. ليس للمرة الأولى بدأ الحديث عن مختلف الحملات، وكيف أحضر أحد المقاتلين النبلاء مجموعة من الأحصنة وأهداها للمجتمع، وعاد آخر بغنيمة ثمينة ووزعها على الآخرين، دون أن يحضر شيئاً إلى منزله.

ظل داباغو يستمع إلى كل هذه القصص دون أن يقاطع أحداً أو يكشف عن موقفه. وبعد حلول منتصف الليل، حين تحدث كل من رغب، وتأكد أن الضيف نشيط ولكنه لا ينوي الكشف عن أي شيء، بدأ يتحدث وكأنه يحاور نفسه لا المحيطين به.

- بالطبع، طالما لا يتجنب الفارس المخاطر، لا يمكن تسميته بالجبان. لكن هل يمكن تسمية أي شخص لا يختفي بطلاً؟ يتم اختبار الشجاعة بطرق مختلفة. إذا كنت من أجل المجد أو لاختبار نفسك تحرم غيرك من أملاكه المشروعة، أو تجبر أسرتك على المجاعة والحرمان، أو تقتل شخصاً بريئاً من أجل إثبات مجدك، أو تحرم الأم من ابنها الوحيد، فأنا لن أسمي ذلك شجاعة.

يبدو أن ضيوف «خاتشيش» قد اعتادوا أن داباغو كان يسمح لنفسه بالحديث بطريقة تختلف عن غيره. سمعوا منه مراراً ما يتعارض مع المفاهيم المعتادة. إلا أن كلماته هذه المرة جعلت الحاضرين يتبادلون النظرات. كان الفارس المخضرم جامبولات هو أول من لم يصبر: - كفاكم يا داباغو المحترم. إذا كنا سنزن قبل كل لقاء مع العدو كل ما قلته على ميزان العدالة، فلا يبقى لنا سوى الجلوس أمام موقدنا وخلط الرماد. أليس أكرم الرجال هو من لا يعرف الشك والخوف! وهل يمكن التفكير في التداعيات ووزن كل ما قلته في كل مرة ترفع فيها السيف! من البديهي أنك لن تقوم بذلك، وإذا فكرت في ذلك، فلن تظهر الشجاعة.

لكن داباغو لا يستسلم: - لا، إذا حكمنا بهذه الطريقة، فأفضل الكائنات الحية هو الذئب: إنه لا يفكر أبداً في التداعيات، ومهمته الوحيدة هي الحصول على أكبر غنيمة فوراً.

إلا أن جامبولات لم يكن ينوي الاستسلام أيضاً: - لا، على عكس الذئب، فإن سليل آل زوخوخوف رجل قادر على الحكمة، ويدرك ماذا يفعل ولماذا. من حضرتَ للقتال معه هو عدوك، فإما تنتصر أنت عليه وإما هو عليك. في حال سيطرت عليك الشكوك بلا نهاية، وإذا فكرت في التعاطف معه، فستبكي أمك، بينما ستفتخر أمه بابنها. لا ينتصر من يشك، وإنما قوة يدك وصدر حصانك هي قياس شجاعتك، وهو أمر يعلو فوق جميع أحاديث العقل!

- حسناً، أتفق مع ذلك. لكن تقبل شرطي. فكر في الآتي: ماذا ستقول إذا صادفك في وقت غير مناسب شخص لا يشك ولا يتناقش وقضى عليك وعلى أقربائك؟ هل ستقول إنه رجل جدير أم ستطلق عليه تسمية أخرى؟

- إذا كنت قوياً، فلن تُهزم!

- لكن إذا كانت تنقصك القوة، ألن يكون خصماً بالنسبة لك؟

بهذه الكلمات أربك داباغو من كانوا غير مستعدين لإنكار المفاهيم المتعارف عليها. شعر الحكيم بالتغيير في مزاج المستمعين، وواصل: - ليعتبر كل شخص ما يشاء، ولكن من وجهة نظري، فإنه لا يجوز الفصل بِين الإنسانية

والشجاعة: لن تكتمل إحداهما دون الأخرى. إذا لم تكن شجاعاً، فلن يكون هناك تعاطف كاف في الروح، وكذلك إذا لم تكن تدرك آلام الآخرين، فلن تظهر شجاعة حقيقية. القسوة ليست مرادفاً للمجد. حتى إذا كنت قوياً جداً، فلن تستطيع الاعتماد على حصانك وقوة بدنك إلا حين تصادف شخصاً أقوى منك.

حتى الآن، كان الضيف يجلس هادئاً وصامتاً، ولكنه قال فجأة: - اعذرني يا تحمادة [7]، فقد غادرت منطقتي وأهيم في بلاد الأديغيين، وحضرت إلى هنا تحديداً، لأنني لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال بنفسي. بالعقل، أعترف بأن كلامك صحيح، ولكن شيئاً ما بداخلي يمنعني من تطبيقه. في ذهني، لا يتطابق ذلك مع عالمنا. لكن روحي لن تطمئن إلا حين أجد تفسيراً. أطلب منكم باسم الله وباسمي أنا كإنسان عادي: أيها الجالسون المحترمون، اسمعوا قصتي وساعدوني في تحديد الموقف.

أجاب الحاضرون:

- سنسمع بالطبع، يرى الله أننا مستعدون للاستماع والنصيحة في حدود وعينا المتواضع. ألم نجتمع من أجلك أيها الضيف العزيز؟ تحدث بشجاعة.

- سأبدأ إذن قصتي رغم أنني شاب وقليل الخبرة، ولم أكابد نسبة ضئيلة مما امتحنتم به من محن مرات عدة، وعاجز عن القيام بنسبة مما تستطيعون فعله بسهولة. أثق في أنه حتى في المنام قبيل الصباح، ترون أكثر مما مررت به خلال حياتي القصيرة. رغم قصرها، إلا أنها حياتي، وربما القصة التي سمعتها قد تبدو لكم شيقة. طالما قبلتم الاستماع إلي، فأتجرأ على أن أرويها.

عند سماع هذه الكلمات، ركز الجالسون انتباههم، بينما انحنى الواقفون إلى الأمام، واقترب من يُملي عليهم سنهم الجلوس في الركن أو على العتبة.

* * *

وجد رجل مع ابنه الصغير مأوى في غابة الزان. كان يأمل في البداية في أن ذلك مأوى مؤقت، ولكنه لم يجد مكاناً يتجه إليه، فظل قاطناً في الغابة بلا رفقاء ولا أصدقاء ولا أقرباء. بالطبع، لم يختر مثل هذا المصير بسبب الحياة الطيبة، ولكن هذا كان نصيبه. الطفل الذي تعلم للتو التمييز بين الخير والشر، نما ونضج من حياة الغابة. كان ذلك جيداً، ولكن والده عجز خلال تلك الفترة.

من له روح، له ساعة الموت، حين جاء أجله، ترك الأب هذه الدنيا وابنه الوحيد منفردٌ فيها. كيف كان شعور الشاب بأنه وحيد في غابة الزان الضخمة والعالم، حيث لا تعرف أحداً وكل شيء غريب عليك؟ كان حزن الشاب كبيراً، وظل يبكي على روح الشخص الوحيد القريب له في العالم. حين كان بهذه الحالة، حضر إليه رجل عجوز ذو شعر أشيب ولحية مرتعشة، وسأل: - ما هي المصيبة التي وقعت لك أيها الشاب الطيب؟ على من تبكي بكل هذه المرارة؟

يرد الشاب:

- أيها التحمادة السعيد، هل في العالم أجمع من تعرض لموقف أكثر سوءاً مني! الجسد الذي يرقد أمامك هو والدي. كنت طفلاً لا يميز بين الخير والشر، حين هاجم أعداء قريتنا، ولم ننج سوى نحن، إذ قتلوا وأحرقوا الآخرين. ومن بقي على قيد الحياة، تم بيعه للعبودية في الخارج مثلما تباع المواشي. تجنب والدي هذا المصير بأعجوبة، وتمكن من الفرار برفقتي. اختار مضطراً هذه الغابة مأوى له. قام بتربيتي هنا، وكان لي أباً وأماً ورفيقاً ومرشداً حكيماً. إذا كان الإله العظيم تخاشخو أعطاني الروح، فكل الأمور الأخرى حصلت عليها من والدي. الآن أصبحت وحيداً في العالم أجمع بلا رفيق وبلا آل وبلا قبيلة. أليس ذلك كافياً لتنهار روحي المعنوية!

استمع الرجل العجوز إليه صامتاً، نظر إليه من قدمه إلى رأسه، وقال: - نعم، مصيبتك هي أكبر مصيبة. قد يهتز منها أشجع الرجال. لكن لحسن حظك، لدي وسيلة قد تساعدك. لدي مشروب سحري قد يعيد والدك إلى الحياة، ولكن فقط إذا تمكنت من استخدامه.

صرخ الشاب:

- أيها التحمادة الطيب، سأضحي بنفسي من أجلك، فليس هناك شيء قادر عليه إنسان إلا وأنني مستعد للقيام به من أجل بعث والدي!

- يجب القيام بشيء واحد فقط.

- قل ما هو!

- هذا هو المشروب، ويجب تقسيمه إلى جزءين متساويين، وإعطاء أحدهما لأي شخص ودلك الثاني في جسم الميت. حينئذٍ ستغادر روح من تناول الدواء جسمه، وستنتقل إلى جسم والدك. هذا كل ما أستطيع فعله لك، وعليك أن تقرر.

ترك الرجل العجوز الدواء، واختفى بشكل غير ملحوظ مثلما ظهر.

رفع الشاب حزمة الدواء، وجرى، وكأنه مجنح، في الغابة. قطع مسافة طويلة أو ربما قصيرة، وانتهت غابة الزان وبدأت غابة البلوط، ثم الآلدر. وأخيراً رأى على أطراف الغابة شاباً يبكي وأمامه جسم فتاة جميلة بدرجة لا توصف. ولا يرى ذلك الشاب أمامه سوى ذلك الجسم الميت، وتنهال الدموع من عينيه. رحب حامل الدواء بالباكي، وسأل: - اعذرني أيها الرجل الطيب، فقد أثرت في إلى حد أنه لا يمكنني المرور دون أن أسألك عن مصيبتك، ومن هي الفتاة الجميلة التي تبكي عليها؟

- يا أخي، هل هناك من شخص في هذا العالم حدث له ما حدث لي؟ أنا والفتاة التي أبكي عليها كنا أولاد صديقين طيبين. كان والدانا يعتزان بالصداقة بينهما أكثر من اعتزاز بعض الأشقاء بالأخوَّة، ودليلاً على ذلك، وضع علامات على سريرينا تأكيداً على زاوجنا المستقبلي وترابط الأسرتين. منذ الطفولة كنا ننشأ معاً، ولم نكن نتصور حياة أخرى. أن نعِش يوماً دون أن نرى بعضنا، كان مثل يوم لم تشرق فيه الشمس. حين كنا معاً، كنا ننسى عن سير الوقت وأنه حان وقت المغادرة. تأتي المصيبة فجأة وليست وحدها. عندما كنا على عتبة النضج وركبت الحصان لأول مرة وبدأت أشارك في الحملات، قُتل والدي أثناء التصدي لهجوم الأعداء، وتوفيت والدتي بعده بعد أن لم تتحمل مثل هذه الخسارة. أصبحت وحيداً دون سند في الحياة ودون الاهتمام السابق بي. كنت أتوقع أن الصديق القديم للوالد سيدعمني، إلا أن حبه لي بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً. حتى لا يسلم ابنته لليتيم، بدأ يضع لنا مختلف العراقيل. لكن لم تكن هناك قوة في العالم قادرة على إضعاف سعينا لبعض. كان يبدو لي أنه إذا قال لي أحد إنه يجب من أجلها تجاوز سبع سلاسل من الجبال والانتصار على سبعة عمالقة متوحشين، لكنت بلا تردد انطلقت في الطريق وهاجمت العدو بشجاعة. لكن يبدو أن الإله العظيم تخاشخو جعلنا لا نعند ولا نحارب والدها علناً، ولذلك واصلنا المقابلات خلسة.

ما كان لذلك أن يستمر لفترة طويلة، وذات مرة أوصلت الحبيبة لي الخبر الآتي: «تقدم لخطبتي نجل خان، ويعتزم والدي أن يزوجني إياه، وفي يوم ما، سيصل طابور الزواج إلى بيت الوالد ليأخذني. ليعطيك الله الشجاعة اللازمة!». امتطيت حصاني الأبيض، وغطيت وجهي حتى لا يكشفني حتى أقرب معارفي، وغادرت الفناء من البوابة الخلفية. عند وصولي إلى بيت حبيبتي، اختلطت خلسة مع الحشد إلى حد أن الضيوف اعتبروني واحداً من المستقبلين، وأصحاب البيت اعتبروني ضيفاً. دون الكشف عن نفسي، انتظرت بدء لعبة معركة الفرسان مع المشاة، وقفزت بحصاني الأبيض،

متوجهاً إلى حشد المشاة والفرسان. مثل الرياح، طردت الجميع إلى الأركان ووقفت في منتصف الدائرة، ثم قفزت إلى الشرفة التي كانت تقف عليها العروس، وخطفتها وغادرت الفناء بسرعة الصاعقة - أبحث عن الرياح في الحقل!

بالطبع، كان هناك من حاول أن يطاردني ويقطع الطريق أمامي، ولكنه لم يكن هناك حصان قادر على منافسة حصاني الأبيض في الجري أو الصمود أمامه. أثناء هوس وصراخ الضيوف ورجال والد حبيبتي، خرجت من القرية إلى الحقل. حينئذٍ شعرت روحي بالسعادة الحقيقية. كم كانت سعادتي جميلة ولكن قصيرة أيضاً كما اتضح لاحقاً... لم يكن هم وأحصنتهم يشكلون خطراً علي وعلى حصاني، ولكنَّ هناك عنصراً أسرع من أي حصان وأفزع من الزوج الأكثر صرامة: هو رصاصة صغيرة واحدة أطلقها رامٍ عادي. هي قادرة على الوصول إلى أسرع الخيول والقضاء على بطل لا يعرفُ الخوف، وتدمير أكبر سعادة. حدث أن رصاصة مرت بجواري، وأصابت قلب حبيبتي! هربت من المطاردة، ولكن ما الفائدة من ذلك، فقد تحولت في لحظة من الإنسان الأكثر سعادة في العالم إلى أكثر الناس شؤماً. هذه هي قصتي ولا حياة لي ولا سكينة.

بعد سماعه ذلك، استغرق الشاب الحامل للدواء في التفكير. «إذا كان والدي غادر إلى عالم الأسلاف، ألم يحدث ذلك بسبب أنهم استدعوه في موعده؟ وماذا سيحدث إذا بعث عجوزاً مثلما كان في نهاية طريقه؟ فلن أستطيع منحه حياة جديدة كاملة. لا مستقبل له في هذه الدنيا. ليس هذا الدواء لجسم أبي، وإنما لإحياء الروح الشابة لهذه الحسناء التي لم تتمتع بحياتها بعد».

توجه بالحديث إلى العاشق: - يا أخي، لدي دواء قادر على إحياء فتاتك، وسأعطيه لك. لكن عليك الوفاء بشرط واحد...

صرخ الشاب:

- أدعو الله أن يكون طالباً بالنيابة عني وأرجو منك أن تكشف لي عن الشرط، وليس هناك في الدنيا ما لست مستعداً له!

- إذن هذا هو الدواء: قسمه إلى قسميه، واعطِ أحدهما لأي شخص آخر حتى يشربه، ودلك الآخر في جسم حبيبتك، وهي ستقوم وكأن شيئاً لم يحدث.

قال ذلك، وعاد إلى الغابة ليدفن جثمان والده وفق الطقوس. أما الشاب الثاني، فجرى بسرعة وكأنه يمكنه الوصول إلى حافة الأرض في ثلاث خطوات. قطع مسافةٍ طويلة أو قصيرة وطرقاً كثيرة، وشعر بالإجهاد، ورأى

من بعيد رجلاً عجوزاً انحنى فوق جثمان فتى. كانت هناك دموع كبيرة على شاربه، وكانت تروي الأرض بغزارة.

بعد الترحيب المعتاد عليه، سأل الشاب: - أيها التحمادة المحترم، هل يمكنني مساعدتك، وما مصيبتك؟

رد عليه الرجل العجوز، قائلاً: - يا بني، ليست قصتي طويلة مثلما هو طول مصيبتي التي علي تحملها. حين كنت شاباً، خطفني قطاع الطرق وباعوني للخارج. مرت هناك أجمل فترات حياتي التي منحت لي من الأعلى، مرت في العبودية والهروب والأسر مجدداً. إذا لم تتخل عن نيتك، فإما ستلقي حتفك، أو ستحقق هدفك: ذات مرة تمكنت من الفرار في نهاية المطاف. لكن بحلول ذلك الوقت، بدأ يشتعل رأسي شيباً. في وطني، لم أجد لا قريتي ولا أقربائي ولا حتى من يمكنه أن يحدثني عنهم. في السابق، عرف أبناء سلالتي بالمجد والقوة، والآن لم يبق غيري في العالم، ولم يعد هناك أحد يواصل سلالتي. هكذا بقيت بمفردي. التقيت امرأة غير سعيدة مثلي، فتزوجتها وبنيت بيتاً وعشت حياة سلمية. على مدى سبع سنوات، لم نتمكن من الإنجاب، وكنت أطلب ذلك من الله طوال السنوات السبع. وأخيراً، بدا أن تخاشخو تعاطف معنا ورزقنا بهذا الفتى. لكن إذا أراد الله التضييق عليك، فإنه سيجد دائماً طريقاً لذلك: بمجرد قدوم الطفل إلى العالم، غادرته أمه. كنت عجوزاً جداً لكي أتزوج مرة أخرى، وكان الطفل الذي بين يدي، هو كنزي الوحيد، فكنت أعتني به وأحميه من كل المصائب. ولكن اتضح أن الله لم يرحمني، بل قرر ابتلائي مرة أخرى: ابني الذي ظللت أعتني به لسبع سنوات وكان دائماً يتميز بالصحة والنشاط، فجأة سقط وتوفي. توفيت فرحتي الوحيدة، وانقطعت سلالة أسلافي. هذا ما حطمني وجعلني أنحني إلى الأرض.

جاء دور الشاب أن يفكر بعد أن فقد حبيبته الأكثر جمالاً: «نعم، كنت أعتقد أن مصيبتي هي الأكبر في هذه الدنيا، ولكنه لا مجال لمقارنتها بمصيبة هذا الرجل العجوز. ما قيمة شرفي وحبي إذا مررت بهذا الرجل دون أن أفعل من أجله ما أستطيع. وإلى أي مدى سأكون سعيداً إذا لم أشارك من أجله في إنهاء هذه المصيبة. ليكن حبي الطاهر تضحية من أجل حياة هذا المسكين!». أخرج الدواء وأعطاه للرجل العجوز، شارحاً له ماذا يجب أن يفعل.

- لتتحمل روحي في الآخرة كل معاناتك. يبدو أن تخاشخو الرحيم نفسه أرسلك لي منقذاً. ليكن رحيماً تجاهك دائماً. فقد قدمت لي خدمة، لن يبدو طلب آخر ثقيلاً عليك بعدها. لا تترك ابني الذي سُيبعَثُ الآن دون العناية والمحبة، ولا تتركني دون الدفن والتأبين.

شرب حصته ودلك الحصة الثانية في جسد ابنه، وتوفي. أما الشاب، فدفن على تقاطع الطرق حبيبته والرجل العجوز، مؤدياً جميع الطقوس عليهما. ثم سمى الفتى المنبعث شقيقاً توأماً له واصطحبه إلى منزله.

* * *

قال الضيف:

- هذه قصتي من ذهابي إلى إيابي. والآن يا داباغو المحترم، لا يمكنني الجمع بين أحكامك العادلة ودروس القصة التي رويتها. لا تتفق حقيقتها مع حقيقتك.

- لماذا؟ ماذا ترى فيهما من التعارض؟

- إذا حكمنا حسب منطقك، فكلا الشابان قام بأعمال مجيدة، أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- إذن الرجل العجوز والد الطفل أيضاً؟

- نعم.

- إذن فكروا، بارك الله فيكم، وقولوا لي، إذا كان هذا العالم لمثل هؤلاء الأماجد، فماذا حصلا عليه مقابل أعمالهما؟ لم يبعث أي أحد من موتاهما، ولم تكتمل مسيرة حياة الإنسان الذي تم التضحية بحياته من أجل الطفل. أين المكافأة؟ غير موجودة. فقط خسائر لن تعود. ألا يشير ذلك إلى أن عالمنا ليس ملكاً للخير، وإنما لمن لديه حصان أقوى وسيف أكثر حدة؟

يبدو أن الحكيم لم يكن يتوقع مثل هذا التحول، فارتبك للحظة. نظر إلى ضيفه بانتباه، ولاحظ أنه مرتبك أيضاً، ولا يريد تصديق ما قاله، بل يتمنى سماع شيء مقنع وعادل. كتب داباغو علامات ما على أرض الغرفة بعكازه، ثم مسحها، ثم كتب شيئاً مرة أخرى، وقال بصوت منخفض: - انتظر يا أخي الصغير، كيف يمكنك الحكم على كل شيء فقط بناء على ما تستوعبه حياتنا الهشة الفانية؟ وماذا بعد؟

جاء دور الضيف أن يندهش: - إذا كان هذا العالم هشاً، وإذا كان العالم الآخر أكثر صموداً، ونعلم أن كل ما نفقده هنا سنكتسبه هناك مرة أخرى على الأرجح، فإن الشخص الأكثر بخلاً سيكون أكرمنا. أقسم بالله أن بخلاءنا كانوا

سيصبحون في هذه الحالة أطيب الناس، والأشخاص الأكثر قسوة كانوا سيتحولون إلى العجل الطيب. لكن في هذه الحالة سيكون العمل الطيب في هذه الحياة طيباً في جوهر الأمر.

قاطعه داباغو:

- شكراً لك يا أخي الكريم، فقد أجبت بنفسك عن السؤال الذي أحضرك إلينا. يتضح مما قلته أنه لا ينبغي عمل الخير أملاً في المكافأة المستقبلية، أليس كذلك؟ إذا كنت تمنح شيئاً، ثم تحصل على ما يعادله أو ضعفه أو ثلاثة أضعاف، فهذا ليس إهداء، وإنما تجارة. فما المجد في ذلك؟ منذ أن كان الإنسان موجوداً على سطح الأرض، فأكثر ما يثمنه في الآخرين هو التعاطف، ويحتاج إلى أن تعتني به روح غيره. إذا عملت خيراً لغيرك، فسيكون مستعداً لرده لك فحسب، وإنما أيضاً لشخص آخر، وهو للثالث، فالرابع. هكذا سيتجول الخير حول العالم، وسيصبح قاعدة، وذات يوم سيعود إليك وإلى ابنك وإلى خلفك، ولكن عبر أشخاص آخرين. هذا ما يجعل هذا العالم إنسانياً.

ومع ذلك، اعترض أحد الحاضرين: - كيف عزيزي داباغو أن أكون فعلت شيئاً طيباً لك وألا أنتظر شكراً منك؟ ولست مديناً لي بشيء؟

- مدين يا أخي، ولكن ليس لك وحدك. إذا كان ذلك من مقدوري، فعلي أن أرد لك ذلك فوراً. لكنني إذا لم أرغب في رد تلك الدرجة من الإنسانية لشخص آخر، فلن أفي بواجبي أمامك بشكل كامل. فأنت لم تقم بعمل خيري رداً للجميل، وإنما استجابة لنداء روحك.

قاطعه جامبولات: - انتظر يا تحمادة المحترم، إذن تبادلنا خدمات طيبة، فهذا ليس خيراً حقيقياً، أليس كذلك؟

- نعم، هكذا الأمر يا أخي، فهمت بشكل صحيح: عمل الخير هو عمل خيري لا ينتهي، وينتشر على الجميع.

عند سماعه هذه الكلمات، صعد الضيف وبدأ بإعداد متعلقاته: - الأمر الذي حرمني من الهدوء وكان يطاردني من منطقة إلى منطقة، تم حله بكلماتك! لم أكن قادراً على التوصل إلى هذه الإجابة بنفسي ولا من أشخاص آخرين. ليطال عمر الحكيم داباغو ووجوده بين الناس.

ودع الضيف الجميع، وتوجه إلى وطنه.

وحتى الآن، تدور في كياخيا أحاديث عن فارس في عمر الزهور تخلى عن السلاح والبطولات الحربية رغم مهارته. كان ينفي قوة السلاح ويخدم الناس بعقله الواضح وكلمته الحكيمة. لكن أسماء مختلفة تطلق عليه في قرى مختلفة. يحكون قصته دون أن يعرف أحد ما إذا كانت حقيقية أم لا.

عيسى كابايف

متى يعود أماناكاي؟

لذكرى عازف الدومبرا قاهر بك مجيدوف

هناك لحظات في الحياة، حين تتعب من كل شيء، ولا تجد لنفسك مأوى في البيت ولا في المجتمع، فتبحث عن الوحدة حتى تدرك وجودك. أكابد ذلك في الشتاء لاسيما حين يطول صقيعه وثلوجه وأيامه المظلمة. يتكون حولي فراغ لا مكان فيه لدفء الروح. في أيام شبابي، كنت أجد سكينة في التواصل مع الأصدقاء، وكنت أجد معهم ركناً، ونقضي وقتنا مع قنينة، معبرين لأنفسنا حيال بعضنا البعض عما تراكم في أعماقنا. من المدهش أن هذه الأحاديث كانت تجلب الطمأنينة الى الروح وتطهرها، فتستعد للنمو وتحصل على طاقة جديدة. والآن لم يعد الاجتماع مع القنينة يساعد كثيراً، بل بات شيئاً اعتيادياً وساذجاً... ربما لأننا لم نعد نرى في مقارعة الخمر تلك الفرحة والشقاوة. تغير الرفاق أيضاً، وخيب الكثيرون منهم ظني، وفقدت فضولي لمعرفة طباعهم وعاداتهم، فلم يعودوا يجذبونني بشيء، ويبدو لي الحديث معهم بمثابة مضيعة للوقت.

حين تأتي مثل هذه اللحظة، أغادر البيت مسرعاً، وأتجول في الشوارع المحيطة به وممرات الحديقة المركزية المغطاة بالثلوج إلى أن أصل إلى مرحلة الإجهاد، وعند رؤية معارفي تظهر ملامح السعادة على وجهي، مبيناً أنني مهموم بقضية مهمة، وأخفي بشتى الطرق ما بداخل روحي من حزن مؤلم. أخشى أن يطول وجودي بجوار مثل هؤلاء الأشخاص، لاسيما أولئك الذين عرفتهم يوماً عن قرب. أعلم أنهم لن يتعاطفوا مع حالتي النفسية، بل العكس قد يشمتون بي، لأن وضعي أسوأ من وضعهم. لذلك، إنني أتوخى الحذر معهم، وأتبادل الكلمات المعتادة بسرعة، متظاهراً بأنني في عجلة من أمري لقضاء أمور مهمة للغاية.

في ذلك اليوم، كنت أتجول في الحديقة، وقد راودني حزن خاص على نفسي. وجدت نفسي شخصاً مسكيناً ووحيداً لا يحتاج إليه أحد. رغم أنني لم

أكن أبحث بنفسي عن أحد ولم أكن أثق في أحد، إلا أنني كنت أشعر بضيق لعدم وجود شخص يشاركني في حياتي، متمنياً سماع كلمة طيبة متعاطفة والشعور بالدفء المتبادل.

هكذا مضيت متجولاً، أردت أن أتذكر شيئاً جيداً في حياتي، ولكن لم يخطر على بالي شيء، وجرت كل المحاولات عبثاً بلا جدوى. كان ذلك مثيراً للحيرة. كانت هناك في الحياة لحظات جميلة، وكنت أسعد وأفرح لبعض الأشياء، وكانت هناك لقاءات مع أناس طيبين، وحظ موفق ونجاحات في الإبداع. لكن كل هذه الأفراح والحظوظ ظلت في الماضي...

كنت أحاول إيجاد شيء في ذكرياتي، ولكن كل شيء كان يغرق في ضباب ما. قررت أن أفعل ذلك بواسطة شيء ما، وجذب انتباهي شيء ما في الثلج. أمسكت في كفي قطعة من الثلج، وحولتها إلى كتلة جليدية. أثناء النظر إليها، شممتها، وشعرت بالبرد. استشعرت رائحة اعتدتها منذ الطفولة: ارتسمت في ذهني صورة الشتاء كحالي دائماً. حاولت استعادة الشتاء الراسخ في ذاكرتي. تأملت في ما فعلته في العام المنصرم. لكن لم أتذكر شيئاً هاماً. مر أمام عيني ضباب ثلجي... فكرت: «شيء مرعب! ليس هناك ما أتذكره. هل وصلت إلى مثل هذه الحياة؟! ربما هو النسيان؟». حاولت الإمساك بهذه الفكرة كطوق نجاة. في الحقيقة، رغم أنني قد تجاوزت الـ40 من العمر فقط، إلا أنني كنت أشعر أحياناً بالسقطات في الذاكرة، ولكن كانت هناك لحظات كنت أتذكر فيها أدق التفاصيل، مما كان يثير دهشة زوجتي ومعارفي. غالباً ما كان يحدث ذلك نتيجة لعمل الوعي الذي كان يترك ما هو ضروري فقط ويتخلص من الأمور غير المهمة.

كانت رائحة الثلج تنبعث في ذاكرتي أكثر فأكثر، ولم ألاحظ كيف وصلت إلى طرف الحديقة. بعد رؤية مجموعة من الشباب على الرصيف، تراجعت للخلف، وانحرفت عن الطرقة باتجاه أشجار قيقب اسودت. لم أتذكر الشتاء الماضي بشكل دقيق، لذلك انتقل الوعي إلى مواسم الشتاء الأخرى. مرت أمام عيني الثلوج والرياح والسير على الأرصفة وركوب سيارات الأجرة ومترو أنفاق موسكو الدافئ. لاحظت أنني في السنوات الماضية كنت أسافر شتاءً أكثر مما في فصول السنة الأخرى، وبشكل أساسي كنت أسافر إلى موسكو. لذلك تذكرت مترو العاصمة وفنادقها، وفي مقدمتها فندق «روسيا» الضخم بوحداته ومداخله المختلفة ونظام الدخول المعقد ببطاقات المرور، والغرف المغطاة بالسجاجيد، والبوفيهات والمطاعم...

كنت أركز ذاكرتي حتى أتذكر شيئاً مهماً، ولكنني لم أكن أستخرج من مخازنها سوى لقاءات عابرة والتعارف أثناء الدورات التعليمية والاجتماعات،

والجلسات في الغرف الفندقية، وأكل الفندق الفاخر بالنسبة إلى شخص قادم من الإقاليم: جعة «أوستانكينو» والسجق والسلمون من البوفيه. فجأة تذكرت الشتاء قبل عشر سنوات تقريباً. حينئذٍ عقد مؤتمر للكتاب الروس. اتصل بغرفتي شخص من بلدي مقيم في مقاطعة موسكو: وجدني بواسطة خدمة الاستعلامات بالفندق. كان قاهر بك يبحث عن والدي، وهو كاتب أيضاً، ظناً منه أنه سيحضر إلى المؤتمر، ولكنه تم إيفادي أنا في ذلك الشتاء. سعدت للقاء المفاجئ، ونزلت لاستقبال الرجل.

كثيراً ما حدثني والدي عن قصة تعارفه مع قاهر بك... حدث ذلك شتاءً أيضاً وأثناء أحد المؤتمرات للكتاب. بعد أحد الاجتماعات، كان والدي عائداً إلى غرفته. وعند اقترابه من الفندق، سمع فجأة نغمة لم تكن غريبة على أذنه. التفت والدي، ورأى رجلين جالسين فوق متراس خرساني مغطى بالثلج، وهما يمسكان الدومبرا بين أيديهم. استمع للموسيقى واقترب منهما. توقف الرجل طويل القامة عن العزف، ولكن الرجل الثاني السمين وقصير القامة واصله. اندهش والدي من أن رجلين يتنافسان بوسط موسكو في الظلام في العزف على آلة غير مألوفة في العاصمة. تأمل وجهيهما ولباسهما. لم يكن شكلهما يشبه هيئة الفنانين، إذ كانوا يرتدون ملابس بسيطة، بل ريفية. فكر الوالد: «كازاخ غرباء... هل أتحدث معهم بلغتي الأم؟». اللغتان النوغائية والكازاخية قريبتان جداً، ويمكن التحدث من دون مترجم. بعد انتهاء النغمة، أمسك الرجل القصير الدومبرا بين ركبتيه، وبدأ ينفخ على أصابعه ليدفئها.

توجه بالحديث باللغة الكازاخية إلى زميله:

- جاء دورك.

مسح الرجل الطويل كفيه، وبدأ يعزف.

إن نغمات وطريقة عزف الدومبرا لدى الكازاخ تشبه ما لدى النوغائيين، ولكن هناك عنصراً يميزه من يستمع كثيراً إلى موسيقى شعبينا. لاحظه الوالد فور استماعه إلى الأصوات، ولكنه قرر ألا يثق في انطباعه الأول. كان الوالد يستمع إلى النغمة التي اعتادها، وهو يمسك أنفاسه، ولكنه ظل لا يجرؤ على سؤال الرجل من أين يعرفها. أنهى الرجل الطويل العزف.

توجه بالحديث إليه باللغة النوغائية من دون أي لكنة:

- هل فهمت كيف يجب العزف؟

حينئذٍ اقترب منهما الوالد، وسألهما بخجل:

- هل أنتما نوغائيان؟

اهتز الرجل الطويل، ورفع يديه وبهما الدومبرا، وصرخ فَرِحاً:

- بالطبع، نوغائيان.

وهرع ليعانق الوالد.

عانقه، كما لو أنه كان يعرفه طوال الحياة. كان هذا قاهر بك، وهو عامل بأحد المصانع في ضواحي موسكو. بعد أداء الخدمة العسكرية لم يعد إلى قريته في سهول نوغايسك، بل تزوج فتاة روسية، وأصبح من قاطني مقاطعة موسكو. الكازاخي قصير القامة كان اسمه ميرزاتاي، وكان له نفس مصير قاهر بك تقريباً، ولكن ميرزاتاي انفصل عن زوجته وكان يعيش بمفرده. كانت صداقتهما تعتمد على عزف الدومبرا، وكان كلاهما يحب احتساء الخمر. كان ميرزاتاي يعلم أنه يمكن مقابلة الكتاب الكازاخ أثناء المؤتمرات. كان يعلم أيضاً أن الكتاب هم قوم محبون للتواصل ويحترمون الموسيقيين، فكان يحضر إلى هنا مع قاهر بك، ولم يسبق لهما أن ظلا بلا دعوة إلى غرفة كاتب، حيث كان يتم استقبالهما وضيافتهما بشكل جيد.

بهذه الطريقة العجيبة، تعارف الوالد على قاهر بك الذي لم يكن يعلم أن النوغائيين لهم كتّابهم أيضاً. لذلك أثار هذا اللقاء دهشته التي لم تقل عن دهشة الوالد.

بعد هذا التعارف، كان قاهر بك يحضر إلينا في كل صيف، ويبقى في ضيافتنا لـ10 - 15 يوماً. كان الوالد يرحب به بسعادة دائماً ويضيّفه ويصطحبه إلى القرية، حيث كان يجمع الأقرباء والجيران والمعارف، لينصتوا لعزف قاهر بك على الدومبرا. لم يرغب جميع سكان القرية في سماع موسيقى الدومبرا، بقدر ما كان الجميع يتمنون أن تكون الموسيقى مصطحبة بالكلمات، بينما كان قاهر بك يعزف من دون كلمات في أغلب الأحيان. لم يكن يعرف نصوص أغان كثيرة، وكان يؤدي نغمات نادرة جداً. بمبادرة من الوالد، تم تسجيل عزفه في ركن الإذاعة الموسيقية. لم يكن سكان القرية يتعمقون في التفاصيل الموسيقية. لكن حتى النساء كن يأسفن لامتناعه عن الغناء.

رغم أن قاهر بك كان يتحدث بلغته الأم، إلا أنه كان واضحاً أنه بدأ ينساها. لم يكن يجد الكلمات اللازمة، فكانت تختلط مع الكلمات الروسية. بالطبع، كان من المؤثر أنه عاش لسنوات طويلة في الغربة، ولم يكن يتحدث مع مواطنيه. كان شكله هو شكل نوغائي نمطي من السهول: وجه غامق وعينان ضيقتان وشعر أسود ولكنة غير روسية. وكما أتذكره، كان يقول نفس

الأشياء دائماً. بكلمات قليلة كان يسأل عن الحياة ويرد على الأسئلة باختصار شديد. كان من المستحيل التحدث معه بجدية. لم يكن قادراً على التعبير عن الفكرة بشكل واضح، وكان يفقد خيط التواصل في المحادثة، ويدخل كلمات غير مناسبة. كنت أظن أنه يتحدث هكذا بلغته الأم فقط، ولكن ذات مرة كنا جالسين في مجموعة من المتحدثين بالروسية، ولاحظت أن لغته الروسية حتى أسوأ من ذلك. كان يدهشني أنه رغم ذلك كان قادراً على التركيز على الموسيقى والتعبير عما بداخل روحه من خلالها: يدل ثقل اللسان على الخلل في الروح... كان قاهر بك حافظاً للعديد من النغمات الشعبية.

في ذلك اليوم كنت مجهداً جداً من جلسات يوم المؤتمر، وكنت راقداً فوق السرير في الغرفة، وفي ذهني نية واحدة: أن أغلق عيني وأستريح لمدة ساعة أو ساعتين. في المساء، كان المشاركون في المؤتمر يجتمعون في غرفة أحدهم ويتحدثون، برفقة قنينة من الكحول. كنا جميعاً قادمين من مختلف أنحاء البلاد، وكنا نجد في هذا التواصل متعة خاصة أكثر أهمية من الجلسات الرسمية. لمثل هذه المناسبات، كان كل واحد منا يخزن قنينة أو قنينتين من مشروب قوي. أتذكر أنني بدأت بالنعاس، حين دق الجرس.

رفعت السماعة، وسمعت صوتاً ينادي اسم والدي:

- عزيزي سويون! لقد وجدتك.

اندهشت:

- من هذا؟

واصل الصوت في السماعة، متجاهلاً سؤالي:

- لقد وجدتك عبر خدمة الاستعلامات بالفندق.

- حسناً، حسناً. لكن من أنت؟

- كنت أهيم حول الفندق... صادفت أحد الكتاب، ونصحني بالسؤال في خدمة الاستعلامات. لقد وجدتك يا سويون!

- أنا لست سويون، أنا نجله.

- آه! عيسى، يا بني، هذا قاهر بك!

نزلت إلى قاعة الفندق. وجدت هناك قاهر بك، وبدا وكأنه عانى من البرد في الشارع. كان يرتدي معطفاً غامقاً ويعتمر قبعة فوق رأسه، وكان يمسك في يده دومبرا ملفوفة بالجرائد ومربوطة بالخيوط. رآني أيضاً من بعيد، وداعب وجهه ذا قصبة الأنف النادرة وعدل نظارته، فهرع إلي. عانقني ونظر إلي بانبهار وضرب قبعته بكفه تعبيراً عن بهجة خاصة. تذكرت فوراً أن هذا أسلوب الترحيب لدى قاهر بك. ومع ذلك، ارتبكت من التعبير عن المشاعر بهذه الصورة.

- كيف تعيش؟! كيف الأحوال في المنزل؟ هل الجميع أحياء ويتمتعون بصحة جيدة؟ كيف الوالد، وكيف الأبناء؟ كيف صحتك؟

بعد طرحه كل هذه الأسئلة، عانقني مرة أخرى، ولم يتركني لوقت طويل.

شعرت برائحة الخمر.

- هل شربت؟

- كلام فارغ، الأهم أنني وجدتك! قالت لي زوجتي إن مؤتمر الكتاب بدأ. كنت أتوقع أن أجد صديقي، ولكن وجدت ابن صديقي... ممتاز في كل الأحوال!

ربت على كتفي. ثم نظر إلي، ولاحظت دمعة خلف نظارته. كان قاهر بك مستعداً أن ينخرط في البكاء. خشيت من ذلك وشددت كم المعطف واصطحبته إلى غرفتي.

صعدنا إلى الغرفة. فرشت المائدة سريعاً، وأخرجت الجبن والسجق وزجاجة فودكا. لم تسر محادثتنا كما ينبغي في البداية. كان قاهر بك يسألني عن حياتي، ودون انتظار الرد كان يسأل عن الأب وعن القرية أو شيء آخر. لم يكن يترك لي حيزاً كافياً من الوقت للإجابة، فساد الصمت بيننا. كان من الواضح أنه ليس هناك نقاط تلامس بيننا بسبب الفارق في العمر، والأهم اختلاف دائرة الاهتمامات. منذ اللقاءات الأولى خرجت بنتيجة مفادها أن قاهر بك هو ممثل نمطي للطبقة العمالية في موسكو. لم ينته هذا الانطباع حتى الآن. كنت أفكر عنه بهذه الطريقة: يقضي يومه خلف الآلة في المصنع، وتتلخص حياته العائلية في أنه يجلب راتبه إلى المنزل، تاركاً شيئاً لنفسه. ما يتركه لنفسه قليل دائماً، ولكنه يكفي في الأيام الأولى على القبض للمساهمة مع معارفه في شراء قنينة لثلاثة أفراد. وبمجرد استنفاد أمواله الشخصية، يبدأ بالعودة إلى المنزل مبكراً، حيث يقضي وقته أمام التلفاز إلى أن ينام. تسليم

الراتب للزوجة هو التزامه المقدس، والقنينة هي نوع من الحافز في الحياة. ربما كان تحيزي تجاهه يعيق محادثتنا أيضاً.

سألته سؤالاً مألوفاً:

- كيف ابنك؟

رد قاهر بنبرة من الرضا عن النفس:

- ماذا عنه؟ لن يحدث له شيء. إنه يتمتع بصحة جيدة مثل الثور! يسكن مع حماته، ولديه طفل واحد، ويربيه.

- لم أكن أعلم أنه تزوج. إذن أديت واجبك كأب، فلم يبق لك ما تقلق منه.

- الأمر ليس كذلك. لا أزال أؤدي واجبي.

- كيف أفهم ذلك؟

- ببساطة. يأتي كل شهر في يوم صرف الراتب. علاقة الدم! نحن نساعده!

- إلى متى؟ عليه أن يرحم والديه.

- إنه لا يطلب شيئاً. يظن أن هذا هو المعتاد. يحضر يوم صرف الراتب نظيف اليدين، حاملاً الدلو، وكأنه يوم حلب البقرة. أنا وزوجتي العجوز نضع فيه صدرنا. ماذا سنفعل؟ تفضل. أموالنا تكفينا.

- ألا يجب التفكير في الشيخوخة يا قاهر بك؟ يجب الادخار للشيخوخة...

- ماذا... الشيخوخة؟ هناك شباب يموتون أمام الآلة! لا وقت للتفكير في الشيخوخة. ستعتني الدولة بنا.

- ألا تريد العودة إلى الوطن؟ لا يجوز أن تموت في الغربة...

رفع رأسه، وعدل النظارة، نظر في عيني، سائلاً:

- ما هو الشيء السيئ في ذلك؟ ما الفارق أين سترقد العظام؟!

لم أقل شيئاً. أنهينا الفودكا. أخذ قاهر بك القنينة في يديه عدة مرات، وكان ينظر ما إذا كان بقي شيء في قاعها، ثم كان ينظر إلي بنظرة فيها سؤال. كنت أبعد عيني عن نظرته. حين تأكد قاهر بك نهائياً من أنه لن يتم تقديم مشروب آخر، ظهرت تعبيرات الضيق والملل الصريح على وجهه. شعرت ببعض الحرج لعدم ضيافته كما ينبغي.

- انتظر في الغرفة لحين سأنظر ماذا يتوافر في المطعم؟

رغم شعوري بالكسل للذهاب للبحث عن المشروب الكحولي، إلا أنني اعتذرت له ونهضت من المائدة.

انتعش قاهر بك:

- هذا حوار آخر!

حين عدت إلى الغرفة حاملاً قنينة فودكا، لم يستطع قاهر بك إخفاء فرحته، فقفز وصرخ:

- أنت ماهر يا بني!

شربنا قدحاً صغيراً لكل واحد منا. مع ارتفاع حالته المعنوية، بدأ قاهر بك بفك الجرائد وإخراج الدومبرا. بدأ العزف وقرع هيكل الآلة الموسيقية.

كنت أفضل، شأني في ذلك شأن غيري من أبناء بلدي، الموسيقى التي ترافقها الكلمات، فقلت له:

- رجاء مع الكلمات يا قاهر بك.

- أي كلمات؟ إنها فارغة. الكلمات هي مثل ملابس الإنسان وحذائه وقبعته. يتهالك كل ذلك ويتم تغييره. وكذلك تتهالك الكلمات في حياة الإنسان...

- لكننا ما كان لنا أن نتحدث بلا كلمات، أليس كذلك؟

- صحيح. ما كان لنا أن نجلس من دون أزياء أيضاً.

قلت له ضاحكاً:

- يمكن من دون أزياء.

ابتسم قاهر بك:

- يمكن العيش من دون كلمات أيضاً. خدمت في الجيش لعام كامل دون أن أتحدث مع أحد، ولذلك لم أكن أعلم أي كلمة باللغة الروسية... إذن الكلمات ليست هي الأهم.

- وماذا الأهم؟

- الأهم؟ هذا هو الأهم!

ضرب بكفه على صدره.

- القلب والروح؟

- نعم، تستند الحياة إلى الروح.

ضرب بكفه على صدره مرة أخرى.

بدأ يعزف علي الدومبرا مرة أخرى. في البداية، كان يعزف على كل وتر على حدة، مولداً صوتين مستقلين، ثم زاد إيقاع العزف، وقريباً بدا أن أوركسترا كاملة تعزف. ثم بدأ الإيقاع بالتباطؤ، وبدأت فجأة موسيقى شاكية، وكأنها تبحث عن أحد. تذكرت فوراً أنني سمعت هذه النغمة من قاهر بك. كان يعزف على الدومبرا بمهارة عالية: بدا أولاً أن شخصاً صغيراً وعاجزاً يطلب شيئاً، ولكنه تلاه الشعور بأن أصوات الطالبين تزداد قوة، وفي ذروة النغمة كان هناك شعور بأن حشداً وشعباً كاملاً يستنجد بالقوة الإلهية. لم يعد قاهر بك ينظر إلى الدومبرا، بل توجهت نظرته إلى الأعلى، وشعرت بلامبالاة كبيرة في نظرته. كرر قاهر بك هذه النغمة عدة مرات، ثم ضرب بأصابعه ظهر الدومبرا، واختتم العزف بشكل قاطع. لاحظت دموعاً تسيل على وجهه، واندهشت كثيراً.

- ماذا حدث لك يا قاهر بك؟

- أشعر بالضيق يا عيسى، بضيق كبير! لا يستمع إلى موسيقانا أحد. رغم أن الدومبرا مصنوعة من الخشب، إلا أنها آلة حية. تنبع منها الحياة...

حاولت أن أهدئه، قائلاً:

- لا تتأثر بذلك. هناك كثيرون معجبون بموسيقاك، وأنا معجب بعزفك. لقد حافظت على هذه النغمة منذ المرة الماضية.

- حين يتم العزف على الدومبرا، يجب السماع إليها مع فم مغلق، وغناء الأغنية، ومن لا يستطيع ذلك، فعليه أن يهز رأسه مع الإيقاع. حينئذٍ يرى عازف الدومبرا أنهم يسمعونه. إنه لا يعزف لنفسه، بل للناس، وهم يجلسون مثل الحمقى...

قلت:

- لم أكن أعلم ذلك. من الآن سأدعمك.

صب قاهر بك لنفسه قدحاً صغيراً من الفودكا، وشربها سريعاً دون أن ينتظرني. بعد أن استغرق في التفكير لبعض الوقت، ابتسم وبدأ عزف النغمة نفسها. بدأت أغني معه بشيء من الخجل أولاً، رافعاً صوتي أعلى فأعلى. استحسن قاهر بك أدائي وبدأ يغني بشيء من الاستحياء.

صرخ:

- حسناً! صحيح!

تحمست أيضاً، وأصبحت أهز جسدي مع إيقاع الموسيقى. أما قاهر بك، فكان يهز رأسه علامة الاستحسان. ثم توقف عن العزف بشكل حاد. ظننت أنه توقف للراحة، ولكنه انحنى فوق الدومبرا، وبدأ بعزف نغمة أخرى.

- إلى أين ذهبت يا أماناكاي؟!

هكذا صرخ بكلمات أغنية لم أسمعها من قبل، وبدأ بالغناء:

- إلى أين ذهب أماناكاي؟

- ذهب إلى الرمال.

- ماذا سيفعل هناك؟

- سيقطع فروع الأشجار،

حتى يصنع منها مزلقة،

حتى يصنع منها مزلقة،

حتى يصنع منها مزلقة.

- ماذا فعل بالمزلقة؟

- ربطها بالأحصنة،

- ذهب للاحتفال بالزفاف،

- ذهب للاحتفال بالزفاف،

- ذهب للاحتفال بالزفاف.

- متى يعود أماناكاي؟!

- سيعود أماناكاي في الربيع،

وربما في الخريف،

وربما اليوم.

يا بني،

سيحضر لك حلويات وتفاحاً،

يا بني،

سيحضر لك حلويات وتفاحاً.

إييي، إييي، إييي...

بحزن حاد، بدأ قاهر بك يردد غناء الجوقة، وانضممت إليه. بدأنا نهز جسدينا حسب إيقاع الموسيقى. ازدادت قوة عزف قاهر بك على الأوتار، وبات يغني بصوت عالٍ:

- إلى أين ذهب أماناكاي؟!

- ربط العربة بالجمل،

ذهب إلى الجبال،

ذهب إلى الجبال،

ذهب إلى الجبال.

- متى سيعود أماناكاي؟

- سيعود أماناكاي بحلول منتصف اليوم،

وربما بحلول المساء،

وربما غداً،

يا بني،

سيحضر لك حلويات وتفاحاً،

يا بني،

سيحضر لك حلويات وتفاحاً.

إييي، إييي، إييي...

كرر النغمة مرة أخرى، ولكن من دون كلمات، واختتم الأغنية، ضارباً الدومبرا بأصابعه. كانت روح قاهر بك تفيض بالسعادة، وتنفس عدة مرات بعمق. شعرت بفضول كبير، وسألته:

- ما هي هذه الأغنية الجميلة؟ أسمعها لأول مرة.

- لم أُغنِّها منذ فترة طويلة لأحد. زوجتي وابني لا يفهمان شيئاً في موسيقانا، بل يسخران من الدومبرا، ولذلك أسعى ألا أعزف أمامهما. أحياناً قد أعزف في الاحتفالات ألحان «كاتيوشا» أو «الأمسيات في ضواحي موسكو» للترفيه، وها هو...

أعد قاهر بك الدومبرا فوراً وعزف «كاتيوشا» و«الأمسيات في ضواحي موسكو». سُمعت هذه الأغاني بشكل غير عادي عند أدائها على الدومبرا، فلم أتمالك انبهاري:

- ممتاز يا قاهر بك! على أسرتك أن تشكرك على ذلك طول الحياة!

- هذا يعجبهما! لكنهما لا يفهمان موسيقانا تماماً.

- حدثني عن تلك الأغنية يا قاهر بك!

ابتسم، معدلاً نظارته، وقال بحزن:

- آه، عن أماناكاي؟ سمعتها في الطفولة من عمي، وبالمناسبة، كان يدعى عيسى مثلك، وهو الذي علمني عزف الدومبرا. عندما كان يغني عن أماناكاي كنت صغيراً تماماً، وكنت أصل إلى الدومبرا العالقة على الجدار بصعوبة. كان عمي رجلاً مدهشاً: كان له ستة أبناء، وعندما توفي والدنا، انضم إليه ثلاثة من أبنائه. وعاش التسعة في غرفة صغيرة واحدة، وكنا نعاني الجوع، ولكن الأسوأ كان البرد، إذ لم يكن في السهول ما يكفي من الوقود للتدفئة. في تلك الأيام الباردة والجائعة، كان عمي يسلينا بعزف الدومبرا، ونحن، الأطفال، كنا معجبين بأغنية أماناكاي أكثر من غيرها. كان هناك شخص يحمل مثل هذا الاسم في قريتنا في زمن ما. رأى عمي أماناكاي حياً. كان يظهر في القرية في وقت الشدة، وكان يحضر معه حبوباً أو ملحاً. كان يحضر على عربته أو مزلقته، وكان يساعد سكان القرية دائماً. وكان الأطفال يحبونه أكثر من غيرهم، إذ كان يحمل هدايا لهم دائماً، فكانوا يلتصقون به. وتم تأليف الأغنية عنه، وهو على قيد الحياة، وكان الأطفال يغنونها دون أن يعلم أحد من صاحبها، فهي أغنية شعبية حقيقية. كنت أسمع هذه الأغنية دائماً، وكأنني تحت تأثير السحر، وكنت أنتظر أماناكاي طوال الوقت. وإذا ظَهرَ شخص طيب في القرية، كان يقال عنه «مثل أماناكاي!». وعلى الرغم من وفاته منذ وقت طويل، فإن الأطفال لم يصدقوا ذلك. وحتى الكبار كانوا يصدقون أنه خالد، وكانوا يقولون إنه يتجول في القرى الأخرى، وسيحضر إلينا قريباً. لا نبعد نظراتنا عن الطريق، ونعتبر أن أي عربة قد تكون لأماناكاي، ونظن أن أي رحالة هو أماناكاي... وماذا عن الكلمات؟ لن تجد كلمات أبسط منها.

واصل العزف:

- إلى أين ذهب أماناكاي؟!

- ربط العربة بالجمل،

ذهب إلى الجبال،

ذهب إلى الجبال،

ذهب إلى الجبال.

- متى سيعود أماناكاي؟

- سيعود أماناكاي بحلول منتصف اليوم،

وربما بحلول المساء،

وربما غداً،

يا بني،

سيحضر لك حلويات وتفاحاً،

يا بني،

سيحضر لك حلويات وتفاحاً.

إييي، إييي، إييي...

بقي قاهر بك يردد كلمات الجوقة طويلاً. كنت أدعمه بصوت هادئ دون تفاؤل سابق. بعد انتهائه من الغناء، نظر في عيني:

- هل جوهر الأمر في الكلمات؟ لست بحاجة إلى الحلويات والتفاح. حتى الآن لا أزال أنتظر أماناكاي، وهو شخص لم أره في حياتي... تعتقد أنني لا أفتقد وطني. إنني أفتقده يا صديقي، أفتقده جداً. أفتقد أهل بلدي أيضاً. لا تتخيل إلى أي درجة أتمنى أن يزور منزلي أحد مصادفة أو متعمداً. أجلس في المنزل لأشهر وأنتظر لسنوات. أغلق غرفتي على نفسي، وأعزف النغمة بهدوء، منتظراً أماناكاي، وهو لا يأتي... بعد أداء الخدمة بالجيش، لم أعد إلى قريتي. أثناء الخدمة تعرفت على زوجتي، وبقيت معها طوال حياتي. حدث ذلك في نهاية الخمسينيات. كان السفر أمراً صعباً في ذلك الوقت، وصراحة لم أكن أرغب في العودة إلى منزلي، حيث كان سيتم إجباري على الزواج من أرملة شقيقي الأكبر. كانت هناك مثل هذه العادة للمحافظة على أبناء الشقيق ضمن الأسرة. وبم شعرت؟! أنا شاب... ولا يجوز الطلاق. لم أكن قادراً على العيش مع زوجة شقيقي، فلم أعد. ليفكر الأقرباء عني كيفما يشاءون. لم أزر قريتي سوى بعد مرور 15 عاماً. تظاهر الجميع بنسيان كل شيء، ولكنني لم أبق بالمنزل، ولم أزرهم وهم لا يزورنني. هكذا الحياة! أنتظر أماناكاي، ولكنه لا يأتي. أنتظر من يستطيع فهمي من سكان القرية حتى أحكي وأشرح لهم كل شيء... تصعب الحياة من دون شخص متفهم. لدي حقيقة واحدة أمام أسرتي، وحقيقة أخرى أمام أقربائي في القرية. لم تزر زوجتي الحالية القرية سوى مرة واحدة، ولم يزرها ابني، بل لا يريد السماع عن وطني، لأن زوجتي تردد ليلاً ونهاراً: «القرية هي الصحراء والوحشية!». ويكرر ابني كلامها تلقائياً. حين أصل إلى القرية، تسأل الشقيقة وأبناء وبنات الأشقاء عن حياتي من باب الذوق، ثم يسكتون. لا ينطقون بكلمة. لا توجد مواضيع للحديث عنها، وكأنهم

أعدائي... لذا أنتظر أماناكاي الذي يجب أن يكون موجوداً في الدنيا. هل هو غير موجود، ألن أراه؟!

نظر قاهر بك إلي نظرة متسائلة.

اتفقت معه:

- يجب أن يكون موجوداً.

قال قاهر بك بشيء من التأمل:

- يجب أن يكون موجوداً لأحد، وغير موجود للآخرين.

سُمع دق على الباب. دخل رفاقي الكتاب إلى الغرفة.

تغير المزاج فوراً. بدأت مأدبة قوقازية صاخبة، وانهالت تمنيات مضحكة عند رفع الكؤوس، وترحيبات، ومجاملات، وبين الحين والآخر، كانوا يطلبون من قاهر بك أن يعزف على الدومبرا، وكانوا يرقصون على أنغامه ويصفقون وينقرون المائدة، وكأنها طبل. لم يعد قاهر بك يؤدي الأغنية عن أماناكاي. غادر الكتاب متأخرين. استغرق قاهر بك في النوم بملابسه فوق الأريكة. حاولت خلع ملابسه، ولكنني لم أتمكن من إيقاظه.

في الصباح، استيقظ قبل شروق الشمس، وأعد حاجياته بسرعة، ولف الدومبرا بالجرائد. قمت من السرير حتى أرتدي ملابسي، ولكنه لم يسمح لي بذلك.

- ابق راقداً، سأغادر إلى العمل. إذا كان هناك شيء ليس على ما يرام، فاعذرني.

غادر الغرفة مسرعاً...

كنت أتجول في الحديقة المغطاة بالثلوج، ويتراءى أمام عيني قاهر بك العازف على الدومبرا. في بعض الأحيان كانت تحل محله صورة رجل عجوز ذي لحية بيضاء يرتدي ملابس شعبية وقبعة بيضاء. كان الرجل العجوز يبتسم ويسأل صامتاً: «ماذا تريد؟ ماذا تحتاج إليه؟». لم أكن أعلم كيف أرد عليه. كنت أسأل نفسي أثناء الجولة: «ماذا أريد؟ ماذا أحتاج إليه؟». وكانت تتردد في أذني أنغام قاهر بك، وكنت أردد في ذهني:

- إلى أين ذهب أماناكاي؟

- متى سيعود أماناكاي؟

- سيعود أماناكاي بحلول منتصف اليوم،

وربما بحلول المساء،

وربما غداً...

أصبحت أردد الأغنية بصوت منخفض. كانت روحي تنتعش، وتزول منها مشاعر الكبرياء، وبدا العالم أكثر طيبة. كنت أتمنى جداً رؤية قاهر بك أو أشخاص يشبهونه. أصبحت شبه متأكد أن قاهر بك نفسه هو ذلك أماناكاي من الأغنية.

روزا بازوفا

المنافِسة

فجأة لمعت عينا الحيوان الحادتان من خلف الشجيرات المغطاة بالثلوج. وبريقهما البارد جمد للحظة جسد زوريات. لكنها بعد أن غرقت في التأمل هنيهة، جمعت قواها الأخيرة وجرت...

ظلت تجري لفترة طويلة، وعبرت الطرقة المغطاة بالثلوج وغير الملحوظة تقريباً حتى تحت ضوء القمر الساطع. غمر الثلج ليس حذاءها المطاطي فحسب، وإنما أيضاً شرابها الصوفي، فيما ابتل ظهرها تحت قميصها القطني، وأصبحت أنفاسها متقطعة، ولكنها واصلت الجري...

توقفت زوريات أخيراً ونظرت حولها بفزع. لم يكن هناك حيوان. انداح حولها حقل واسع ومغطى بالثلوج وجميل تحت ضوء القمر إلى درجة الخيال وبدت ملامح جبال غامقة في الأفق. لا صوت، ولا روح. لم تكن هناك سوى نجوم ساطعة وقرص القمر في كبد السماء. بدا للحظة أن زوريات وحيدة في العالم أجمع وتقف وجهاً لوجه مع عدد لا يحصى من النجوم. أصيبت بالرعب. تذكرت الحيوان مرة أخرى: ربما لم يكن ذئباً، وإنما كلباً غير أليف من إلتاركاتش. منذ تهجير القرشاي، هناك العديد من الكلاب الهائمة في الغابات من جيغوتا إلى الشرق الأحمر.

ظلت المرأة تنظر حولها لبعض الوقت بحثاً عن الطرقة التي كانت تسلكها منذ انطلاقها من كوبان، واتضح أنها ليست بعيدة. توجهت زوريات إليها، ونظفت شرابها من الثلج، وبعد تهدئة نَفَسها، تحركت مجهدة باتجاه الشرق الأحمر. أفكار ثقيلة كانت تسيطر عليها. قبل نصف ساعة كانت تسير في شوارع قرية إلتاركاتش. قبل الحرب كانت تحب أن تزور العمة عائشة التي كانت متزوجة من رجل قراشي. كانت القرية جميلة وغنية، وعرف سكانها بكرم الضيافة وحب الحياة! باتت فارغة الآن. حالة المباني المهجورة تتدهور، وتشتتت المواشي، وباتت الكلاب والقطط تهيم في الشوارع. بات هناك خوف من السير في القرية حتى نهاراً، إذ يقال إن جنوداً منشقين

ومجرمين هاربين يختفون في المباني. أين أصبحت المسكينة العمة عائشة الآن؟ لم تتمكن حتى من توديع أقربائها من كوبينا. إنها غادرت برفقة أبنائها وأهلها. ويقال إنه كان بإمكانها البقاء كونها أباظية. فكرت زوريات ضاحكة: «عليك ألا تقلقي، فعلى الأرجح ستلتقين العمة عائشة...».

هكذا مضت الأمور. غداً سيتم ترحيل زوريات وأبنائها و11 أسرة مثلها من قرية كوبينا الأباظية إلى جهة مجهولة، ربما الى آسيا الوسطى أو في سيبيريا. لذلك تحديداً تسير هي منذ بضع ساعات في طريق ليلي مغطى بالثلج إلى الشرق الأحمر إلى منافستها التي تدعى مدينة...

المنافِسة. بدأت زوريات تتذكر ذلك الزمن البعيد ما قبل الحرب.

مساء صيفي دافئ. زوريات قادمة من نهر كوبان، وهي تحمل دلوين من الماء على النير. ستجلب الماء، وستحلب البقرة، وبذلك سينتهي اليوم الصيفي الطويل. ضوء نوافذ المدرسة. فكرت بغضب: «يعقدون اجتماعاً مرة أخرى. ماذا يمكن أن يتحدثوا عنه طوال هذا الوقت في الاجتماعات؟». خلال الفترة الأخيرة، انضم زوجها مراد إلى وحدة الدفاع الشعبي، وتم تعيينه قائداً قبل أيام. بعد ذلك أصبح يشارك في اجتماعات الجمعية الزراعية «كولخوز» بشكل متزايد. يعود إلى المنزل بعد منتصف اليوم وأحياناً قبل حلول الصباح. الحقيقة أنه كان يحضر هذه الاجتماعات قبل ذلك أيضاً، ولكن زوريات انزعجت من أن حسناء القرية الأرملة تساتسا باتت تذهب إلى هذه الاجتماعات أيضاً مؤخراً. ويقال إنها تجلس في كل مرة بجوار مراد.

- وماذا بعد؟ أي شخص يمكنه أن يجلس بجوار زوجي. هل أشعر بالغيرة من الجميع؟

لم تشعر بالغيرة، ولكن أثراً سلبياً تُرك في روحها.

كانت ابنتها زالينا تنتظرها أمام البوابة:

- هل يمكنني حضور الاجتماع يا ماما؟

- ماذا نسيت هناك؟

- إنه ممتع. على أية حال، أنا الآن عضوة بالجمعية التعاونية وأعمل في فرقة التلاميذ. هل يمكنني الحضور؟ سأنظر ماذا يجري وسأعود مسرعة.

- حسناً. اذهبي، ولكن لا تتأخري.

بعد حلب البقرة، جلست زوريات أمام الموقد وبدأت ترفو الملابس. ليس من السهل الاعتناء بأربعة أبناء!إنهم يتجولون لا يعلم أحد أين، وسيعودون جياعاً وملابسهم ممزقة!

بعد رفو الملابس، بدأت بتنقية القمح. سيكون من الأسهل القيام بذلك غداً صباحاً. عاد الفتيان. تناولوا الطعام وجلسوا متفرقين: أحدهم على الحصيرة أمام الموقد وآخر فوق لوح السرير بجوار الحائط. وزالينا لم تعد بعد. كانت زوريات تنوي الذهاب إلى المدرسة لإعادة ابنتها، ولكنها عادت بنفسها.

- يا ماما! كان الاجتماع باهراً! وبابا تحدث كثيراً، وكان الجميع ينصتون إليه. كان يقول: «يجب القضاء على الإقطاعيين وإعدامهم رمياً بالرصاص». وجلست بجواره امرأة جميلة جداً، مرتدية حجاباً أخضر ذا هدب مثل الحجاب الموجود في الصندوق بمنزلنا.

قاطعتها زوريات غاضبة:

- وجدت حسناء. هل هذه المرأة ذات الوجه الشاحب حسناء؟ غالباً ما حمَّرت وجهها بالبنجر! إنها لا تعرف الخجل، دفنت زوجها للتو وترقص بذيلها أمام قاتليه! يقال إنها هي السبب في اغتيال المسكين عمر!

انتبهت لكونها قالت أكثر مما ينبغي، وأضافت:

- لماذا تتربصين؟ اذهبي للنوم!

نظرت زالينا إلى أمها بشيء من الضيق، وبدأت تستعد صامتة للنوم.

كانت الساعة متأخرة، ولكن زوريات لم تنم. تركت الجورب الذي كانت تخيطه، وبدأت تنظر إلى الجمر المحمر في الموقد. سمع خلف باب المطبخ ضجيج الحصان وحديث الرجال. فكرت زوريات: «ربما إنه مع الأصدقاء، فمن المؤكد أنني لن أنام». في الفترة الأخيرة، بات زوجها ينظم حفلات مع الأصدقاء في منزله بشكل متزايد. لذلك بات الأطفال ينامون في المطبخ لا في البيت الكبير لعدم إزعاج من يشربون الكحول. سُمع صرير الباب، ورأت رأس ابن عمتها حسين الذي كان أيضاً صديقاً مقرباً لمراد:

- هل يمكنني الدخول يا أختي؟

- تفضل، تفضل. ادخل يا حسين، كيف حال العمة زارومخان؟ لم أرها منذ فترة طويلة...

- كل شيء على ما يرام. هل هناك شيء جاهز؟

- إذا لم يكن جاهزاً، فسأجهزه. ادخل.

علقت زوريات مرجل الماء فوق الموقد، ودفعت بالمقلاة إلى الموقد، وخلعت قطعة من اللحم المجفف من الحائط.

- يا زوريات، كنت أريد أن أقول...

- قل يا حسين ما الذي جرى؟

- حتى لا أعلم كيف أقول ذلك!

- قل ماذا حدث؟

- مراد لا يتخلى عنك وعن الأطفال. ستقيمون في نفس المكان هنا...

- ؟؟؟

- مراد تزوج!

توقفت السكين التي كانت زوريات تقطع بها اللحم.

- كيف تزوج؟

فكرت بداخلها: «سيطرت الراقصة عديمة الضمير عليه! انتصرت! يا إلهي! هل استبدلني مراد بالمرأة التي تحتقرها القرية كلها؟».

بعد رؤيته شحوب وجه المرأة، ازداد ارتباك حسين:

- لماذا تغضبين؟ فقد قلت إنه لن يلمسك ولن يترك الأطفال. وعموماً، يحق وفقاً للشريعة للمسلم أن يتزوج أربع نساء. وقع في غرامها! ألا يحدث ذلك؟

- يحدث يا حسين، يحدث. كيف تتصور حياتنا مع تلك المرأة ذات الوجه الشاحب؟ هل هي في بيتنا الآن؟

- من هي ذات الوجه الشاحب؟ آه صحيح، لم أقل لك إن مراد تزوج مدينة، الابنة الصغيرة لـ«بشيماخو».

- أي مدينة؟ إنها طفلة! أكبر قليلاً من ابنتنا زالينا. هل فقد عقله؟

- هذا هو جوهر الأمر. كنا عائدين ضمن فرقتنا على أحصنتنا من الاجتماع. اقترب مراد مني وتحدثنا. وقال لي: «تخيل ما حدث لي. وكأنني جُنِنت. وقعت في الغرام مثل الشاب. لا أستطيع فعل شيء مع نفسي. عندما أرى مدينة، أفقد أعصابي». كان إسماعيل الأعرج يسير بجوارنا. سمع حديثنا، وقال: «على ماذا توقف الأمر؟ تزوج!» -«تصعب علي زوريات. في كل الأحوال لنا خمسة أبناء»- «إذا كانت تصعب عليك، فابق ساكتاً». ظهرت عربة من خلف الركن، وعليها فتى وفتاة. عندما اقتربا، تبين أنهما مدينة وابن عمها غوبيد، قادمين من مكان ما. أمسك مراد بيدي، قائلاً: «هذا هو المصير يا حسين! لنخطفها. الآن أو أبداً!». أحطنا بتلك العربة. ماذا سيفعل طفلان بمواجهة سبعة فرسان؟ لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة! أمسك غوبيد بيده خصر شقيقته، وبيده الثانية أداة الطحن، وبدأ يلوح بها، ولا يسمح لأحد بالاقتراب. في نهاية المطاف، أمسكنا بهما، ولكننا لم نتمكن من فصلهما، فألقينا بهما فوق الحصان. كانت تصرخ بقوة! حتى الآن مازلت أسمع: «اقتلني، ولكن لا تسلمني لهؤلاء الكلاب!». ارتكبت مثل هذا الذنب الكبير. اصطحبناهما إلى عمة مراد في البرهان. سيبقيان هناك لحين نقنع أقرباء مدينة...

لم تنم زوريات حتى الصباح. لم تكن تعلم ماذا تفعل. لديها خمسة أبناء. كيف تتركهم؟ وإلى أين تذهب بهم؟

في تلك الليلة، لم يحضر إليها مراد، كما لم يحضر في اليوم التالي أيضاً. في الصباح الباكر من اليوم الثالث، فتح باب المطبخ، وكان مراد يقف على الباب، وخلفه فتاة منحنية الرأس. خطت زوريات خطوة إلى الوراء، ونظرت إلى زوجها بشكل لاإرادي وانبهرت به لحظة ما: طويل ورشيق ذو شارب أسود على وجه أبيض. تهتز أصابعه الرفيعة على مقبض الباب، مبينة خيانته. هاتان اليدان. كم كانت تحبهما! حتى الآن! نعم. إذا لم تكن تحبهما، لما جلست هنا طوال اليومين. ماذا ستفعل؟ وتلك الفتاة... الرموش الطويلة السوداء تلقي بظلالها على خديها. حاجبان وأنف صغير وشفتان ورديتان. يا الله، كم يناسب أحدهما الآخر! واصلا الوقوف بهذا الشكل إلى حين قال مراد:

- ستكونان معاً كلتاكما. وأرجو ألا يسمع أحد شيئاً عنا! هذا ما قلته!

قال وغادر. كانت زوريات تنظر إلى الفتاة التي أمامها. إنها شابة تماماً وابنة أحد مثل زالينا. وما ذنبها؟

فجأة قالت لها:

- ادخلي. اجلسي على هذا الكرسي.

دخلت مدينة إلى الغرفة في خضوع مثل النائم، وجلست على الكرسي، واضعة يديها على ركبتيها. وضعت زوريات أمامها الخوان، وصبت شاياً أبيض، ووضعت الأرغفة على الطبق. جلست أمامها، وأخذت ملعقة خشبية بين يديها:

- اشربي.

لم تتحرك مدينة. شعرت زوريات بالغضب، وكاد كل ما عايشته خلال آخر ليلتين أن يخرج منها.

رفعت صوتها قائلة:

- اشربي الشاي قبل أن يبرد.

سقط دمع من خد الفتاة إلى يدها.

- إنها تبكي، إنها تبكي! هل ترينهم - وأشارت بيدها إلى الأطفال النائمين - هل ترين؟ ماذا سأفعل بهم؟ من مِنَّا عليها أن تبكي: أنت أم أنا؟

دون النطق بأي كلمة، قامت مدينة وخرجت من المطبخ. بعد وقوفها لبعض الوقت في الفناء، توجهت ببطء إلى البيت الكبير.

في الصباح، كانت زوريات تقوم بأعمال منزلية مثل الطبخ والتنظيف. قدمت وجبة الفطور لأبنائها، وأرسلتهم إلى حقل ناءٍ لحصد الفاصوليا. ثم جلست لتناول وجبة الغداء. لم تكن جائعة. فكرت طويلاً، ثم قامت وذهبت إلى المنزل الكبير. كان خالياً من البشر. عند خروجها منه ووقوفها في الفناء، انتبهت إلى أن الباب كان مفتوحاً بعض الشيء. تذكرت زوريات أنها أغلقته. دخلت إلى الحظيرة وصعقت مما رأته: كانت مدينة تقف على مصطبة متدنية وتربط حبلاً بالسقف.

صرخت زوريات:

- ماذا تفعلين؟

هرعت إليها محاولة منها لجرها من المصطبة. أبعدتها، وواصلت ربط الحبل. أمسكتها زوريات بيديها، وجرتها بالقوة من المصطبة وأوقفتها أمام نفسها. كلمات غاضبة كانت على وشك الخروج من فمها، وحتى رفعت يدها لصفع مدينة، ولكنها نظرت إلى عينيها المحمرتين من الدموع. لبعض الوقت واصلت المرأتان النظر إلى عينيْ إحداهما الأخرى، ثم احتضنتا إحداهما الأخرى

وانخرطتا في البكاء. هكذا بكت زوريات بدموع الحب لزوجها على كتف منافستها...

بعد بضعة أيام في المساء، سمعت زوريات ضجيجاً خلف منزلها. ذهبت خلف الركن حتى لا يسمعها أحد، وسمعت صوتاً من حقل الذرة بالقرب من الجدار الحجري:

- ماما، لماذا تصرفت هكذا يا ماما؟ أنا وغوبيد كنا ننتظرك أنت أو عزيز. لماذا لم تحضرا؟ لماذا لم تأخذانا؟

- اعذريني يا ابنتي. لم يكن باستطاعتي التضحية بشقيقك الوحيد الشاب. لحسن الحظ كان بعيداً، وإلا لكان ارتكب أعمالاً خطيرة. ماذا سيفعل ضد فرقة كاملة للدفاع الشعبي؟ كانوا سيقتلونه، وكانت سلالتنا ستنقطع. الأهم أنك حية. هل عدد الناس في سولوفكي قليل؟ اعذريني يا ابنتي... لا تزعجي زوريات. إنها امرأة طيبة، وتعاني أكثر منك...

تراجعت زوريات إلى الخلف بهدوء.

هكذا أصحبت الزوجتان تعيشان في بيت واحد. وما كان يثير دهشة الجيران أنهما لم تكونا تتشاجران أبداً، بل كانتا تتوليان تدبير الشؤون المنزلية معاً. حين أنجبت مدينة ابناً وبنتاً، أصبحت زوريات تعتني بهما وكأنهما طفلاها. ولكن مراد لم يعش طويلاً مع زوجته الجديدة، إذ واجه وشاية وخيانة زملائه في وحدة الدفاع الشعبي الذين قتلوه رمياً بالرصاص، وقاموا بمصادرة كل ممتلكاته. هكذا كان الزمن...

بعد مصرع زوجها، عادت مدينة إلى بيتها وأمها، وتزوجت لاحقاً من شاب من الشرق الأحمر.

حين حضر الألمان إلى القرية، ذهبت زوريات مع بضع أرامل أخريات إلى بيت الرئيس السابق للجمعية الزراعية، وأخذت الممتلكات المصادرة. وعندما عاد الجيش الأحمر، لم يغفر لهن ذلك. واليوم (نظرت زوريات إلى شروق الشمس) أو بالأحرى أمس، حضر إليها حارس مجلس القرية حسين، وحذرها: «غداً سيتم تهجير عائلات الخونة الـ12، ومن بينها مدينة وطفلاها».

- لكنها متزوجة. زوجها الجديد في الحرب. خاصة وأنه حين حضر الألمان، كانت تقيم في كوبينا.

- لكنها مدرجة على القوائم مثلك. أنا رأيت ذلك.

بعد أن نام أبناؤها، توجهت زوريات إلى الشرق الأحمر حتى تبلغ مدينة...

ظهرت أولى بيوت الشرق الأحمر. على الرغم من الظلام، إلا أن أعمدة الدخان تتجلى فوق بعضها.

والآن فقط، شعرت زوريات بتعب كبير، متمنية الوقوف مستندة إلى البوابة الباردة...

حضر حمو مدينة إلى البوابة. بعد سماع كلام زوريات، اصطحبها إلى البيت حتى تتدفأ، وذهب نفسه إلى بيت أخيه. قررا أن يصطحب الحمو زوريات إلى كوبينا، بينما سيخبئ شقيقته مدينة وأبناءها بمزرعة قديمة. الأهم ألا يأخذها القطار الذي سينقل المهجرين، فليبحثوا...

في الصباح الباكر، غادرت الشرق الأحمر زلاجة، وكان يقودها رجل عجوز، وزوريات مخبأة في التبن. وبنفس هذه الطريقة، تم نقل مدينة وطفليها إلى المزرعة.

وبالقرب من جيغوتا القديمة أخذوا مزلجة أخرى كانت تنقل المفوضين من كوبينا إلى الشرق الأحمر لأخذ مدينة...

كانت زوريات تشعر بالارتياح في التبن الدافئ. مرت ليلة مرعبة وصعبة. تم إنقاذ منافستها. والله وحده يعلم مصيرها هي.

وكان الله يعلم أن زوريات ستقضي سنوات طويلة في آسيا الوسطى، وأن هذه المرأة الشجاعة ستدفن طفلين هناك وستعود إلى وطنها. وفي طريق العودة من المنفى إلى الشرق الأحمر، ستزور منافستها، وستقضي شهراً كاملاً بمنزلها، لحين يستريح الأطفال من الطريق الشاق... وحين ستمرض زوريات في الشيخوخة، ستكون مدينة أكثر المعتنين بها وأكثر من يبكي على وفاتها... إنها منافستها...

موسى أحمدوف

الدمى الخشبية

استيقظ ديني لدى سماع صوت إطلاق نارٍ قريب، ورأى أن ضوء القمر يتسلل إلى النافذة، وبكت طفلة في الحجرة المجاورة. أدرك ديني طبيعة هذا الصوت، حين سمع مرة أخرى صوت إطلاق النار، متذكراً أنه يعيش في بلاد ذات سيادة، ولذلك لا يمكنه ألا يكون سعيداً.

حين بكت الطفلة مرة أخرى، ذهب ديني إلى غرفته، وتلا الشهادة فوق الطفل الباكي في منامه. تذكر كلمات أمه: يبكي الطفل في المنام، حين يقول له الملاك إن والديه توفيا. إنها مزحة قاسية تجاه إنسان صغير بلا حماية حضر من الخلود إلى هذه الأرض الباردة والقاسية والمليئة بالمخاطر، ولا يملك فيها سوى والديه! وربما لا يمزح الملائكة. ربما يعدون هذا الإنسان الصغير لهذه الحياة حتى يتذوق مرارة المصيبة!

الأرض هي نوع من الجحيم خلق لاختبار أرواح الناس. يبدأ الاختبار من لحظة الولادة. الحياة عبارة عن حزن وألم، ونادراً ما تسود الطمأنينة مرة كل عشر سنوات.

تستيقظ الأم وتعتذر:

- يبدو أنني نعست.

تكدرت قيلولة الطفل، فتشتت بكاؤه في العالم مثل دقيق الذرة الذي يمر عبر الغربال إلى أن يتلاشى تماماً.

ذهب إلى غرفته وجلس بجوار مكتبه. القطع الخشبية التي صنعها، تبدو تحت ضوء القمر، وكأنها أشباح حيوانات عجيبة تعيش في غابات كثيفة.

منذ الطفولة تعلم ديني حرفة صنع أشكال الإنسان من الخشب، حين اصطحبه والده إلى الجبال لرعاية الخراف. لم يستحسن الوالد هوية ابنه: إنه

عمل عديم الجدوى، كما أن تجسيد البشر يمنعه الدين. ولكن العادة التي كانت في دمه، كانت تطرد مثل هذه الأفكار.

وحين صنع مجموعة التماثيل «يوم شتوي في قرية جبلية»، جسد على خشبة حجمها متر على نصف المتر، الأحداث الرئيسة التي وقعت في القرية خلال يوم شتوي واحد: برج عال في الركن وحوله مبان متشتتة، وتزلج الأطفال، واجتمع الرجال في الساحة المركزية، وذهب الرجل العجوز للبحث عن الحطب، ووقف شاب وفتاة بجوار المنبع، واصطحب فتى الخراف من مكان الاستسقاء وبجواره كلب كبير. انتبه القائمون على معرض في موسكو إلى أعماله، فلم يعد لديه شك في أنه يمضي في الطريق الصحيح.

امتلأ البيت بالتماثيل الخشبية، وكلما ازداد عددها، ازداد أيضاً غضب الوالد الذي كان يردد: «ابني في الـ30 من عمره يلعب بالقطع الخشبية، بينما انتقل أبناء غيري للعيش بصورة مستقلة».

وذات مرة في صباح شتوي، حين كانت الأم عاجزة عن إشعال الموقد، أخذ الوالد أحد أكبر التماثيل، وقطعها إلى قطع جافة صغيرة ووضعها في الموقد. كان ديني ينظر صامتاً إلى النار ويبكي في أعماق روحه على أعماله. بعد رؤيته حزن ابنه، يبدو أن الوالد حزن أيضاً: «لماذا أنت حزين وكأنك في جنازة أعز شخص عليك؟ ستصنع دمى خشبية جديدة، فهناك أعمدة أحضرتها إلى الفناء، خذ أياً منها سواء أكانت من خشب الزان أو الزيزفون. إذا استنفدت، فهناك أشجار كثيرة في الغابة».

سكت الشاب رغم أنه غفر لوالده فوراً، ولزم الصمت في أثناء الفطور، حين حاول والده ممازحته (لم يكن يريد السكوت، ولكنه الشيطان لعب في عقله)، وسكت لاحقاً، حين ربط الوالد المزلقة بالحصان وذهب إلى الحقل لإحضار التبن، تاركاً آثاراً على الثلج. شعر بالضيق تجاه نفسه، حين سار خلف المزلقة بحثاً عن والده الذي تأخر. ازداد هذا الضيق عاماً بعد عام، ليجعل نبضات قلبه أضعف فأضعف. حين رأى وسط الحقل تراباً ثلجياً على الوجه البارد لوالده الذي توفي فجأة، مزق هذا الضيق القاسي قلبه إلى قطع كبيرة، وحاول أن يخرج إلى المرتفعات المعتمة حيث تهيم مصائب وأحزان الآخرين. في البداية، تقبل وعيه ذلك، ولكنه تذكر مسؤوليته أمام أمه وأشقائه الصغار، فحافظ على هذا الضيق بداخله، وهو يحرق قلبه بالرصاص المنصهر.

نار الإبداع التي اشتعلت بداخله منذ الطفولة، أخذت تنطفئ مع مرور أعوام، ولكنه لم يستسلم، بل كان يعمل في كل ليلة. كان الجيران يمزحون: «كدت تقطع أشجار الغابة كلها حول قريتنا». هكذا كان يمر يوم بعد يوم، وكان

يحل الشتاء أولاً، ثم الربيع فالصيف فالخريف، ثم يتكرر كل شيء من جديد. كان الشباب يكبرون، والكبار يهرمون، والشيوخ يموتون. إنه وحده بقي على حاله دون أن يكبر ويتغير.

تغير بشكل مفاجئ، حين حضرت إليه مرة أخرى شقيقته التي كانت أصغر منه بعشر سنوات. كان ابن وابنة شقيقته يلعبان في الفناء مع أبناء شقيقه الذي كان أصغر من الأخت بعامين. أثناء اللعب أزعج أحد الأبناء الفتاة، فبدأت تبكي، واضطر ديني لمصالحتهم. هكذا نشأت في دماغه فكرة: «ماذا أفعل؟.. الناس لديهم عائلات وأهداف ما في الحياة مثل بناء منزل أو شراء سيارة أو إدخال الأبناء إلى المدرسة وتوفير أزياء وأحذية لهم...». هو فقط الذي ليست لديه أي أعمال كهذه. همه هو صنع الدمى من الخشب، ولكنها، مهما اجتهد، لا تبتسم ولا تتحدث مثل أبناء أشقائه أبداً، إنها باردة، وهذا البرد يؤلم قلبه. ثم جلس عاجزاً عن العمل مكتوف الأيدي حتى ساعة متأخرة من الليل، وعندما رقد في سرير خشبي بلا مرتبة ولا بطانية، لم يتمكن من النوم حتى الفجر.

عندما فتح ديني عينيه، رأى أشعة الشمس غزيرة تدخل إلى نافذته. كان الأطفال يلعبون في الفناء، والدجاج يقرقر. عندما رأت الأم أنه استيقظ، نادت عليه لكي يتناول الفطور.

وفي وقت لاحق، حين جلس إلى مائدة مستديرة قصيرة وتناول وجبة الفطور، خطرت في باله فكرة مفاجئة: يجب الذهاب إلى المدينة، حيث سيُثمن إبداعه وسيلتفتون إليه، والقرية هي السبب في كل شيء.

فقد بشكل نهائي الاهتمام بالقرية، حين ذهبت أمه رغم اعتراضه إلى بيكيسات التي تقيم على أطراف القرية للتقدم بخطبة حفيدتها. إلا أنها استقبلتها بلا أي لباقة، فعادت الأم إلى منزلها، وهي تلعن الجميع، ورمت معطفها، وقالت في دخيلة نفسها: «أنا السبب في كل شيء، لأنني ذهبت إلى أناس لا يستحقون». لم تنزعج الأم من رفض بيكيسات، وإنما من الكلمات بحق ابنها: «لا ينقصنا سوى هذا الشاب الذي يلعب بالدمى». انزعج ديني هو الآخر من هذه الكلمات التي رأى فيها سخرية قاسية من حرفته التي كان يجتهد فيها مثل المسلم الملتزم عند أداء الصلاة. لكن بعد استماعها إلى أقوال سكان القرية، اكتشفت أن بيكيسات ليست وحدها من تقول ذلك. ذات مرة أخذ من أمه نحو مائة روبل حصلت عليها من بيع الفاصوليا، وسافر إلى المدينة بالحافلة الصباحية. وبعد بضعة أشهر، شعر نفسه أكثر بؤساً مما كان عليه في القرية. كان يشعر بالبرد وبالوحدة في البيت الذي استأجره على أطراف المدينة. أثناء وجوده في القرية كان يتدفأ بفكرة السفر إلى المدينة لنيل

الشهرة، ولكن الآن حتى ذلك لم يعد متاحاً. لكن في جميع الأحوال مهما كان يخنقه برد الضيق، إلا أنه واصل قطع الخشب، باكياً بصمت.

بدا له أن الدمى أصبحت أكثر جمالاً من ذي قبل، إذ كانت تنقل حالة روحه إلى الخشب، وبذلك جسدت عيون التماثيل حزنه وترقبه. بمجرد ولادة كل «طفل» خشبي، كان يعرضه للبيع في متجر الفنانين، ولكنه لم يكن يجد مشترياً رغم تدني السعر. كان يتردد على المتجر يومياً، حيث كان الباعة يبتسمون له بشيء من التعاطف، ويقولون:

- تماثيلك جميلة جداً! ولكن لا يشتريها أحد...

لكن ذات مرة، وقفت فتاة أمام مجموعته «يوم شتوي في قرية جبلية». ظلت تتأملها لفترة طويلة، ثم توجهت إلى الخزينة للدفع. تبادلت البائعتان النظرات وابتسمتا بشكل غريب.

سألت أحدهما:

- لماذا لا تشترين تمثالاً آخر؟

- في المرة القادمة سأشتري.

عندما خرجت من المتجر، سار خلفها، وهو يسمع ضحك البائعتين وراء ظهره.

بعد بضعة أيام، لم يبق تمثال واحد له في المتجر، إذ اشترت الفتاة بعضها، بينما أهدى لها البعض الآخر. ثم باتا يشاهدان معاً تساقط الأوراق المصفرة والمحمرة من الأشجار. ثم بدأ الثلج يتساقط مثل الأوراق. فصلهما الحب عن الأرض، فباتت تحركهما رياح الحياة، وكأنهما ثلج. كانت تلك الأيام وفترات المساء والليالي مدهشة ومسكرة، ولكن مساء بعينه تخلله تساقط الثلوج وهبوب الرياح، كان مختلفاً عن غيره. كانا واقفيْن تحت مظلة كبيرة بجوار محطة السكة الحديدية، مستمعين إلى صرير القطع الخشبية تحت قوة الرياح. ربما في الوقت الذي يسوده صقيع الشتاء ونقص دفء حبهما، أو ربما كان القدر يصدر له رسالة ما، إلا أن حياته حتى هذه اللحظة وما بعدها بدت له شبيهة بتلك المظلة وسط العاصفة الثلجية. لا، لم يكن بوسع مريم جعل هذه المظلة بيتاً، ولكنها كانت قادرة على استئناس روحه المتفردة. أليس بمقدورها ذلك؟ وإذا لم تكن قادرة، فمن يستطيع ذلك؟ تمنى أن يكون مخطئاً: من يعرف، ربما هذه الفتاة ستتمكن من حمايته من رياح الوحدة التي تجتاح جسمه؟

وسط صمت صقيع الشتاء، اصطحب مريم إلى البيت الذي كان يستأجره. بدا له أنه كلما كان انتباه الناس أقل كان ذلك أفضل. تبين أن مريم كان لها رأي آخر. بعد نصف عام، اعترفت له بأنها كانت تتمنى حفل زفاف كبيراً على أصوات الأغاني.

عندما بدأت حياتهما المشتركة، كان ثقل الواجبات يزداد يوماً بعد يوم، وحتى يتحمله، كان يستيقظ وسط الليل ويقوم بقطع الخشب حتى الصباح. نادراً ما كانت مريم تلمح بأنه يجب جني أموال وشراء منزل وبعض الأثاث، ثم مواصلة الإبداع. كان يبعد هذا الوعظ عن نفسه، وهو يهز الرأس مثل الحصان الذي يبعد الذباب المزعج.

ذات مرة، عاد من سهرة مع الأصدقاء، وهو سكران بعض الشيء، وبدأ يصرخ: «أنا فنان عظيم! أكره كل من يغتني عن طريق بيع الأقمشة. سيبقى اسمي حياً لقرون! هل من شخص مثلي؟ آه؟».

لم تنطق مريم في تلك الليلة بكلمة، وكان هذا أصعب ما في الأمر. كان يبدو له أنه مجرد أن يبدأ بالصراخ، فستعارضه زوجته وستبدأ بذكر كل ما لم يتم عمله في المنزل، بينما سيصر هو على عدم أهمية ذلك وعلى موقفه... انتصر دون كلمات كثيرة، ولكن هذا الانتصار لم يفرحه، بل ظل يسد حلقه حتى بعد تناوله بضعة أكواب من الماء. وأثناء تناول الفطور المكون من الخبز والشاي، فكر: «أنا بالطبع فنان عظيم، ولكن علي جني أموال في جميع الأحوال».

في نهاية الشتاء البارد والرطب، ولدت ضيفة صغيرة في منزلهما، وبعد أقل من شهرين، بدأت تبتسم لوالديها ابتسامة يشوبها الذنب. فكر الوالد: «كنا ننتظر ولداً وقد وجدنا اسما له، وكأن من المستبعد أن تولد صبية. لكنها ولدت رغم أنه لم يكن ينتظرها أحد، فتشعر بالذنب عن خيبة انتظارنا». بدت هذه الفكرة له كافرة وخطرة على الطفل: لا يأتي أحد إلى العالم محل الآخر، بل كل شخص له مصيره ومغزاه وبإرادة الله، ولذلك لا يجوز التفكير هكذا حتى لو في مزحة...

ازداد ثقل المسؤولية التي باتت تشبه مدحلة الأسفلت. أثر هذا الثقل على إبداعه وخلّطه بالأسفلت. ولكن أملاً ما كان يشده إلى الحياة، مثلما يشتد النبات إلى الشمس عبر سُمك الأسفلت. كان هذا الأمل هو مجموعة التماثيل التي قرر صنعها على طبق خشبي كبير.

في مرات كثيرة، كان يحلم بهذه المجموعة في منامه. تتناول أسرة طعام العشاء حول صينية كبيرة مليئة باللحم المسلوق والزلابية من دقيق الذرة. تجلس بجوارهم زوجة، وكثيراً ما تخاطبها السيدة العجوز، قائلة: «اجلسي يا أيانت، اجلسي. استريحي قليلاً». ترد زوجة الابن، قائلة: «سأجلس»، دون أن تخالف التقاليد. إنها حامل، ولذلك حماتها قلقة. الأكل المشبع هو هبة من الله على الإخلاص في العمل. ينتهي العشاء. تأخذ زوجة الابن الأطباق من المائدة. ثم عندما تأخذ الصينية لتضعها في مكانها، تجتاح رياح غريبة المنزل، كاسرة النوافذ والأبواب. هذه العاصفة تلقي بالناس إلى الأرض، وتثلج الأرواح، وتطرد الناس من مساكنهم، مفرغة القرى الجبلية، وتجمعهم في منطقة ناشخا القوقازية. تصرخ الوجوه المتجمدة من اليأس: «إلى أين؟ إلى أين؟ إلى أين؟»، دون أن يرد أحد. ثم ستلقي الرياح بهم إلى أرض ميتة وإلى يوم القيامة وجهنم. يا ناشخا، الأرض التاريخية للشيشاني! كيف ستتجاوزين هذه المحنة التي يجلبها هؤلاء الناس إلى خاياخ؟ لماذا لا تنشق الأرض؟ كم هي ثقيلة هذه المصيبة المكونة من أحزان كل روح! كانت أيانت تحمل الصينية بين يديها، وبدأت تشعر بآلام الولادة على أطراف قرية خاياخ. تطوِّقها النساء. تتوسع الدائرة، ثم تضيق. تم فرش عباءة سوداء وسط هذه الدائرة، وتحاول أيانت كبت صرخاتها حتى لا يعلم الناس بعذابها. إنهم مرتبكون من مصيبتهم التي أهانت كرامتهم وشجاعتهم ورجولتهم. تقول لها حماتها: «لا تتعذبي يا أيانت! أصرخي، أصرخي». تبدأ النساء المحيطات بها بحمد الله حتى لا تسمع صرخاتها:

- لا إله إلا الله، لا إله إلا الله.

يستمر دعاء النساء حتى الصباح تقريباً. وعند الفجر، يأتي إلى العالم إنسان سيواجه الصقيع والقسوة والمصائب في بلد بارد ومنكوب.

يا بنت! يا بنت... مسكينة! لقد ولدت في وقت غير مناسب! إنها مسكينة حتى دون هذه المصيبة...

ينتشر الهمس حولها:

- أسعدك الله... آمين!

تقول الحماة:

- سيكون اسمها فاطمة مثل ابنة الرسول.

تضيق الدائرة لحماية هذا الكائن البشري من الثلج والرياح والعاصفة، ولكن يسود الحزن في قلب كل امرأة بدلاً من الدفء الضروري للطفل، ويخلق برداً. ومع ذلك، تلتف النساء حول الطفلة للمحافظة على هذه الحياة بلهيب أرواحهن ودفئها. لكن هذه الدائرة تحيط بها دائرة أخرى من الغرباء المدججين بالسلاح الذين حضروا للقضاء على وطنهم. وفوقهم دائرة من الجبال، وفوق الجبال دائرة الضباب والغيوم، وفوقها دوائر السموات والنجوم والفراغ والظلام...

وعلى هذا الإنسان الصغير أن يعيش تحت ثقل كل هذه الدوائر، ومن المستحيل التحرر منها طالما أنت على قيد الحياة، ولن تقطع الروح حلقات المصيبة والأحزان والالتزامات سوى بعد الوفاة.

انتشرت عند الفجر شائعة مفادها أن كل من يعجز عن السير على قدميه، عليه التوجه إلى الإسطبل، ثم سيتم نقلهم على متن طائرات... «إلى أين؟ إلى أين؟ إلى أين؟». لا يجيب عن هذا السؤال أحد.

- خذوا التبن معكم إلى الإسطبل للجلوس عليه.

هذا الاعتناء يبدو غريباً لأيانت، فتحاول إقناع حماتها بالمغادرة مع الأقرباء، إلا أنها ترفض ذلك، إذ تحتاج هي والفتاة إلى استراحة قصيرة... حين قررتا البقاء، توجه إلى الإسطبل 12 قريباً آخرين من طرف الأب والأم، دون أن يتوقعوا أنه سيتحول في اليوم التالي إلى الجحيم الذي سيحترقون في نيرانه وسيختنقون من دخانه.

عندما يبدأ ذلك، سيصاب الناس بالعمى والجنون بعد محاولات فاشلة لتحطيم الجدران الحجرية، ولن يتمكنوا من النزول تحت الأرض ولا من الصعود إلى السماء عبر السطح (في وقت لاحق وبعد احتراق جثامينهم، ستصعد أرواحهم عبر السطح إلى ظلام أعماق السموات)، فسيهرعون إلى البوابات وسيزيلونها. ستتمكن الصفوف الأولى من مغادرة الإسطبل، ولكنهم سيسقطون تحت رصاص الغرباء. مع تراكم الجثامين على البوابات، لن يتمكن الناس من إيجاد مخرج، وسيحترق نحو 700 شخص، وستهيم أرواحهم طويلاً في وادي نهر غيخي إلى أن يدفن عظامهم الفارون إلى الجبال.

كم هو قاسٍ الاختبار الذي وقع من نصيب هذا الإنسان الصغير الذي حضر إلى العالم لمدة يومين عاش خلالهما في الجحيم واحترق في النيران.

هل يمكن أن يجسد يوم القيامة هذا بواسطة الخشب وصراخ الطفلة البالغة من العمر يومين ويديها الممدودتين إلى الله في دعائها الصامت؟..

تجسيد ما جرى في ذلك اليوم في خايباخ يتطلب توافر الألحان والكلمات والتلاوين. أما هو، فليس متمكناً سوى من استخدام الخشب والسكين، ولكنه يؤمن بأن الخشب الصامت بين يديه سيكشف أموراً كثيرة للناس...

كان من الأفضل أن تتحدث الدمى وتعزف. في هذه الحالة سيتمكن من عرض هذا الهول على أكمل وجه.

تردد ديني طويلاً دون أن يقرر أي جزء من هذا المشهد المروع سيجسده... وفي نهاية المطاف، خطرت على باله فكرة: لماذا أجسد كل هذا الجحيم؟ بل يكفي الحديث عنه. من الأفضل أن أجسد دائرة الرحمة والدفء التي أقامتها النساء في ذلك المساء البارد حول الإنسانة الوليدة. سيصنع الصينية أولاً، تلك الصينية التي كانت تحملها أيانت في ذلك اليوم. وفي وسط الصينية، سترقد أيانت مع طفلتها، وهي نصف مغطاة بالبرقعة السوداء. ستقف على أطراف الصينية تماثيل النساء المحيطات بهما. هذه الدائرة، الدائرة المكونة من الناس والجبال والضباب والغيوم، وأعلاها دائرة النجوم...

ليست في سلطته الألوان والنجوم... في سلطته الخشب والسكين فقط. ولكنه يؤمن بأن أعماله الخشبية ستستعيد في ذاكرة الناس تلك المشاهد والألوان والأصوات والروائح...

بعد سماعه بكاء الطفلة في الحجرة المجاورة مرة أخرى، تذكر أن أسنانها تشق طريقها الآن، وأن أحد الأطباء قال له إن مثل هذا الألم لن يتحمله الشخص البالغ. هذه آلام بداية الحياة...

تذكر أن الأشجار تنتعش في الربيع، وتسيل دموع الأشجار على أغصانها. تبكي من آلام ولادة الأوراق. وبمثل هذه الطريقة تظهر الأسنان بأفواه الأطفال، قاطعة اللثة.

صعد ديني، ووقف على عتبة الغرفة المجاورة. «يا إسيت، حين ستنمو إلى مرحلة تكونين فيها قادرة على السير على الأقدام، سيصطحبك والدك إلى ضيافة جدتك في القرية. سيروي لك أن جدتك كانت معروفة في أيام شبابها بشرفها وحسن تربيتها. ثم سيروي لك كيف تزوج جدك جدتك. حدث ذلك في موسم جني حصاد الخريف. خرجت جدتك من المنزل عند منتصف الليل حتى تتزوج جدك. تمنت لها رفيقتها: «أسعدك الله». بعد الزواج، أهدتها شقيقتها إبريقاً نحاسياً. بعد أن تركت فطيرة في الموقد (كثيراً ما كانت تردد: «أخشى أن أكون أحمل ذنب تلك الفطيرة التي ظلت في الموقد»)، نقلتها

رياح قاسية إلى أرض غريبة وحرمتها من وطنها. أما فاطمة من ناشخا التي كانت أصغر منك بتسعة أشهر، فلم يتركوا لها وقتاً حتى تنمو أسنانها...

نعم، سيروي والدك لك عن جدتك، حين تبدئين بالسير على القدمين وستتعلمين التحدث... ذات مرة في موسم حرث الأراضي والزرع، ستذهبان إلى القرية الجبلية وسط الجبال، وسيروي لك والدك كيف دفن جدك وجدتك نصف أبنائهم الـ14، وربوا الآخرين بطريقة جعلتهم أناساً شرفاء... سيروي لك كيف وجدت بعد العودة إلى منزلها بعد 30 عاماً تلك المقلاة التي وضعتها بالفطيرة على الموقد في ذلك اليوم. كيف حضرت شقيقة جدتك من قرية سعادي كوتار البعيدة، ومعها بقرة حمراء. معتنية بتلك البقرة، زرعت جدتك الحقل، وبدأت الحياة من جديد للمرة الثالثة... نعم، سيروي لك والدك أموراً كثيرة يا إسيت، عندما تكبرين».

خشيت الطفلة من الصوت خلف الباب، وازداد بكاؤها. بعد قليل، نقر أحد على الباب.

اقترب ديني من الباب، وسأل:

- من هذا؟

سمع خلف الباب صرخات: «الماء، أعطوني ماء...»، «هناك شخص جريح ويجب إغاثته». فتح الباب، وسرعان ما ندم على ذلك:إذ دخل إلى بيته فوراً ظلام القسوة. دخل الظلام، مغلقاً الباب من الداخل، حتى لا تأتي النجدة من الخارج. في الداخل، انقسم الظلام إلى ثلاثة أقسام. كان الثلاثة ذوي عيون مضيئة مثل الجرذان، وكان أحدهم يحمل رشاشاً آلياً، والآخران مسدسين، وسكاكين طويلة معلقة على أحزمتهم. كانوا يرتدون زي الجيش السوفيتي.

صرخ أحدهم:

- من أنت؟

- من أنتم؟

- ألا ترانا؟

- أراكم... لذلك أسأل.

- مقاتلو الحرس الوطني!

- من أعطى لكم الحق في اقتحام المنزل وسط الليل؟

- ماذا قال؟ الحق؟ ما هو الحق الذي تحتاج إليه؟

- يبدو أنه عدو للثورة.

- دون أن أعلم أنني أتوهم، كنت أكتب خطابات لأمثالكم...

- آه... إذن أنت السبب في هذه الفوضى! نحن من المعارضة.

- لكنني أدركت سريعاً...

- آه، أنت فهمت؟ إذن أنت تفكر في معارضة السلطة؟

- اللعنة على سلطتكم!

- انظر! فقد انكشفت. لسنا من المعارضة!

- بصرف النظر عمَّن أنتم، انصرفوا من هنا!

كان ديني يصرخ حتى تسمعه زوجته في الغرفة المجاورة. قبل بضعة أسابيع، حين انتشرت أولى الشائعات حول ظهور أشخاص يقتحمون المنازل ويقتلون أصحابها، وينهبونها، قال لها مازحاً: «إذا حضرت مثل هذه الذئاب إلينا، افتحي النافذة في غرفتك واهربي إلى الجيران. إن أحمسلطة رجل نبيل لديه سلاح وسيساعدنا».

وسط صمت حل بعد صراخه، سمع صرير فتح النافذة، وحتى لا يسمعه المعتدون، صرخ مرة أخرى:

- انصرفوا من هنا أيتها الكائنات القذرة!

إلا أن يداً كبيرة أغلقت فمه، ثم ألقت به نفس اليد إلى الركن.

- لماذا تصرخ؟ ألا تعلم من أنت بالنسبة إلينا؟ لا شيء...

نظر الضيف غير المرغوب فيه حوله إلى أن سقطت نظرته إلى المائدة، وأضاف:

- أنت بالنسبة إلينا دمية خشبية.

- نحن جميعاً دمى أمام الله، وأِنتم لعنكم الله.

صرخ الرجل الملتحي، مسقطاً كل الدمى مع الصينية من المائدة:

- من المؤكد أنك دمية أمامي!

أمسك بتمثال فاطمة التي أنجبت على الثلج للتو، وقال:

- إذا أردنا، سنقطع رأسك أيضاً.

أخرج السكين من حزامه، وقطع رأس الدمية، وألقى بها.

«لماذا؟! لماذا أحرقوها حين ولدت للمرة الأولى، وقطعوا رأسها، حين ولدت للمرة الثانية؟.. مرتان. لماذا؟ ما هو الذنب الذي ارتكبه هذا الملاك حتى يواجه مثل هذه القسوة مرتين؟»، أشعلت هذه الأسئلة لهباً جهنمياً في قلبه، وفاقداً عقله، أمسك برقبةِ الرجل الملتحي. رأى فيه مصدراً لكل أشرار العالم. إذا لم يكن فيه الذي قطع رأس الطفلة، فأين هو؟ شعر ديني برغبة قوية في القضاء على ذلك المصدر. ربما كان سيحقق هدفه لولا الرجلين الملثمين الآخرين اللذين كانا يعبثان بالمنزل بحثاً عن نقود ومجوهرات لا وجود لها.

حين أمسكاه من يديه، خطرت على بال ديني فكرة: «لن يمر يوم، وهما يعتزمان أن يصبحا رجلين محترمين. أما الرجل الملتحي، فلا يخفي وجهه، ولا يهمه ماذا سيفكر الناس عنه أم أن لحيته مستعارة أيضاً؟

هذه هي مصيبتنا: ازدواجية الوجه والروح، أمام عينيك شخص، وخلف ظهرك آخر، ويقول شيئاً، ويفكر في شيء آخر».

لم يتمكن الرجلان من إبعاد يديه، بل سقط الجميع على الأرض، والرجل الملتحي أسفلهم، مما كان يسهل عملية خنقه.

- ماذا نفعل معه؟ إنه يقتله!

- إنني أعلم ماذا أفعل معه...

في تلك اللحظة، شعر ديني بلمسة برودة عند أذنه. «الله العظيم...»، كانت هذه آخر فكرته. النهاية: انقطع وعيه وبصره وسمعه...

بعد مرور وقت، سمع تغريد مختلف الطيور، مدركاً أنه ليس من عالم الأحياء: «إذن هو قتلني... ماذا حدث للزوجة والطفلة؟».

أخيراَ، عاد إليه البصر. بحيرات من لون السماء بين الجبال الصغيرة البيضاء. ووسطها يمتد طريق أخضر فاتح إلى الأفق الأبيض.

سمع صوتاً يقول:

- هذا طريقك. من الآن ستسير عليه. طريقك على الأرض انتهى.

فكر: «ماذا حدث لهما؟».

- انظر إلى الأسفل وسترى.

رأى مريم تحمل ابنتهما إسيت، وتنقر على باب أحمسلطة، يقتحم أحمسلطة وأبناؤه الأربعة المسلحون الفناء ويربطون اللصوص بالحبال، ثم يرى قريته الأم وجنازته، ويرى أمه وأشقاءه وشقيقاته، ومراسم دفن جثته. مقبرته في مكان جميل تسقط إليه أولى أشعة الشمس.

- لنذهب الآن...

يسمع هذا الصوت ويبدأ بالابتعاد عن الأرض.

يرى من ارتفاع النجوم الكوكب مغطى بالضباب. وسط هذا الظلام يرى ضوءاً في بعض المواقع.

- إذا ابتلع الظلام هذه الأضواء، ستسقط الأرض إلى الهاوية بلا زمان ولا مكان ولا حجم ولا عمر... لن يتبقى منها شيء حتى الذكريات.

- ما هو هذا الضوء؟ لماذا هذه الأنوار قليلة إلى هذا الحد؟

- هذا نور الناس الصادقين في صلواتهم أمام الله... هل تريد رؤية نورك؟ هل ترى ذلك الضوء الذي يشبه لهيب المشعل؟

- هذا؟..

- نعم، نعم... أعلم أن لديك قلباً... تقول إنك لم تتمكن من عبادة الله كما ينبغي... التماثيل التي كنت تقطعها من الخشب كانت بمثابة دعائك... فيها قلبك الطيب ورحمتك على الناس أقرباءً وغرباءً...

ينظر ديني مرة أخرى إلى الأرض المغطاة ببضع طبقات من الظلام والشبيهة بالكرة التي كانت الفتيات يلففنها بالأقمشة لصنع دمية. فجأة يتعرف على الأضواء التي تشتت الظلام قليلاً، وها هو مغنٍ مشرد، وآخر باحث يمجد

جمال الطبيعة، والثالث سيدة عجوز وحيدة تتوجه يومئذٍ إلى الله بدعائها من أجل طلب الرحمة على الأرض بأكملها، والرابع...

يسير على الطريق الأخضر الفاتح مروراً بالجبال البيضاء، ويتوقف أحياناً، ليشرب ماء من البرك ذات لون السماء. يمكن صنع تماثيل الناس والحيوانات من هذه الجبال البيضاء إن أراد... لن تشبه الدمى الخشبية التي صنعها على الأرض، بل سيكون لها صوتها ولونها ومشيتها. ولكنه لم يعد يشعر في أعماقه بحاجة إلى ذلك، وما بدا له مهماً على الأرض يفقد قيمته هنا. إنه فقط يريد أن يسير وسط الجبال البيضاء نحو الأفق المشرق، مفتقداً من بقوا على الأرض، ومتوجهاً إلى الله بدعائه لهم.

«أين أرواح أقربائي التي حضرت إلى هنا قبلي؟». بالتزامن مع هذه الفكرة تظهر فتاة أمامه. إنها طاهرة وبيضاء مثل الثلج في قمة باشلاما، وشعرها أصفر ذهبي. يبدو له أنه رآها من قبل.

- نعم، نعم، هذه أنا التي صنعت دميتها من الخشب، فاطمة التي احترقت في خاييباخ.

- لكن عمرك كان بضعة أيام فقط. أنتِ كبيرة هنا!

- نعم، هنا عمر الروح لا يتغير...

- وأين الباقون؟ والدي وأشقائي وشقيقاتي؟

- سر في هذا الطريق.

تختفي الفتاة.

إنه يواصل السير في الطريق الأخضر الفاتح...

نابيرا غيماتدينوفا

المستقبل

1

... سقطت تفاحة على رأسها. نحن لانزال في منتصف الصيف، ولكنها حمراء ويانعة! أرادت الفتاة أن تأكل التفاحة، ولكنها رمتها فجأة، وكأنها خافت من شيء ما. ما كان لتفاحة جيدة أن تنضج مبكراً. على الأرجح،لقد نمّاها الجن. ألا ترقد ليلى على هذه الأرض السيئة الآن؟! إنها أرادت أن تجلس وتستريح فحسب، ولكنها كادت أن تستغرق في النوم. إنها مجهدة. بعد نزولها من الحافلة، قطعت سبعة كيلومترات ماشية على قدميها. قريتها الواقعة على منحدر الجبل بدأت تتجلى أمامها. عندما تنظر، يبدو لك أنها قريبة، ولكن عليك قطع خمسة كيلومترات على الأقل. الحقائب ثقيلة. طالبة أمس والمدرسة الشابة اليوم اصطحبت معها كل شيء وحتى الملابس العتيقة. الفساتين التي كانت تذهب بها إلى المحاضرات، ستصلح للتدريس أيضاً، لاسيما في المدرسة الريفية.

لم تكن تتمنى العودة إلى توكرانباش رغم أنها قريتها الأم! وجد الطلاب من أصحاب المحسوبية عملاً في قازان. أحدهم وجد عملاً في وزارة الثقافة، وآخر في شركة أجنبية... لكن والد ليلى هو سائق بسيط. ومع ذلك، كان بإمكانها، إن رغبت بقوة، إن تبقى في العاصمة. حيث تعمل في العديد من المتاجر مثل «بيرخيتا» فتيات كثيرات تخرجن في نفس المعهد. بعضهن يعملن في غسل الأرض، وأخريات يفرزن الفواكه. إن من تدين بولاء خاص لصاحب المتجر، تبيع سلاطات فاسدة بعد إضافة مختلف المواد الكيميائية إليها حتى تبدو طازجة. لكن ليلى الحاصلة على شهادة التعليم العالي لم تكن ترغب في أن تصبح من عبيد المتاجر. ولكنها في الوقت نفسه لم تكن ترغب في العودة إلى توكرانباش... يقال إنه قريباً لن يكون هناك أي فارق بين الحضر والريف، وستصل الحضارة إلى القرى. انتظري! الحياة في هذه القرية مملة جداً ولا وجه لمقارنتها مع المدينة.

شعرت الفتاة بالدوخة، وكان عليها أن تصعد وتواصل السير. منذ زمن طويل يبتعد القوم عن هذا المكان. أشياء غريبة تحدث في حديقة التفاح المهجورة هذه. تسقط أشجار في إحدى المرات، وكأن شخصاً يقتلعها من الأرض بجذورها، ومرة يصبح العشب، وكأن أحداً ما قد حصده. ذات يوم كانت توكرانباش شهيرة بحديقة التفاح التي يحرسها ثلاثة حراس أصابهم الخبل جميعاً. كانت القرية كلها تضحك على أقوال عبد الرحمن آبي: «تسطع السماء ليلاً!». طرده مدير المزرعة آنذاك، قائلاً: «أفرطت في شرب الكحول وتتجول هنا!». لم يكن ميناب آبي يشرب، ولكنه تأثر بهذه الحديقة أيضاً. بعد شكاواه بأن هناك شخصاً يتجول في الظلام ويهز الأشجار حتى يتساقط التفاح، اتهمه المدير بالسرقة: «أنت الذي تتجول وتبيع أكياس التفاح إلى القرى المجاورة!».

أما الحارس الثالث، وهو الشاب زينات، فحضر ذات مرة إلى منزله، وهو يصرخ: «في ضوء القمر، نزلت حبال من السماء، وبدأت تربطني حول خصري لتشدني إلى الأعلى. خرجت من عقدتها بصعوبة، وهربت بسرعة!».

جدة ليلى التي ناهزت الـ90 من العمر، كانت تقول إنه كانت هناك مقبرة في هذا الموقع قبل زمن طويل... لكن منذ ذلك الزمن، كان يجب أن تتحول عظام الموتى إلى تراب. تجلس ليلى هنا منذ أكثر من نصف ساعة، ولم يمسها أي جن. ماذا يعني أن أشجار التفاح تحمر وسط الصيف! على الأرجح، إنها تستوعب نور الشمس بغزارة. تريد مرة أخرى أن تتثاءب، وكاد الفم أن ينفتح. كانت تتمنى أن تنام... لكن حان الوقت لكي تقوم...

... استيقظت لسماع صوت أنفاس. يقف بجوارها حوالي عشرة أشخاص وجوههم بيضاء، وتنظر 20 عيناً إليها بدهشة واهتمام! الجن في شكل البشر!

بدأت الفتاة تقرأ الدعاء بصوتٍ عالٍ أشبه بالصراخ: «بسم الله الرحمن الرحيم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم». الشكر للجدة التي كانت تقول لحفيدتها: «احفظي، احفظي!».

ابتسم «الجن»، وبدأوا يتحدثون بلغة مجهولة، مقاطعين بعضهم البعض.

قالت ليلى: «سيؤثر دعائي عليكم الآن». وواصلت الدعاء.

لكن «الجن» لم يختفوا ولم يتشتتوا مثل الضباب، بل ارتفع صوتهم، متراجعين قليلاً إلى الخلف.

كانت الفتاة راقدة على سطح صلب مثل الخشب... وحولها حديقة التفاح و... غرفة كبيرة ذات جدران وسقف باللون الأبيض. في تلك اللحظة، افتتح محراب يشبه الباب، وخرج منه شاب، واقترب من ليلى ووقف بجوارها. بدأ يسألها شيئاً، ولكنها لم تكن تفهم لغته. إنه غبي! العالم أجمع يتحدث الإنجليزية. إلا أن الفتاة التتارية العادية لم تكن تتحدث الإنجليزية بطلاقة.

لم ينتبه الشاب إلى جملتها باللغة الإنجليزية. حينئذٍ اختبرت قدراتها في اللغة العربية، ونطقت بجملتين بالروسية. كان قلبها ينبض، وكأنه على وشك الانفجار. أين هي؟ كانت ترقد تحت شجرة التفاح. على الأرجح هي تحلم وتفقد عقلها تدريجياً. إنه حلم، والله حلم!

قالت لنفسها:

- استيقظي يا مجنونة، استيقظي!

لم تستيقظ، لأنها لم تكن نائمة. الشاب الذي كان ينظر إليها بحزن، انتعش فجأة: - إذن أنت تتارية!

وأشار إلى الآخرين حتى يغادروا.

- أين أنا؟

سُمع صدى في الغرفة.

- أنت في مكان قريب من حدود العالم الفائق -مد الشاب يده- لنتعارف. إنا إلتان. متخصص في مختلف العصور.

جلست ليلى.

- كفاك مزاحاً يا خبير الأنفاس! من أحضرني إلى مصحة الأمراض العقلية هذه؟

كانت قرية توكرانباش تقع بالقرب من سامارا. على الأرجح، جعلوا الفتاة النائمة تستنشق شيئاً، ثم أحضروها إلى هنا حتى يسخروا منها. إنها نكتة حمقاء وقاسية.

خدش الشاب جبهته، وكأنه يحاول ترتيب أفكاره.

- اعذريني يا حسناء. فقد أحضرك معاوني عن طريق الخطأ.

- إذن صحح الخطأ سريعاً! يبدو أنك من الأطباء الذين يجرون اختبارات على البشر وتكتب رسالة دكتوراه. إنني بحالة صحية جيدة وعقلي سليم، هل فهمت؟!

تنفس إلتان بعمق.

- اعذريني أيتها الحسناء. لن يتسنى تدارك هذا الخطأ سريعاً، إذ ذهب المعاونون إلى رحلة جديدة.

- ادعُ كبير الأطباء!

انفجرت ليلى غضباً إلى حد أنها ضربت البلاط بقدمها، ويبدو أنها أصابت كعبها، حيث شعرت بألم حاد في ساقها.

لمس إلتان يدها، ولم يكن يشبه طبيباً ماكراً، وكانت عيناه صادقتين، وأضاف: - أنت موجودة حقاً في العالم الفائق. سعى الإنسان طويلاً أن يعيش حتى ذلك الزمن، وأخيراً تحققت أمنيته. فقد حضرت إلى هنا، ولكن...

- ولكن ماذا؟! هل كلانا من رواد مستشفى الأمراض العقلية؟

- لا يا حسناء، أنت على حريتك، ولكنك انتقلت 70 عاماً عبر الزمن بواسطة جهازي.

انفجرت الفتاة ضحكاً.

- كان عمري للتو 21 عاماً. إذا أضفنا إليها 70 عاماً، بهذا يعني أنني سيدة عجوز! أين أحفادي؟

- عمرك لم يتغير.

- أغلق كتاب الحكايات يا أصلع. إنهم ينتظرونني في القرية. كنت أعتزم تدريس اللغتين التتارية والإنجليزية للأطفال في المدرسة. بعون الله سأهرب من توكرانباش بعد نصف عام. لا تتوافر هناك حتى اتصالات الجوال. يقال إن البرج بعيد. هناك قفل على باب الملهى، ولا تقام حفلات رقص حتى في الأحلام. اسمع يا أصلع، إنني لم آكل شيئاً اليوم. لدي 500 روبل، هل ستأكل معي ونتناول الدجاج والبطاطا في أي مطعم؟ - شدت ليلى كم إلتان المرتبك - سأضيّفك! سنتناول الشاي الأخضر بمناسبة حصولي على شهادة.

إذا لم يكن ذلك مصحة للأمراض العقلية حقاً، فكان على الشاب أن يوافق على هذا الاقتراح.

أخرج صامتاً قطعة بشكل دائرة، وكان يرتدي مثلها في رسغه.

- هذا سوار إلكتروني يا ليلى. ستحتاجين إليه للتواصل.

- مع من يا غبي؟! إنني أتواصل بشكل ممتاز دون أي سوار باللغات الإنجليزية والروسية والتتارية.

- يحتوي هذا السوار على المترجم إلى اللغة التتارية. صنعته لجدتي.

- هل أنت أصم يا أصلع؟ أنا أتحدث بثلاث لغات.

توجهت الفتاة مسرعة إلى الباب.

- أنا جائعة جداً!

ربما نمت نوماً عميقاً، مستندة إلى شجرة التفاح؟

فتح الباب الحديدي. لولا مساعدة إلتان، لما تمكنت ليلى حتى من فتحه قليلاً. تسببت رائحة شنيعة في استثارة الضيق في عينيها وأنفها وحنجرتها. نظرت ليلى حولها، وبدأت تعطس. لم تتمكن من قول أي شيء للشاب بسبب ضجيج الشارع، وبدا لها أن الكلمات لا تريد أن تخرج من فمها. استقامت الفتاة بصعوبة، خدشت عينيها، ونظرت إلى الأمام. هل هذا عرض الأضواء؟ هناك فيضان من السيارات في الشارع! ولكنه لا يستعجل أحد، ويتحركون بسرعة لا تزيد على سرعة المشاة. وفوق...

بعد رؤيتها العديد من الأجهزة الحديدية الطائرة فوقها، كادت ليلى أن تسقط من المفاجأة. كان عددها أكبر من عدد السيارات، وكانت تسير في كل الاتجاهات، مغطية ضوء الشمس.

صرخ الشاب في أذنها: - يا ليلى، يا ليلى! لا يمكننا البقاء في الشارع طويلاً، وإلا سنتسمم.

وكأنها نهاية العالم! هكذا كانت تصفها جدتها!!!

قاد إلتان الفتاة مرة أخرى إلى داخل المبنى. كان هناك باب آخر في جدار الغرفة البيضاء. مرا بفضاء يشبه مصنعاً كبيراً.

قال الشاب:

- هذا مركز بحوث خاص بي. إنني مصمم أيضاً.

كان هناك ظلام أمام عيني ليلى، ودون أن تدرك شيئاً، سارت خلف إلتان. صعدا درجاً دائرياً، وخرجا إلى سطح مستو، وكان وسطه جهاز طائر ذو مقعدين من دون أجنحة.

- اجلسي بشكل مريح. اربطي الحزام. لنذهب إلى مكان ما.

قالت ليلى بصعوبة: - يصعب علي التنفس، إنني أختنق.

أعطاها إلتان شيئاً يشبه مشبكاً لنشر الغسيل.

- هناك أوكسجين كافٍ لك، وسنملأه في محطة ما.

أثارت جرعة صغيرة من الأوكسيجين أملاً فيها. يبدو أنه يمكن النجاة من نهاية العالم...

صعد الجهاز الطائر إلى سحابة كثيفة من الدخان والغاز والضباب، وكانت تتحرك حوله آلاف الأجهزة الأخرى، ولامس أحدها جهازهما، ولكن إلتان دفعه بجهازه، فابتعد مسرعاً.

صرحت ليلى:

- لماذا ضربته بهذا الشكل؟! كاد أن يسقط!

- إذا سقط، لكان هذا الأفضل! كلما قل البشر، ازداد الأوكسجين.

لم يعرف إلتان الرحمة، وكان وسط هذه الحركة المثيرة للدوخة مثل السمكة في المياه، وكان يتخطى الآخرين الذين كانوا يشتمونه طوال الوقت وحتى رفع قبضة أحد. شحب وجه الفتاة من الخوف، وأمسكت ساعد الشاب، ولكنها خجلت وسحبتها. لم تكن تريد الظهور، وكأنها مرتعبة...

هبطت الطائرة. دخل الشاب والفتاة إلى المبنى الذي كان بابه مزيناً بإعلان غير مفهوم.

- لماذا تصطحبني إلى هذه الأماكن الغريبة يا خبير العصور؟ أين المطعم؟

بدأت ليلى تعبر عن غضبها، ولكن إلتان اصطحبها إلى عمود معدني ضيق يشبه جهاز لعب القمار. كان العمود مزيناً بأزرار مختلفة الألوان.

- يا أختي! يبدو أنك طلبت البطاطا بالدجاج. اطلبي، إنه مستعد لتنفيذ كل طلباتك!

نظرت ليلى حولها مرتبكة. إذا كان ذلك مطعماً، فلماذا ليست هنا حتى رائحة الطعام؟

قرب إلتان سواره من الجهاز، وسقطت أربعة مربعات إلى قطعة تشبه صينية...

بنبرة من الفخر، وكأنه أدى أهم مهمة على الأرض، قال الشاب: - ها هو الدجاج، وها هي البطاطا. هل سنأكل واقفين؟ هل سنأكله بارداً أم نضعه في الماء؟

أمسكت الفتاة بالمربعات في يدها، وكانت تعرف هذا «الاختراع» الذي ملأ الأسواق في فترة من الفترات. إلا أنها سرعان ما تسببت في أمراض الجهاز الهضمي للناس.

دخل حشد من الشباب، ووقفوا في طابور أمام الجهاز، وكانوا يتحدثون بلغة غير مفهومة.

سألت ليلى:

- هل هؤلاء سياح أجانب؟

لا، إنهم تابعون لنا.

أظهر الشاب شيئاً. يبدو أنه كان يعرفهم. رحب بهم، واحتضنهم، وربتوا على أكتاف بعضهم البعض. لم يتحدث إلتان طويلاً مع أصدقائه، إذ كانت ليلى وحدها. طلب المياه من العمود الحديدي، واقترح على الفتاة أن تأكل جالسة.

الكراسي الزجاجية أمام المائدة، كانت باردة. لماذا لم يصنعوها من الخشب؟ الخشب دافئ وجميل.

- هل تعاني النقص في المال يا إلتان؟

كان الشاب يبلل المكعبات في الكوب، ونقر السوار بأصبعه.

- لا، لدي ما يكفي من المال، وتم تحويله لي أمس. تبذل الدولة جهداً حتى تكون الأوضاع المادية للخبراء والعلماء الشباب جيدة. عليك فقط ألا تكون كسولاً وأن تأتي بالنفع إلى المجتمع.

- إذا لم تكن لديك مشكلات مالية، ربما تضيّفني في مطعم أو مقهى ما؟ كنت أتمنى أن أتناول البطاطا وعظام الدجاج. بالطبع، هم لن يقدموا الدجاج من القرية، ولكنني سأكون راضية بساق دجاج مجمد الآن. وإذا أعطوني خبزاً وزبدة وشاياً والحلوى، فإنني لن أحلم بالمزيد!

- عذراً يا ليلى. نحن لا نربي الدجاج. يتوافر في عالمنا الفائق كل ما كان يتغذى به الناس سابقاً، ولكن المأكولات اصطناعية.

نظرت الفتاة إلى السائل في الكوب بتأفف: - وهل تسمون هذا السم دجاجاً؟! كيف تتحمل معداتكم ذلك... وهل الخبز اصطناعي أيضاً؟

- لم تعد لدينا زراعة منذ نصف قرن يا ليلى، وكرست بحثين علميين لهذا الموضوع. خلال الاجتماع تحدثت لمدة ساعتين عما كان عليه الوضع سابقاً، وكنت أثبت أنها كانت موجودة. لكن الشباب لم يفهموا ذلك. كيف يمكن أن ينمو الخبز من الأرض، ويتجول الدجاج على العشب ويقرقر، وأن يعطي البقر حليباً؟.. هناك حتى من سخروا مني وأطلقوا علي اسم العالم المجنون.

- هذه حقيقة! أنت شاب مجنون! لماذا تثبت وجود ما هو موجود؟! على سبيل المثال، هناك حقول تمتد لهكتارات في توكرانباش، وهي مزروعة بالقمح والجاودار والشعير... هناك قطيع كبير من البقر في الحقول! والدتي وحدها لديها نحو مائة دجاجة وإوزة وبطة. يجري الزرع والحصد والطحن...

مسح إلتان العرق من الجبهة، قائلاً: - عندكم، عندكم... حدث ذلك قبل نحو 70 عاماً، حين تخلت البشرية عن الحياة الطبيعية، بل كانت تسعى للتحضر، فلم تعد تزرع الحقول، وكانت تستغل وتلوث الطبيعة دون النظر إلى التداعيات.

أرغمت ليلى نفسها حتى تتناول المشروب ولا تموت من الجوع. إنه ليس لذيذاً!

سعد إلتان، لأنه كان قلقاً على حياتها، على ما يبدو، وقال: - إنه مشبع جداً، أليس كذلك؟ الآن حتى إذا لم تأكلي لمدة 24 ساعة، فإنك لن تشعري بالجوع.

- إذا كنت درست الزراعة، فاطلب من حكومتكم أن يزرعوا القمح في الحقول ويراعوا المواشي في الحقول. الأكل الأهم في القرية هو البطاطا، فليزرعوا عدة أصناف منها! اثبت أن الطعام الطبيعي أكثر فائدة على جسم الإنسان.

- كان يتم إنتاج «الذهب الأسود» في الأراضي المهجورة... وأضراره أكبر من فوائده. كم من الأرض أفسدوها للعيش في الرفاهية لبضع سنوات! أصبحت الأنهار والترع قذرة، وفي نهاية الأمر أصبح الماء مملحاً. الأرض العقيمة للحضارة الحديثة مثل شعر نساء محروق بالكيماويات ومختلف الدهانات.

ضوء أصفر اشتعل على رسغ الشاب، فقال: - عندي اجتماع. انتظري، كنت أود أن ألبسه لكِ.

دون طلب إذن منها، وضع سواراً ضيقاً ذهبي اللون على يد ليلى، مضيفاً: - إذا ضغطت على الزر الأحمر، ستتواصلين معي. تجولي في المدينة، وإذا شعرت بالتعب، ناديني. سأجدك أينما كنت. على الأرجح، سيستمر الاجتماع لساعتين أو ثلاث.

على الرغم من استعجاله، لم ينس إلتان أن يطمئن لتوافر احتياطي كافٍ من الأوكسجين.

- لا يزال كافياً، وإذا تدهورت حالتك، ادخلي إلى أي مبنى. يتم ملء المباني بالأوكسجين طوال الوقت.

مضت ليلى في الشارع، وكانت أذناها تتحملان هذا الضجيج بصعوبة. على الأرجح، كان من الأفضل لها الجلوس في أي حديقة والانتظار لحين انتهاء إلتان من أشغاله. ولكن لم تكن هناك أية شجرة حولها، وكانت المدينة جرداء تماماً.

وفي أوقات كثيرة، كانت عيناها تدمعان بسبب سحابة الدخان. ألن تتراءى أمامها دائرة من الزهور؟ ولكنها لم تجد أي عشب حتى الآن. بعد تعبها من ضجيج السيارات والطائرات، توجهت الفتاة إلى مبنى يشبه متجراً، وكانت تباع فيه أجهزة صغيرة بحجم الكف، معروضة في الواجهة. بمجرد اقتراب الفتاة من المدخل، انفتحت الأبواب الحديدية، وكأنها تدعوها للدخول. يمكن التمتع هنا باختيار السلع وقضاء الوقت في المساومات مع البائع. ثم سيكون اجتماع إلتان قد انتهى.

ظهر أمامها فجأة روبوت لامع ذو وجه يشبه طبقاً حديدياً على غرار ما كان يتم عرضه في أفلام الخيال سابقاً. لم تفهم أية كلمة من كلمات الروبوت الذي عرض عليها عدداً كبيراً من الأجهزة. ظنت ليلى أنها آلات تصوير، لأن «البائع» التقطها عدة مرات. إلا أن الصور بدت غريبة. من هي المرأة في منتصف العمر بالصورة الثانية والسيدة العجوز بالصورة الثالثة؟ إنهما تشبهانها إلى حد ما...

تعبت الفتاة من التواصل مع البائع الحديدي المزعج، وخرجت إلى الشارع مرة أخرى. كفاه اجتماعات! ضغطت بأصبعها على الزر الأحمر. أها، إنه أضيء!

قال السوار:

- سأحضر الآن. انتظري.

... هبط الطبق الطائر أمامها تماماً.

- تباع هنا أفضل مجموعات الصور. ترين نفسك في الوقت الحاضر، ثم في عمر النضج، وبعدها في الشيخوخة.

- من يستطيع أن يراني في الشيخوخة الآن!

- إنها صور ينتجها الحاسوب بناء على صورتك الحالية، وهو لا يخطئ.

- في جميع الأحوال هذا لا يهمني.

- هل تعبت؟

- نعم، على ما يبدو. ألا يفكر عندكم أحد في تشجير المدينة؟

- جفت كل الأشجار من جذورها إلى أوراقها منذ سنوات طويلة. إسود العشب وتحول إلى الغبار. فقد تعودنا على هذا الوضع، وهو لا يزعجنا كثيراً.

- أغبياء! من يقتل الطبيعة؟!

- كان يجب دق ناقوس الخطر قبل 70 عاماً، حين كان يتم قطع أشجار غابات كاملة! لم يرث عالمنا الفائق منكم شجرة بتولا واحدة.

- دعنا لا نتشاجر يا خبير. إنك تتناول القضية من نقطة بعيدة.

- أبحث عن نقطة نبدأ منها. لنموّن احتياطي الأوكسجين.

... ثمة رجلان في الطابور يتحدثان، متناسين كل شيء في العالم.

دفعت ليلى إلتان في جنبه: - أي زر على السوار يترجم إلى التتارية؟ الأخضر؟ شكراً!

قال الرجل الأول: - لم يبق أي ضمير لدى هذه الدولة، وبات سعر الأوكسجين يزداد أكثر فأكثر.

ورد عليه الثاني، قائلاً: - كفاك، ألا تعلم أن هذه المحطات أصبحت خاصة منذ فترة طويلة، وهؤلاء الأثرياء يرفعون الأسعار، وكل الأموال تذهب إلى جيوبهم. أما الأشخاص أمثالنا، فلن يعيشوا طويلاً، لأننا نستنشق هواء مسموماً.

وواصل الأول:

- لا تخش، فإنك لن تموت طالما تستنشق الأوكسجين.

- نعم، أنفق أموالي عليه، وبسبب ذلك أصبح نصيبي من الأكل لمدة أسبوع هو جرعة من الدجاج مقسمة إلى سبعة أجزاء.

قسمت الفتاة في ذهنها مكعب الدجاج إلى سبعة أجزاء. هذا قليل جداً مثل قطعة صغيرة من الخبز ليوم كامل! كيف ظل على قيد الحياة حتى الآن؟

- وطائرتي قديمة مستعملة من السوق. أخشى أن تتفكك في الهواء...

- كفاك شكوى، ابق رجلاً.

ضغطت ليلى المنزعجة على الزر الأخضر مرة أخرى، ولم تعد تفهمهما...

2

بدت شقة إلتان متواضعة إلى حد كبير. معمل علمي حقيقي: كانت الغرفة مليئة بالأجهزة والصناديق، ولا يوجد سرير مريح، وهناك قماش اصطناعي بدلاً من البطانية. ما أنعم النوم على الوسائد المعبأة بالريش!

أشفقت ليلى على الشاب الأعزب، وسألت: - لماذا لا تتزوج يا إلتان؟ إنك بحاجة إلى عناية المرأة.

- لم يعد لدينا تقليد الزواج.

- نعم، العادات السلبية تترسخ بسرعة... لدينا مثل هؤلاء الشباب أيضاً ويعيشون من دون التسجيل بالأحوال المدنية.

- وصل هذا الصدى إلينا أيضاً. منذ 20 عاماً، لم يعد الشباب والشابات يكونون الأسر.

- وكيف يتم إنجاب الأطفال؟

- في أنابيب خاصة، وتتم تربيتهم في مؤسسات منفصلة، ولا يعلم الأطفال من هم آباؤهم. وبشكل عام، لم تعد لدى حضارتنا الفائقة مثل هذه المفاهيم. الدولة تتحمل المسؤولية عن الأطفال.

- إنه أمر غريب! وأنت أيضاً... إنسان اصطناعي؟

احمرَّ وجه إلتان.

- لا، تربيت في أسرة. كان والداي خبيرين في اللغات، ولقيا مصرعهما في حادث مؤسف. بقيت مع جدتي، حين كنت في الثالثة من العمر. تخرجت والدتها في مدرسة «زوريني». تولت هاتان الجدتان تربيتي كتتاري حقيقي.

- وما هي قوميتكم الآن؟ الروس أم التتار أم الأتراك أم اليابانيون؟

- لسنا أياً منهم. الحضارة الفائقة هي أمة ولغة جديدتان.

شعرت ليلى بالصداع من كل هذا العبث، فجمعت شتات الخبز من المائدة، وتوجهت إلى الشرفة.

أوقفها الشاب:

- ماذا تفعلين يا ليلى؟

سألقي بها إلى الأرض في الشرفة حتى تأكلها الطيور.

- لم تعد لدينا أي طيور منذ فترة طويلة.

- يا الله! إنني لا أصدق ذلك! ألم يعد هناك غراب أو بلبل واحد؟

- صدقيني يا ليلى. أصبحت هناك طيور أخرى تحلق في السماء، وهي أطباق حديدية. يا ليلى، تم استدعاء جميع العلماء إلى اجتماع عاجل، ويجب علي ان أغادر. أي عمل أجده لك حتى لا تشعري بالملل؟

- أعطني الجرائد والمجلات. وإذا لم أفهم ما هو مكتوب فيها، سأشاهد الصور.

- أي صحافة تهتمين بها؟

- مجلة «إديل».

انتعشت ليلى. إذا كان يسأل «أي»، فهذا يعني أن عندهم إصدارات مختلفة.

- «إديل»، «إديل»... هل هي مجلة ممتعة؟

- ماذا تسأل؟ يمكنهم أن يضربوك بالعصا ويسقطوك من الكنبة. ستهيم في عالم الأسرار...

- لم تعد لدينا مجلات ورقية يا ليلى.

- على الإطلاق، كيف؟ حتى «إديل»؟

- ليس لنا ذنب في ذلك يا ليلى. أنتم من فرطتم في إصداراتكم القومية. لو وقفتم للدفاع عن ثقافتكم القومية، لكانت وصلت إلينا. لا يجوز الذهاب إلى المستقبل بصندوق فارغ يا حسناء! هذه «الأذن» تسمع آلاف الأخبار المختلفة.

- لقد تشبعت بأخباركم أيها الخبير. اذهب دون أن تسأل شيئاً.

لكن إلتان على حق. كيف يمكن رؤية الكتب والمجلات على أرفه؟..

... لم يعد الشاب سوى في المساء، وكانت هيئته تنم عن القلق الشديد. على الأرجح إنه يفكر في كيفية التخلص من ليلى، لكونها تحتاج الى الغذاء والأوكسجين...

سألت الفتاة:

- ماذا حدث؟

- لقد قلت إنك مشبعة بالأخبار.

- لا تغضب. بم ستدهشني هذه المرة؟

- قررت الدولة إغلاق «بيت القوميات»، يقال إنه مكلف جداً. إلا أن إغلاقه سيعني محو التاريخ!

- أي قوميات هذه؟ فقد قلت إنكم الآن قومية واحدة وتتحدثون لغة واحدة؟ أم أن هذا سر من أسرار الدولة؟

- كان من الأفضل ألا يفكر الناس في ذلك، وإلا ستبدأ الرؤوس الساخنة من التحقق من قوميات الناس وأسلافهم، وسيثيرون ضجة. قبل 50 عاماً، اختارت الحضارة ممثلاً واحداً لكل قومية منقرضة، وجمعتهم في بيت واحد، وخلقت لهم كافة الظروف للحياة. إنهم يتقنون لغتنا ولغاتهم القومية على حد سواء. يتم استخدام أحدث وأغلى التكنولوجيا لمد أعمارهم، فباتوا في الـ112 من العمر.

- هذه فعلاً قصة مثيرة! لماذا تقلق أنت على مصير هذه القطع المتحفية؟

رد إلتان بمرارة: - من بينهم الممثلة الوحيدة للتتار، وهي جدتي. أتمنى أن تبقى على قيد الحياة.

- اعذرني يا إلتان، اعذرني على الصراحة. ماذا يعني الممثلة الوحيدة؟ ألستَ تتارياً؟

- وماذا بعد؟ مع من سأتحدث؟ أتحدث مع جدتي ثلاث ساعات يومياً. تموت اللغة إذا لم يتحدث بها أحد. فقد كنتم تخجلون من لغتكم، ولم ترسلوا أبناءكم إلى المدارس القومية... فقد استأصلتم اللغة، فتلاشت اليوم.

صرخت الفتاة بنبرة من الغضب: - بالطبع، نحن من يلقى عليهم اللوم.

إلا أنها هدأت بسرعة، لأنها رأت أن إلتان قلق فعلاً. لا قدر الله أن تكون في مثل هذا الوضع. إذا فكرت، فهذا مرعب حقاً.

- عرفني على جدتك يا إلتان.

- ممنوع دخول غير الأقرباء عليها يا ليلى. لكن يمكنني إدخالك خلسة. اعطني يدك!

أغلق الشاب سوارها حتى لا يرصدهما الروبوت الحارس.

- سأخلعه.

وضعت ليلى السوار في جيبها، وكانت مشفقة على إلتان حتى الدموع. كان عليك يا شاب ألا تيأس! لو تزوجت من أية فتاة جميلة، لكانت أنجبت لك أطفالاً تتاريين... لا يتزوجون في هذا العالم الفائق. هذا أمر شخصي يخص كل فرد. أنت ماهرة يا ليلى! كيف يمكن لخبيرة شابة أن تقف في وجه الدولة؟.. تعلمين أنه يتم إغلاق المدارس القومية وتعليق أقفال على أبوابها، لأن عدد التلاميذ قليل. يغلقها التتار أنفسهم، متناسين فخرهم القومي. لماذا لا يعترض أحد ولا يخرج إلى الميدان للمطالبة بأن يتعلم أبناؤهم بلغتهم الأم؟

.. كان «بيت القوميات» مبنى بشكل عش الغراب يستند إلى ساق قصيرة، وكان مغطى بالزجاج الأزرق.

أوقفها الشاب أمام الشرفة، قائلاً: - يا ليلى.. تذكري أمرين: مري بالروبوتات ساكتة وبحذر كبير. وأثناء وجودك بجوار جدتي، ابقي صامتة، ولا تنطقي أية كلمة.

- كيف لا أنطق أية كلمة؟!

- هكذا يا ليلى. يجب ألَّا تعرف من أنت ومن أين. قد لا يتحمل قلبها مثل هذه الصدمة.

لم تصر الفتاة على رأيها، فهي مجرد ضيفة في هذا العالم. بعد مرورها بالروبوت الحارس، دخلا إلى غرفة ما، حيث ارتديا قناعين ووزرتين من اللون الأبيض. ثم وضع الشاب عليها نوعاً من الهباء الجوي حتى لا تتسلل الجراثيم إلى «بيت القوميات»، على ما يبدو. كانت هناك غرف على جانبي الطرقة مثلما هو حال المدن الجامعية. وضع إلتان سواره في قفل الباب الرمادي. كانت الجدة جالسة على الأريكة، ومغلقة عينيها، وهي تغني أغنية ما.

يا أيتها اللغة المغنية،

يا حديث الوالدين! [8]

لم تكن الجدة مجرد سيدة عجوز، وإنما هيكلاً عظمياً مغطى بالجلد. كان هناك شعور بالحزن في صوتها.

- يا بني، لم يسمحوا لي اليوم بمقابلة ماريا... ألا تعرف ما السبب؟ هل تتذكر العمة ماريا؟ إنها روسية من سانت بطرسبورغ.

لم تنتبه الجدة إلى ليلى، فعلى الأرجح ظنت أنها تعمل هنا.

- كنت أشاركها أكبر الأسرار يا بني. كانت تغني أغاني مثل «يا صقيع، يا صقيع، لا تجمدني...». إننا نحنّ لأيام شبابنا. أتذكر الحقول، حيث كان والدي يجز العشب، والخبز الذي كانت تخبزه والدتي، ودراستي في المدرسة... تتذكر ماريا كيف كانت تسبح مع زوجها في بركة بجوار الطاحونة.

داعب إلتان كتف الجدة.

- هكذا الذاكرة الإنسانية يا جدة.

- المسنون لهم طرقاتهم الخاصة التي تؤدي إلى العالم الآخر. لماذا لا تتركوننا نغادر إلى هناك يا بني؟ لماذا تتركوننا نعيش ونعاني؟ بدا أنه حتى الجدران تطرح هذا السؤال هنا.

طأطأ إلتان رأسه، واحتضن جدته: - يا جدتي، سنلتقي مرة أخرى في المساء، حسناً؟

اصطدمت ليلى بما رأته: «يا الله، امنح الصبر لهذه السيدة العجوز!».

كانت عينا إلتان مليئتين بالمعاناة إلى حد أنها لم تتجرأ على أن تقول له شيئاً، كما أنه لم يكن بحاجة إلى نصائحها. جدتها فاطمة التي تجاوزت الـ90 من العمر، كانت حية ولكن عاجزة عن الحركة، تردد دائماً: «حان وقت المغادرة». وكأن أحداً ينتظرها هناك بفارغ الصبر! ومع أنه لا يحبسها في البيت أحد، بل تطعم الدجاج في الفناء صيفاً، وتنظف الثلوج شتاء. لكن جدة إلتان المسكينة تعيش، وكأنها في السجن... بالطبع، حياتها عذاب. لكن الشاب لا يدرك ذلك، على ما يبدو. أو ربما يدرك. وإلا ما كان له أن يقلق بهذا الشكل على الناس العاديين والتاريخ واللغة الأم، بل كان سيفتخر باكتشافاته.

توجه الجهاز الطائر إلى المعمل.

قال إلتان:

- سأكتب تقريراً بأنني أرفض إغلاق «بيت القوميات»، وأنت استريحي في ذلك الوقت.

رقدت ليلى، وسألت، وهي على وشك أن تبكي: - متى سأعود إلى عالمي؟

- قريباً يا ليلى، قريباً!

- لنتوجه إلى هناك معاً يا إلتان! إنه جيد مثل الحكاية! هناك عصافير تغني، وترع تسيل، وفراشات تطير من زهرة إلى أخرى. وكل شيء طبيعي لا اصطناعي: الخبز والبطاطا والفواكه. الهواء النقي مجاناً، ويمكن التنفس من دون قيود بما تتسع له الرئتان. وتحدث بالتتارية كما تشاء مع الأصدقاء والأقرباء.

ابتسم الشاب بحزن.

- هذا ماضٍ يا ليلى. لم أكن قد ولدت في ذلك الوقت. وحتى إذا كنت ولدت، لما استطعت العودة. على المرء أن يخطو إلى الأمام.

شغل جهازاً ما يشبه التلفزيون، جلس مديراً ظهره إلى ليلى، وصار يعد التقرير... لديك هدف يا إلتان. أنت وحيد ومنعزل، ولكن لا تزال عندك قوة للكفاح من أجل ما تبقى من حطام شعبك. أنت ستنتصر! يا ليت كان لدى ليلى مثل هذا الحبيب! كان هناك شباب وسيمون كثيرون، ولكنهم لا يفكرون سوى بالسيارات والكحول والفتيات. لم يهتموا بمصير شعبهم ولغتهم الأم!..

شعرت ليلى بألم في قلبها. ستعانق إلتان بعشق... حقاً، بعشق! لكن بمجرد أن أرادت الفتاة أن تنهض، شعرت بالضعف في يديها وساقيها... شعرت بالدفء والنعومة، وكأن أحداً غطاها ببطانية معبأة بالريش. أرادت أن تنام... انتظر أيها النوم الخائن! إلتان... لا تتركني!..

... شعرت ليلى برائحة أشجار التفاح! فتحت عينيها، مدركة أنها بقيت نائمة تحت شجرة التفاح. أين العالم الفائق والأطباق الطائرة؟ أين إلتان؟ يعني أن ذلك كان مجرد حلم! الشمس الساطعة تبتسم، والطيور تغني... يقال إنه حين تنام في مكان سيئ، فقد ترى أحلاماً غريبة. بدا الحلم حقيقياً. يا الله، أرجو ألا تأتيني مثل هذه الأشياء المرعبة حتى في المنام. ليعش الشاب، ولتكن هناك بطاطا نجا من خنفساء كولورادو...

رفعت الفتاة حقيبتها الثقيلة، وانطلقت. الحمد لله أن كل ذلك كان مجرد حلم! خسارة فقط أن الشاب ليس حقيقياً...

على الأرجح، هذا صدى أحلامها! أم كتب لليلى أن تحب في المنام فقط؟ انحدرت الدموع من عينيها إشفاقاً على نفسها، وأخرجت من جيبها منديلاً لكي تمسحها. وبعد إخراجه اضطربت لرؤيتها سواراً ذهبياً ضيقاً في يدها...

فخر الدين غيريبسيس

شجرة الكرز

جمع حبيب، بستاني المدرسة، الأوراق الذهبية التي تساقطت خلال الليل. لقد أشرقت الشمس منذ وقت طويل، وهبت الرياح الخريفية. والسماء كثيفة وثقيلة، وكانت أكوام الأوراق منتشرة تحت الأشجار في كل مكان. كان حبيب يجمعها ويحرقها كل يوم.

في ركن هادئ بين مختلف أشجار حديقة المدرسة، كانت تنمو شجرة كرز شابة أصبحت خالية من الأوراق تقريباً.

كان الصباح الخريفي الرصاصي يسيطر على الوضع. سُمعت في فناء المدرسة صرخات الأطفال وضحكهم. عندما دق الجرس الأول، جلس حبيب إلى المصطبة البلوطية التي صنعها بنفسه تحت شجرة التفاح المتفرعة. أخرج بأصابعه من جيبه علبة سجائر «بريما»، وبدأ يدخن سيجارة. ونفث دخان السجائر من فمه، كان يتأمل شجرة الكرز التي زرعها يوم حفل زفاف نجله الوحيد إلغار.

كان الرجل العجوز يعلم مدى عنايته بالشجرة العزيزة. كان يجلب المياه من نهر بعيد صيفاً ويروي الشجرة. وكانت فروع الشجرة تنمو سريعاً، تاركة خلفها يوم حفل الزفاف.

على مدى أكثر من خمس سنوات، ظلت الفتاة الريفية المتواضعة تيلّي تحضر لحبيب مربى عقيق الكرز وحتى كانت تغسل له قدميه قبل النوم. كان راضياً بـ«تيلي». كان جسمها ذا بنية قوية، وكان شعرها بلون الكستناء، وكانت حسناء حقيقية. لكن في ركن قلبه وفي أعماق روحه، كان يكمن حزن مرير. لم ينجب الزوجان أطفالاً. في مرات كثيرة، حلم حبيب بأن يصبح جداً وحتى كان يختار اسماً لحفيده. وفي مرات عدة، حضر إليه فتى في المنام، وكان يقول:

- يا جدي، لنذهب إلى شجرة الكرز.

بعد ذلك، كان يزداد حزنه. وفي المساء، كانت زوجته ظريفة تؤنب الكنة بتلميحاتها. ولكن الرجل العجوز كان يمنع احتدام الشجار.

كان الزوجان يحب أحدهما الآخر. وكان حبيب مقتنعاً بأن ذلك هو الأهم، والباقي سيأتي.

بعد انتهائه من تدخين السيجارة، قام وتطلع حوله. لم يكن هناك أحد، بل سمعت أصوات بعيدة لإنشاد الأطفال في فصول المدارس.

فكر البستاني: «سأذهب إلى البيت حتى تجفف الشمس الأوراق». رفع آلة جمع الأوراق، وغادر فناء المدرسة.

وفي طريقه فكر مجدداً في شجرة الكرز. إنه أمر عجيب! الشجرة التي زرعها وبذل جهداً كبيراً لكي تنمو، لم تثمر يوماً. أصيب جسمه بالبرودة من هذه الفكرة، وغمرت رعشة مقلقة قلبه...

بعد إغلاقه البوابة، دخل إلى فنائه. أسند الآلة إلى السور، ودخل إلى البيت. لم يكن هناك أحد. كانت تيلي تعمل ضاربة على الآلة الكاتبة في الجمعية الزراعية. وكان إلغار يعمل في فرقة الجرارات. إلا أنه لم تمر خمس دقائق، إلا و ظهرت ظريفة في الفناء، وهي تقود الخراف. وكانت تشكو: «اللعنة عليها، فقد أتعبتني».

بعد دخولها إلى البيت، جلست على الأريكة حتى من دون أن تنظر إلى زوجها.

سأل حبيب أخيراً:

- لماذا أنت منزعجة؟

- لقد فاض بي الكيل منكم جميعاً. أي شيء أقوله غير مناسب، ولا يسمعني في هذا البيت أحد، ولا يأخذ أحد رأيي بعين الاعتبار. خذني يارب إليك في أسرع وقت!

دمعت عينا ظريفة. كان حبيب مدركاً مغزى الحديث، ولكنه سأل:

- عم تتحدثين؟ تكلمي بوضوح أكبر، لأنه يصعب فهمك.

- أنت تعلم جيداً عم يدور الحديث. الناس لديهم أحفاد ينمون في جمال الزهور، ويقتربون مني وينادوني جدة. وأنا؟ ربيت الابن الوحيد، ولم أبخل بأي

شيء في العالم، ولم أحصل على شيء. ومهما قلته لك، فبلا نتيجة، وتبدأ فوراً بالدفاع عن تيلي.

سأل حبيب رغبة منه في معرفة ما بداخل ظريفة:

- وماذا تقترحين؟

- لم التفكير؟ كيف كان يتصرف الأسلاف؟ إذا كانت المرأة عقيمة، فيجب الزواج من أخرى لمواصلة السلالة، لأن المرأة العقيمة تشبه الشجرة العقيمة التي سيتم قطعها حتماً في نهاية المطاف.

شعر الرجل العجوز بألم في قلبه، وصمت وأطرق برأسه. فكر مرة أخرى في شجرة الكرز.

اقترب الوقت من منتصف الليل. قام الرجل العجوز، وارتدى ملابسه، وتوجه مرة أخرى إلى فناء المدرسة. كان بستانياً مجتهداً، ولذلك كان جميع سكان القرية يدعونه لتطعيم الأشجار البرية، وكانت النباتات تنتعش تحت يده. كان يتعامل مع الشجرة، وكأنها إنسان، ولم يكن يتحمل أن يرى فرعاً مجففاً.

تناول سيجارة أمام بوابة حديقة المدرسة. بعد دخوله إلى الحديقة، نظر حوله، ملقياً النظرة إلى جميع الأشجار، وأبقى نظرته على شجرة الكرز.

فكر حبيب بشيء من خيبة الأمل والحزن: «اللعنة عليك! كل مصائبي آتية منك. هل أقطعك؟..». أبعد هذه الفكرة غير الشريفة، وحمل ورقة مشتعلة إلى كوم الأوراق المتساقطة. صعد منها دخان رمادي. بدأت الأوراق تشتعل، تاركة رماداً رمادياً وأسود على الأرض. ظل حبيب ينظر لفترة طويلة كيف تحترق الأوراق، وأصيب الرجل العجوز بحزن مرة أخرى. وبدأت الشمس تنهكه قليلاً.

أشعل البستاني جميع الأكوام، وكان يخلطها بالمذراة بين الحين والآخر حتى تحترق كلها. رسخت كلمات ظريفة في أعماق روحه. لكن من جانب آخر، لم يكن يتمنى التدخل في علاقة الزوجين، فقرر الانتظار. كان مشفقاً على تيلي، مدركاً أنه بطردها، لن يجد ابنه فتاة أفضل، وكان ذلك محزناً. فكر: «إذا غادرت بنفسها... لكان الأمر مختلفاً، ولكن أن يقول لها: لسنا بحاجة إليك، فغادري. لا يا سيدتي العجوز، لا يمكنني السماح بذلك، لا!». هكذا مرت أيام في عذاب، متحولة إلى شهور وسنوات.

ازداد ضيق ظريفة، وكانت تؤنب تيلي طوال الوقت. لم تعد نظرات الرجل العجوز الصارمة تجدي نفعاً، وأصبحت كل نصائحه وكلماته عاجزة أمام كراهية السيدة العجوز. كانت تيلي تدرك ذلك جيداً. كان إلغار صامتاً طوال الوقت، ويتهرب من هذه المحادثة غير الظريفة، ولكنه لم يكن يجرؤ على معارضة الأم صراحة. ذات مرة سمعت تيلي محادثة حماتها وحبيب.

- تردد طوال الوقت يا حبيب: لا تستعجلي، ستصبحين جدة، ستصعد شمسك أخيراً. لكن قل لي، هل ستدفئ الشمس ما بعد منتصف اليوم روحي؟ إنها تنهك لا تدفئ.

- تقولين كلاماً فارغاً يا ظريفة. ماذا سيقول الناس؟ تيلي شخصية محترمة ومحبة للعمل...

- هل تريد حقاً أن يكون ابننا الوحيد غير سعيد؟ أنت السبب في كل ذلك!

بعد ذلك، انقطع آخر أمل في روح تيلي. ازداد حزنها، ولكنها استمرت في أداء كل الأعمال المنزلية. أصبحت شخصاً غير مرغوب فيه في هذا المنزل. بدأت تيلي تبحث عن طرق التخلص من هذا الزواج الكئيب. أرادت أن تنهي هذه اللعبة القاسية التي ابتلاها بها مصيرها. في مساء خريفي، لم يجد إلغار زوجته في المنزل. هرع إلى الفناء. رأى ظريفة، ولم يجرؤ على سؤالها، فعاد إلى المنزل، حيث وجد رسالة على الطاولة:

«اعذرني يا إلغار، هذا ليس ذنب أحد. لا تبحث عني، فلن أعود في جميع الأحوال. لا أريد أن أكون عبئاً عليك، كن سعيداً. تيلي». جلس إلغار على الأريكة، مجهداً ومصاباً بشعور مزدوج: إرضاء الأم أو قتل الحب تجاه تيلي بداخله؟ بعد أن علمت بمغادرة تيلي، سعدت ظريفة وبدأت تهدئ ابنها بأنه سيجد زوجة أجمل منها...

لم يقل العجوز حبيب شيئاً، بل ظل يبكي مثل الطفل، ويدخن... لم يكن لدى تيلي أقرباء في القرية، فتوجهت إلى عمتها الوحيدة في المدينة.

مرت أيام عدة. مازالت تيلي تأمل في أن يجدها إلغار، ولكن ذلك لم يحدث. كان كل شيء يسير وفق الوتيرة الطبيعية، وحتى لم يسأل أحد. فكرت تيلي: «لن تسمح ظريفة لإلغار بأن يذهب إلي...»، وبكت.

أوشك الشتاء على الانتهاء، وكانت آخر الثلوج تذوب. القرية التي تنتشر فيها أي أخبار بسرعة البرق، انشغلت بأنباء جديدة، ولم يعد يذكر تيلي أحد.

ذات يوم في بداية الربيع، انتشر خبر زواج نجل البستاني حبيب. نظمت ظريفة كل شيء دون تدخل حبيب. وصلت هذه الأنباء إلى تيلي، فاستقبلتها بدم بارد وقلب جامد. خاصة وأنه تمت خطوبتها، وستتزوج قريباً، وستعيش في المدينة.

ظل العجوز حبيب يذهب إلى حديقة المدرسة كالمعتاد، ثم يعود بعد العمل إلى المنزل، منصتاً إلى أحاديث زوجته.

مر عام، وبدأت أسوأ أيام في عائلة البستاني. لم يسفر زواج إلغار للمرة الثانية عن إنجاب أطفال أيضاً. كان الرجل العجوز يلعن شجرة الكرز ومصيره على كل تلك المصائب. كانت السعادة تنأى بنفسها عن بيت حبيب، وكأنها نسيت أن البستاني موجود في العالم. انطفأت آخر الآمال.

كانت الزوجة الجديدة أكثر كسلاً من تيلي، ولم تكن تحضر دائماً شاياً للرجل العجوز، فكثيراً ما كان يجب تذكيرها. ظريفة هي التي تقدمت إليها وأحضرتها إلى المنزل، فلم تكن تسمح بتضييقها أولاً، بل كانت تمدحها. لكن ثم بات من المعتاد أن تنهال السيدة العجوز عليها بالشتيمة، وكانت تدافع عن ابنها دائماً. سمح الربيع لحبيب بأن يبقى لفترات طويلة في الحديقة، حيث كان لديه ما يكفي من العمل، فبات يقضي أياماً كاملة في فناء المدرسة. أصبحت لياليه أطول من الشهر والسنة...

ازدهرت الأشجار، مزينة القرية. كثيراً ما كان حبيب يقترب من شجرة الكرز لتناول سيجارة. أثناء وجوده في المنزل، لم يكن متحمساً للإجابة عن الأسئلة، ولم يكن ينتبه لسخرية السيدة العجوز، ولم يكن يقول لابنه شيئاً. لقد فقد أي اهتمام بالحياة. بعد شهر، لم تتحمل الزوجة الشجار مع حماتها، فغادرت منزلهم.

ازدهرت شجرة الكرز، ولكن الثمار لم تنمُ. بات منزل حبيب خالياً تماماً، وسيطرت الوحدة الحزينة عليه.

مرض الرجل العجوز فجأة في الصيف، وبات يعاني من السعال، خاصة وأنه كان يدخن كثيراً. نمت الثمار على فروع الأشجار في حديقة المدرسة. كانت شجرة الكرز تهز فروعها لدى هبوب الرياح، محركة ثمارها. علماً بأن شجرة الكرز كانت تهتز لدى أية هبة رياح، وكأنها تعتذر عن عقمها.

ذات يوم، في الصباح، تحسنت حالة البستاني. صعد وشرب شاياً، وأخذ الفأس، متوجهاً إلى حديقة المدرسة. كان يعاني من الصعوبة في الحركة، وكانت ساقاه تحملانه بصعوبة. ارتاح قليلاً أمام البوابة، فدخل إلى الحديقة. كانت الشمس الصيفية قاسية منذ الصباح. جلس حبيب إلى المصطبة وبدأ

بتناول سيجارة. كان يتذكر ببطء كل السنوات الماضية. يبدو أنه لم يفعل شراً بحق أحد، وكان يساعد الجميع، فلماذا تعاقبه الحياة؟

دون الانتهاء من تدخين السيجارة، ألقى بها إلى الأرض، وتوجه إلى شجرة الكرز. كانت واقفة وتحرك أوراقها الضعيفة، مذكرة الرجل العجوز بيوم الزفاف الأول لابنه. «اغفر لي يا الله!». ضرب حبيب ساق شجرة الكرز بالفأس، فسقطت على الأرض في خضوع، وكأنها تنظر إلى الرجل العجوز وتسأل: لماذا؟ أخذ حبيب الشجرة المقطوعة، وألقى بها خلف سور فناء المدرسة. أصيب قلبه بارتعاش لم يعرفه من قبل، فهو قطع لأول مرة شجرة حية، ولكن الأمر قد تم. خرج الرجل العجوز من الحديقة مسرعاً بخطوات قصيرة.

بعد عودته إلى المنزل، تنفس بعمق وقال بنبرة من الحزن:

- يا سيدتي العجوز، لأول مرة في حياتي رفعت فأساً على شجرة زرعتها.

- ليس في دماغك سوى الأشجار بدلاً من أن تنصحنا بما يجب أن نفعل، إذ إن القرية كلها تسخر منا. ليتني لقيت الموت وما رأيت كل ذلك.

ذات يوم، عاد إلغار من المدينة حزيناً جداً. لم يقل شيئاً، ولم يكن يجيب عن الأسئلة. كان السبب في ذلك هو اللقاء المفاجئ مع تيلي، وما كان لروح إلغار المجروحة أن تتحمل ذلك، فزاد من ألمه. لم تجب عن سؤاله «لماذا غادرت يا تيلي؟». قتل ذلك فيه آخر بصيص من الحب.

مع حلول الخريف، تدهورت حالة حبيب. كان أصدقاؤه وأقرباؤه يزورونه واحداً تلو الآخر. كانت الحياة تنطفئ فيه تدريجياً. في يوم خريفي غائم، توفي بستاني المدرسة.

كانت جنازة حبيب مهيبة. لم يلق أحد الخطب في رثائه، إذ لم يكن من المعتاد في القرية تمجيد الموتى، وكان الجميع يعلمون من توفي وماذا عمل في هذه الحياة.

شارك في الجنازة سكان القرى المجاورة، حيث كان الجميع يعرفون الفقيد جيداً. وعلى أطراف القرية، كانت حديقة المدرسة تسقط أوراق أشجارها مثل الدموع حزناً على الرجل الطيب.

انتهت الجنازة، وبدأ الناس ينصرفون من المقبرة المعزولة بشبكة معدنية من كل النواحي. ظل إلغار واقفاً بمفرده أمام القبر، ودموعه تسيل، إلى أن اصطحبه أصدقاؤه إلى منزله.

مرت ليلة، وحل الصباح، وبدأ سكان القرية بإخراج المواشي إلى الحقول. كان كل شيء يسير وفق الوتيرة المعتادة في القرية.

كان يتردد على منزل البستاني ناس لم يتمكنوا من حضور الجنازة. كان إلغار واقفاً منحي الرأس. فجأة وصل إلى أذني حوار الجيران. كان أحدهما يبلغ الآخر بأن سيدة شابة مرتدية زياً أسود، كانت تبكي فوق قبر حبيب في الصباح. لم يسمع شيئاً آخر، وكان كل شيء واضحاً، وكانت هذه، بالطبع، تيلي.

إبراهيم إبرهيموف

إخطار بالوفاة

لم تكن الشمس الشتوية تجلب الدفء في منتصف النهار. غطت طبقة الجليد البرك المذابة. كان المغرب الشتوي يلقي بظلاله على المقبرة الريفية. وبدا شبح شخص منفرد يتحرك في أطراف المقبرة. كان عادل العجوز يحفر قبراً. وبدت بقعة سوداء من الطين الطازج جلية وسط طبقة الثلوج.

بعد إلقائه دفعة جديدة من الطين، توقف عادل، ووضع كفه على صدره الذي كان يشعر بألم فيه مثلما كان الحال يوم أمس. تعرق جسمه المجهد، وغطى الصقيع لحيته الشائبة، وتحول لون شفتيه إلى الأزرق. رفع الرجل العجوز رأسه، ونظر إلى المقبرة. كم عدد سكان القرية الذين يرقدون هنا؟ شواهد صغيرة وأخرى كبيرة ذات زخرفة ومن دونها من صنع يدي عادل. كم منها عمل في صنعها خلال العامين المرعبين من تلك الحرب الظالمة؟ في بعض المرات، كان يدفن شخصين في يوم واحد في قرية جبلية صغيرة. يسود الجوع والأمراض مثل الضيوف غير المرغوب فيهم: تسير اليوم على قدميك وتعمل وربما تستريح، وترقد تحت غطاء الأرض الرطبة غداً. هكذا الزمن.

منذ بدء الحرب، باتت قرية عادل خالية من السكان، وكأنها شجرة من دون أوراق، بعد أن غادر الرجال إلى ساحة القتال. لم يبق في القرية المزدهرة سوى المعوقين والمرضى والأطفال والنساء.

ودع عادل ابنيه اللذين غادرا إلى الجبهة. تم استدعاء أولهما لقمان في الأيام الأولى من الحرب، وبعد عام، تلقوا خبر سقوط ابنهم بطلاً. غادر أيضاً لاخمان، وهو ابن عادل الثاني، متطوعاً. استحسن الوالدان ضمنياً خيار الابن الأصغر رغم أن قلبيهما كانا يئنان من الألم. لم يسمح ضميرهما بأن يقولا: «ابق يا بني، فأنت آخر من تبقى لنا».

على مدى ثلاثة أشهر، لم يعرف عادل الهدوء من انعدام الأخبار: هل ابنه حي؟ دون أن يكشف نفسه، كان الرجل العجوز يعاني، وهو يقرأ الرسائل

- المثلثات من الجبهة، وكانت الدموع اللاإرادية تنحدر من عينيه. كانت عاشوراء الصامتة والحزينة امرأة جبلية ذات شخصية قوية. لم تبك حين علمت بمقتل ابنها الأكبر. كانت تقول لسكان القرية المتقدمين بالتعازي: «إرادة الله تعالى لن تفوتنا: يبدو أن هذا هو مصير ابني لقمان...».

عادل وحده كان يعلم ماذا كابدت زوجته من أجل هذا الهدوء. ليالٍ بلا نوم، وصرخات من أعماق القلب. في فترة تأسيس الجمعيات التعاونية الزراعية، تم انتخاب والدها أول رئيس لها. كان مناصراً للمستقبل المشرق الجديد، وكان يدافع عن مصالح فقراء القرية بشجاعة. بمساعدته، تمكن سكان القرية من التخلص من نير الأثرياء المحليين الذين لم يعرفوا النوم منذ مجيء السلطة السوفيتية. تمكن بعضهم من تجنب الانتقام الشعبي، وباتوا يختبئون في الغابات، وتزعمهم القاسي وعديم الروح أصهار. هو وأتباعه اقتحموا البيت في ساعة متأخرة من الليل، وأمسكوا بوالدي عاشور، وأخرجوهما إلى الفناء، وأعدموهما رمياً بالرصاص. حينئذٍ بكت الصغيرة عاشوراء بكل دموعها، وجففتها مثل العشب تحت الشمس...

استيقظ عادل من الأفكار، وأمسك بأداته، وواصل عمله الشاق في نبش التربة الصخرية. لا، في ذلك اليوم، لم يزر الموت القرية. كان عادل يجهز قبراً لنفسه تحسباً لأي مكروه قد يحدث له. كان يدرك أن ما تبقى له من أيام ليس بكثير. من يعلم، ربما غداً وبعد ذلك بقليل سيستدعيه الله تعالى. حينئذٍ من سيحفر له قبراً في هذه الأرض الباردة؟ خلال ليال طويلة، كان يدعو في قلبه: «اصبر قليلاً، سنعمل يوماً آخر، ثم الهدوء، الهدوء الخالد».

في الصباح الباكر، رأته عاشوراء حاملاً مجرفة في الفناء، واندهشت:

- من مات؟

- لم يمت أحد أيتها السيدة العجوز... يبدو أن أجلي بات قريباً...

أصبحت عاشوراء عاجزة عن الحديث لدقيقة من الدهشة، ثم قالت:

- لا تحزن يا عادل، لن ينسوا أمرك أيضاً. لم يحدث أن لم يدفن سكان القرية الموتى.

حل المساء، ومالت الشمس الى الغروب. كانت الثلوج تتساقط بين الحين والآخر. كان عادل ينظر إلى جدار القبر الجديد، وكان راضياً.

عاد عادل إلى منزله مجهداً ومغطى بالصقيع. أضواء مصابيح الكيروسين كانت تشير الى أن الحياة مستمرة في القرية الهادئة. عجز سكان القرية الفقراء عن تربية القطط والكلاب. ترك عادل الأداة في الفناء، وصعد إلى الشرفة، وفتح الأبواب. زرعت الغرفة المظلمة والموقد البارد أفكاراً حزينة فيه.

رأى عادل عاشوراء راقدة على الأريكة في ركن الغرفة:

- لماذا لا تضيئين المصباح أيتها السيدة العجوز؟ هل توفرين الكيروسين؟

لم يتلق رداً. قلق عادل، واقترب من الأريكة، وشد كم المعطف الذي تغطت به زوجته.

- هل مرضت؟

أمسك بكتفي عاشوراء، وضمها إلى نفسه. قرب وجهها، وشعر بأنفاسها الدافئة. بعد تأكده أنها على قيد الحياة، هدأ عادل.

تركها في حالها، وأشعل المصباح، وأحضر الحطب، وأشعل النار في الموقد. سرعان ما بدأ الدفء والدخان اللاذع في الانتشار في الغرفة.

كانت عاشوراء ترقد في هدوء دون أن تحرك يدها. وسط ضوء ضعيف، كان يبدو جلياً وجهها وعيناها وأنفها الحاد وجبهتها الضيقة. سمع نفَسهَا القصير والثقيل.

جلس عادل بجوار زوجته، وسأل:

- لماذا مرضت فجأة؟ كنت في الصباح تهدئينني. ما هذه الحياة والشيخوخة؟ من يعلم ما سيأتي به القدر؟ لهذا يقال إن الإنسان مثل ظل الشمس.

رفع معطف زوجته، وخلع الجورب الصوفي من قدميها. بدأت قدماها تبردان. حاول عادل تدفئتهما بنفسه، وبدأ يدلكهما بيديه. نسي تعبه والألم في قلبه. حياة عاشوراء المنطفئة مثل الشمعة جعلته ينسى نفسه.

أدارت رأسها، وصرخت، ولكن شفتيها لم تتحركا. غلى إناء الشاي في الموقد، ولكن عادل لم يكن معنياً بالشاي. مصيبة بلا وجه سيطرت على الرجل العجوز. جلس طوال الليل بجوار الزوجة. ظل يلقي حطباً في الموقد

المنطفئ، ويتحدث من دون انقطاع مع رفيقة حياته الصامتة. كان لديه ما يتذكره. أيام سعيدة من الحياة المشتركة. اللقاء أثناء جني الحصاد. الحب. اللقاءات السرية. أغاني عاشوراء. الزواج. ميلاد لقمان ولاخمان... خسارة أن هذه اللحظات السعيدة مرت مثل الفارس المنطلق على حصانه السريع.

- لا تستعجلي يا عاشوراء. لا يمكنك المغادرة من دون رؤية العزيز لاخمان. سيعود صقرك وسيحضر إليك. صدقيني، لا تفقدي الأمل. حينئذٍ ستتحسن صحتك وسيخف ألمك...

في الصباح الباكر بمجرد شروق الشمس، فتحت عاشوراء عينيها، ورفعت يدها بصعوبة، وأشارت إلى الموقد.

- يا عادل... على الرف... لاخمان... خطاب...

سكتت. بيديه المرتعشتين، أغلق عادل عيني زوجته. كانت لحيته الشيباء ترتعش، وكانت دموع الرجل تسيل على خديه. ظل الرجل العجوز جالساً بهذا الشكل لفترة طويلة، ثم مد يده إلى الرف...

إخطار بالوفاة! إخطار بوفاة لاخمان...

كان الثلج يتساقط في ذلك اليوم من دون انقطاع، مغطياً كل شيء. لم تنبجس الشمس خلف السحب الكثيفة.

ظهر في المقبرة قبر جديد لم يغطه الثلج بعد، ونما بجواره تل جديد من تربة مماثلة...

كان عادل يهيئ قبراً آخر.

أربين كارداش

الثلج

أي مظاهر قوية للطبيعة والمناخ وكل الكوارث السماوية تقلق الإنسان وتزرع الخوف فيه. يسعى الإنسان للهروب والاختباء من ضجيجها وإنقاذ نفسه. الثلج وحده لا ينظر إليه أحد بقلق، ولن يتحدث عنه أحد ببرود. مهما غضبت الطبيعة، فنحن نرضى عن تساقط الثلج، لأنه هادئ وآمن.

ننتظر تساقط الثلوج دائماً.

- لماذا يتأخر الثلج؟

- يبدو أنه مهم.

- لا يريد الحضور إلينا... ربما أخطأنا في حقه.

- ليست مصيبة إذا كنا أخطأنا فحسب، ربما نحن نقارف الإثم بسببه...

حتى عندما يتساقط الثلج الأبيض بغزارة، وكأن هناك ثقباً في السماء، فنحن لا ننزعج منه. إنه يغطي الطرق والدروب، ويقطع الأسلاك التي تنقل الضوء إلى منازلنا، ويقطع بذلك صلتنا مع العالم الأكبر، إلا أننا لا نصف الثلج بأنه بارد أبداً بنبرة من الضيق في قلوبنا...

يجلب الثلج من السماء النور ونوعاً آخر من الدفء إلى قلوبنا لا يشبه الدفء المنطفئ في أرواحنا.

تتساقط الثلوج، ونحن نتنفس ونشعر بأننا نتجدد، وتنير أفكارنا ورغباتنا، وكأنها تعود إلينا بعد أن تلاشت أو انتظرناها لسنوات.

تتساقط الثلوج، والروح تغني وتؤلف شعراً وترقص.

الأحداث المتعلقة بتساقط الثلوج لا تُنسى أبداً: «في تلك السنة التي تساقطت فيها الثلوج بغزارة...».

ويبدو لنا أنه في حال تساقط الثلج، لا يحدث أي حدث آخر مهم، ولا يمكن أن يكون هناك أي شيء أهم من تساقط الثلوج. ربما لأن كل الأحداث المرتبطة بتساقط الثلوج تبدو مهمة، ولا يمكن نسيانها. لا تسع لاختراع آلة الزمن، بل انظر إلى الثلج وما إذا كان قد تساقط أم لا. لا آلة زمن أفضل من ذلك. لا يكلفها شيء أن تنقلك إلى أيامك الماضية والتالية.

تتساقط الثلوج في الشوارع، وأنت تواصل النظر عبر النافذة... لا تلاحظ أنه ينقلك إلى مكان بعيد ويلقي بك إلى أمواج الحياة السابقة...

سينقلنا الثلج أولاً إلى الطفولة، وسيذكرنا بروح البيت الأصلي وسيقربنا من موقده المتواضع والذي يدفئ حتى من دون النار...

* * *

... مر أسبوع على تساقط الثلج بلا توقف في القرية.

لم يعد يُسمع الصوت الدائم للنهر الكبير. نام النهر الكبير، وكأن الساعة الخالدة لذلك الوادي تعطلت أو الزمن نفسه توقف.

في تلك الأيام القاسية، يجري الطفل في الثامنة من عمره إلى المنزل بعد المدرسة من دون تأخير. لا، بعد مرور بعض الوقت، سيتمكن من الخروج للتزلج على المزلجة واللعب مع الأطفال الآخرين بكرات الثلج. إذا لم يجرؤ على القفز من سطح المنزل إلى كوم الثلج في الفناء، فمن المؤكد أنه سيقفز من سطح الحظيرة. وسينسى طلب جدته الكبيرة التي يسمعها تقول في كل مرة: «يا بني، إنني أضع يدي على ذقنك، وأطلب منك، لا تقفز من السطح». إنه لن يفرط في حصته في تلك النعمة التي أنزلت من السماء.

لم يكن الصبي مستعجلاً إنهاء الدروس فقط، بل رفعت هذه الثلوج روحه المعنوية، وزادت من شعوره بالمسؤولية. كان الصبي يسعى لإسعاد جده وجدته الكبيرة بنجاحاته في المدرسة.

كان الجد راقداً على السرير بجوار الحائط، وكان رأسه ولحيته الخفيفة البيضاء مخفية تماماً، ولم يبرز من وجهه الرفيع سوى الأنف. كان يواجه صعوبة في التنفس.

عندما كانت أم الصبي وجدته (كان يطلق عليها أحياناَ اسم الجدة الصغيرة) مشغولتين بأمور منزلية، كان من واجباته أن ينفذ التكليفات الصغيرة للجد والجدة الكبيرة.

لكن كان هناك أمر يثير قلق الصبي. عندما بدأ تساقط الثلوج، سأله الجد:

- هل الجدة الكبيرة نائمة؟

- نعم.

- أيتها الثلوج العزيزة البيضاء، سينقل نقاؤك صوتي إلى الله تعالى: لا تتركني أموت قبل الأم...

كانت الجدة الكبيرة راقدة على الأرض تحت النافذة بالقرب من الموقد. كانت تبلغ من العمر 100 عام. لم يظهر من تحت البطانية الصوفية والغطاء القطني الأحمر سوى وجهها المنكمش ويديها المجففتين. أولاً لفتت نظره تجاعيد عميقة لا حصر لها إلى حد أنه كان يمكن الظن أنها اشتبكت فيها. لم يبق أي نور في عينيها. كان رأسها مغطى بدثار أسود، وتحته «شوتكو» [9] رمادي. كان الصبي يعلم أنها صلعاء: قبل يومين طلبت من أمه أن تقص شعرها بالمقص، وقطعت الجدة الصغيرة ما تبقى من الشعر بالموس. وكان الصبي يعلم أن الجدة الكبيرة لا ترتدي «شوتكو» خجلاً من رأسها الصلعاء، وإنما لأن المرأة الملتزمة بالسلوك الجبلي، يجب أن ترتدي «شوتكو». قبل تساقط الثلوج، كانت الجدة بحالة جيدة، وكانت تروي قصصاً وأساطير وحتى تردد الأغاني، ولكنها حين كانت تكررها، تلاحظ فيها سمة شخصية أو ملامح أو كلمة جديدة. فكر الصبي: «كيف تستوعب ذاكرتها هذا العدد من الشخصيات والعصور والأحداث والكلمات؟». ذات مرة طرح هذا السؤال على جدته الصغيرة. «منحها الله تعالى هذه الهبة يا بني». لم يفهم الصبي تماماً ما سمع، ولكنه أدرك أن جدته الكبيرة لا تشبه الآخرين، بل هي شخصية متميزة.

بعد تساقط الثلوج بغزارة، بات الناس يترددون أكثر على الجدة الكبيرة والجد للاطمئنان عليهما. وعند النظر إلى الجدة الكبيرة، كان كثيرون منهم يرددون: «إنه رجل عجوز...». وكان الصبي يفكر: «ربما لا يعلمون أنها حليقة الرأس، ولذلك يتحدثون بهذا الشكل؟».

عند دخوله إلى المنزل ومصافحته الجد، قال الجار بوكار:

- أيتها الأم الكبيرة العزيزة. ماذا يعني أن رجلاً رأى العالم مثلك يرقد بجوار الموقد الدافئ؟ اصعدي ونظفي السطح من الثلج، ونظفي الفناء! كل شيء حولنا مغطى بالثلوج.

عند تساقط الثلوج، كان العم بوكار يرتدي قبعة من فرو جلد الغنم صنعها بنفسه، وفي بقية الأوقات كان يرتدي قبعة شتوية اشتراها من متجر.

قال الجد:

- واضح من قبعتك أن الثلوج تتساقط.

تساءل الصبي مرة أخرى: «ماذا يعني ذلك؟ ينادي الجدة الكبيرة الأم الكبيرة تارة، والرجل تارة أخرى. لماذا؟».

هزت الجدة الكبيرة رأسها على الوسادة. كانت تعلم أن العم بوكار يمزح. رغم أنها ربما لم تفهم الكلمات، إلا أن معنى كلامه وصل إليها بطريقة ما.

كان العم بوكار يفهمها أيضاً.

- إذا لم تعودي قادرة على عمل شيء. على الأقل ارو قصصاً لحفيدك.

- لم تعد هناك قصص...

اندهش العم بوكار:

- أين اختفت؟

دون أن تبعد يدها عن البطانية ورافعة أصبعها إلى السقف، ردت:

- أخذوها...

كان الصبي يدرك كل شيء.

لزم العم بوكار الصمت. لم يعد يرغب في المزاح. وقف أمام الجدة الكبيرة على ركبتيه، وأمسك بيديها:

- عزيزتي الأم الكبيرة، الأم الكبيرة...

- لا أريد أن أموت الآن... الثلوج... الثلوج على الأرض... سيكون من الصعب حفر القبر...

- هذا مجرد ضعف الشتاء. سيحل الربيع اليوم أو غداً. ستبتعد كل الأمراض.

ابتسامة خفيفة ظهرت على شفتي الجدة الكبيرة. فهم الصبي أنها لا تصدق العم بوكار.

- لماذا لم تذهب لإزالة الثلج من السطح؟ أنت الآن رجل. عندما يكبر الابن في البيت، يجب ألا تصعد الأم والجدة إلى السطح.

شعر الصبي بالخجل، إذ لم يكن يتوقع مثل هذه الكلمات من العم بوكار. لكن كان عليه أن يرد.

- سأذهب إلى المدرسة في الصباح...

- قبل الذهاب إلى المدرسة، على الرجل إزالة الثلج من السطح.

تدخل الجد في الحوار:

- اترك حفيدي في حاله. إنه معاوني في المنزل.

عاد العم بوكار للحديث بنبرة من المزاح، قائلاً:

- إذا أردت أن يكون لك معاون، ألن تحتاج إليه والدتك وابنتك؟

- إنه يساعدهما أيضاً.

- أعلم أنكما ستتمسكان أحدكما بالآخر... كيف صحتك أيها العم العزيز؟ شكلك ليس أسوأ من المرة الماضية. هذا شيء جيد.

نظر الجد إلى الركن الذي كانت ترقد فيه والدته.

- هل هي نائمة؟

رد العم بوكار، وكأنه لا يفهم ماذا يقصد الجد:

- نائمة مثل الرضيعة.

- ليس هناك أي شيء جيد يا بوكار. انتهت الحياة. يأتي الموت، وينظر إلي من تلك النافذة. لم تبق لدي سوى رغبة واحدة أدعو الله أن تتحقق. لا أريد أن أموت قبل أمي... كل مرة تستيقظ فيها تنظر إلى سريري. إنها تعلم أنني مريض، وربما تدرك أنني أموت، ولكنها تبعد هذه الفكرة عن نفسها، ولا تسمح لها بدخول قلبها. عندما يتردد الرجال على المنزل، فهي تستغرق في النوم، لأنها تعلم أنه طالما يحضر الرجال، فابنها في صفوفهم. ابنها حي. لا أتمنى أن تغادر هذا العالم وفي روحها حزن...

كان العم بوكار صامتاً ومنحني الرأس. شكله الحزين كان يقلق الصبي الذي عرفه نشيطاً ومرحاً ومحباً للأغاني دائماً. فكر الصبي: «لماذا لا يقول للجد: «سيحل الربيع، وستغادر الأمراض، وسيكون كل شيء جيداً؟» ربما عندما قال ذلك للجدة، كان موجهاً هذه الكلمات إلى الجد أيضاً؟..».

قال العم بوكار:

- اذهب يا بني، هناك طرقة جيدة للتزلج. خذ المزلجة وتزلج.

نظر الصبي إلى الجد، إذ كان يهمه ماذا سيقول له.

- اذهب يا بني، اذهب.

خرج الصبي إلى الشرفة، ولكنه لم يذهب للتزلج. كانت الثلوج تتساقط بكثافة من جديد. سُمعت صرخات الأطفال بالمزلجة، ولكنه لم يرغب اليوم في الذهاب إلى هناك. بدا له أنه يسمع صوت النهر الكبير...

تحرك الزمن من مكانه. في عالم فارغ وأبيض، كان سر كبير ما ينكشف للصبي، ولكنه لم يكن يعلم أي كلمات يطلقها عليه. ولكنه كان واثقاً بأن كل شيء سينكشف له يوماً ما. كانت هذه الثقة أولى الإشارات أن الصبي يكبر.

عاد الصبي إلى شالبوزداغ الذي لم يفقد ملامحه وسط الضوء الأزرق عند غروب الشمس، بل كان يشبه جبلاً أسطورياً أبيض.

- عزيزي شالبوزداغ، نفذ ما يتمناه الجد...

ثم عادت الأم والجدة.

سألت الجدة:

- لماذا لم تذهب للتزلج؟

- لا أريد.

سألته والدته:

- هل أعددت الدروس؟

- سأعدها، عندما يغادر العم بوكار.

في المساء، اشتعلت النيران في الموقد مرة أخرى، حين وضعت الجدة فيه الحطب. انتشرت روائح البطاطا المشوية والفطائرالتي كان يتم تسخينها في الموقد. كانت الأم تطعم الجدة الكبيرة الحليب والخبز بواسطة ملعقة الشاي.

وكانت الجدة الكبيرة تقول:

- لتكبر من هذا الطفل مدينة كاملة، لينورك.

كانت الجدة تسأل الجد:

- ماذا تريد أن تأكل يا زوجي العزيز؟

- أعطني الكامبار.

- من النعناع؟ أم من «سورار»؟ أي تريدين؟

فكر الصبي: «سورار هو نبات يتم جمعه بمنحدرات جبل شالبوزداغ المقدس...»، وهو يدرك جيداً من أين تنبع هذه الفكرة.

كانت الجدة تصب اللبن المتخثر في الوعاء. ثم كانت تساعد الجد في الجلوس، ووضعت وسادات خلف ظهره ووضعت الوعاء أمامه. لم يكن يسمح سوى للجدة بأن تمسكه تحت الإبطين وتجلسه. لم يكن يسمح بذلك لأحد آخر، ولم يكن الصبي يعلم لماذا.

كان الصبي يخرج البطاطا من الفرن، ويضع قطعتين في الفطيرة ويضغط على اثنتين أخريين. ثم كان يرفع الخبز والبطاطا، ويصب عليها ملعقة من الجبن الأبيض السائل المملح من الإناء.

كان يعلم ماذا ستقول الجدة الآن، ولكنه فكر: «ربما ستصمت هذه المرة».

- لا تنس أن تضيف زبدة يا بني العزيز. إذا لم تأكل زبدة، فلن تحفظ الدروس بشكل جيد!

لم يكن الصبي يحب الزبدة، وبدا له أنه تصدر منها رائحة بقرة أو رائحة كريهة أخرى.

- أضف الزبدة أيها البطل! عليك أن تأكل مثل رجل. ستنمو أسرع فأسرع.

وكان الجد يؤيد الجدة...

كان الصبي يتذكر دعاء والده إلى الثلج. رفع الفطيرة، ووضع ملعقة كاملة من الزبدة على البطاطا... يجب فعل شيء حتى لا تتحدث الجدة عن الزبدة مرة أخرى. كان ينضج...

سألت الجدة الكبيرة:

- ألا تذوب الثلوج؟

ردت الجدة:

- تذوب، وستسطع الشمس غداً...

تكهن الصبي أن الجدة لا تمزح وتحاول رفع معنويات الجدة الكبيرة.

كانت الأم تفرش السرير، وكان الجميع ينامون في غرفة واحدة بسبب البرد في الغرف الأخرى. كان مكان الصبي بجوار النافذة الثانية على الجانب الآخر من الموقد. كانت الجدة ترقد بجوار السرير، والأم عند قدمي الجدة الكبيرة.

أشعلت الجدة مصباح الكيروسين، وأطفأت النور.

بعد مرور بعض الوقت، استغرقت الجدة الكبيرة والجدة والأم في النوم.

لم يكن الصبي قادراً على النوم. كان يعلم أن جده لا ينام أيضاً، لأنه كان يتنفس بتثاقل، وسُمع كيف كان يحرك حبات السبحة.

لم يفكر الصبي يوماً أن جده كان سيضعف إلى هذا الحد، ولكن حالته تدهورت تماماً في هذا الشتاء.

كان الجد فارساً حقيقياً يستأنس الأحصنة ويحدوها، ويرفع الأراضي ويجز العشب ويرعى الخراف ويصطاد... ذات يوم اصطحب حفيده على الحصان إلى قاعدة شالبوزداغ لجمع «سورار». رغم أن جمع «سورار» على المنحدرات كان من مهام المرأة، إلا أن الجد كان يتولاه. إلى هذا الحد كان يحب «كامبار» من «سورار»... كان الجد يقرأ مجلدات كبيرة... كان يحتفظ في البيت في صندوق الجدة بثلاثة كتب كبيرة: «الحرب والسلام» و«رأس المال» و«القاموس الروسي الليزغيني». لم يكن يعيرها لأحد، وإذا طلب أحد ذلك، كان يقول: «احضر إلى بيتنا واقرأ».

في أحيان كثيرة كان يحضر إلى الفناء المدرس رمضان، ويسأل عن كلمات مختلفة:

- أرجو منك أن تنظر ما معنى كلمة «عصفور» باللغة الليزغينية؟

كان الجد يفتح القاموس على حاجز الشرفة، ويبحث عن الكلمة المطلوبة، ويجيب:

- «جيجيخ».

كان الجد خياطاً أيضاً... هناك صورة له مع رفاقه بعد التخرج في دورات الخياطة في بياتيغورسك، معلقة في غرفة الضيوف... الجد في أيام شبابه وعز قوته... قاطن جبال يشبه نسراً... في أيام شبابه، كان يخيط السراويل والمعاطف والقمصان والملابس التقليدية لأغلبية رجال القرية. لم يكن يأخذ مالاً من أحد، بل كان يقول: «القماش منك، وعملي أنا».

مدير الجمعية الزراعية وصديقه غني الذي كان يحب التظاهر بأناقته ذات مرة قال له: «خيط لي سروالاً جديداً، وسأدفع لك أي مبلغ تطلبه». رد الجد عليه بطريقة جعلت القرية كلها تسخر من غني. في ذلك الوقت، لم يكن حفيده يذهب إلى المدرسة بعد، فعلم بما جرى بين الصديقين فيما بعد. وحدث أن الجد تسبب مرة أخرى في موقف محرج لغني، بعد أن تصالح معه بصعوبة كبيرة.

كل مرة حضر فيها الضيوف، كان الجد يدعو حفيده إلى غرفة الضيوف ويجبره على مصافحة الجميع، ويضيّفه، مما كان يثير إعجاب الصبي.

ذات مرة اصطحبه أحد الضيوف إلى الشرفة خلسة، وقال له:

- يا بني، سأعطيك روبلاً، خذه. عندما سيدعوك الجد إلى الغرفة، قل للجد غني: «هل سروالك فيه جزء أسفل؟».

بدا للصبي أن هذا ليس بسيئ أن يمزح مقابل روبل، كما أنه كان يعلم أن الجد وأصدقاءه يحبون النكات.

بعد دعوة الصبي إلى الغرفة، قال له جده:

- رحب بالضيوف وصافحهم يا صقري.

عندما جاء دور غني، صافحه الصبي، سائلاً:

- هل سروالك له جزء أسفل؟

انفجر الحاضرون ضحكاً، وكأن جبلاً انهار!

تعرق غني واحمرت سحنته، ونظر إلى الجد، وعيناه ممتلئان بالغضب.

جلس الجد القرفصاء، وأمسك كتفي الصبي، وقال:

- لقد أهنت ضيفاً يا بني. قل لي ماذا حدث.

من أين كان يعلم الصبي أن غني ذات يوم طلب من الجد أن يخيط له سروالاً وتحدث عن المال، فسأله الجد: «هل أخيط السروال مع الجزء الأسفل أم من دونه؟». ورغم أن الجد كان يمزح، إلا أن غني تضايق كثيراً، وظل لا يتحدث معه لبضع سنوات. لم يكن من طابع الجد أن يخسر الأصدقاء، فكان يحاول إرضاء غني بأن يهديه سروالاً جديداً وإظهار الاهتمام به، ولكن هذا الأخير لم يكن يقبل بالتصالح. وأخيراً تجرأ الجد أن يهديه كتاب «رأس المال»، وبعد ذلك سامح غني صديقه، وقبل منه سروالاً جديداً، واستجاب لاهتمامه...

... كان الصبي راقداً في السرير الآن، وينظر إلى المصباح، متذكراً تلك الحادثة، وهو يتأمل. كان غني من أولئك الذين كانوا يزورون الجد كثيراً منذ أن مرض. في كل مرة يظهر فيها، كان الصبي يخجل ويغادر البيت. بعد ملاحظته ذلك، قال له غني:

- عندك ضمير يا فتى. أنت رجل... انس ما فات. تعال إلى هنا وحدثني عن دراستك. هل الأستاذ رمضان يعاملك معاملة حسنة؟..

داعب غني رأس الفتى، مما كان يزعجه. كان يفكر: «إذا كنت رجلاً، فلماذا يداعبني؟ يشفق علي...». ولكنه لم يظهر ما بداخله، بل رد:

- الأستاذ رمضان يعاملني معاملة جيدة... أحياناً يطلب أن أحضر له ترجمة بعض الكلمات الروسية إلى الليزغينية من قاموس الجد...

... بدأ لسان اللهب يقفز في المصباح في السقف. أدرك الصبي أن الكيروسين قد استنفد، والنور سينطفئ تماماً. يبدو أن الجد استغرق في النوم أخيراً، إذ لم تعد حبات السبحة تنقر. كانت غلاية الشاي تصدر صوتاً مهسهساً فوق الموقد الذي لا تزال فيه جمرات ضعيفة. فكر الصبي: «يشبه ذلك صوت النهر الكبير من بعيد»، وولدت هذه الفكرة فرحة في قلبه. أغلق عينيه وتخيل القرية وشالبوزداغ والحقول والنهر الكبير تحت الثلوج. بدا له أنه يرى كل شيء حوله رغم أن عينيه كانتا مغلقتين. استغرق في النوم، بعد أن جلب هذا المشهد الهدوء إليه.

استيقظ الصبي في الصباح، حين نهضت والدته وجدته.

مازالت الجدة الكبيرة والجد نائمين. اقتربت الجدة من رأس أحدهما، ثم الآخر، ونظرت إليهما، منصتة لنفسيهما.

قالت الأم للابن:

- نم، لا تزال الساعة مبكرة، وهناك كثير من الوقت قبل المدرسة.

كان الصبي يعلم أن الأم ستصعد إلى السطح لتنظيفه من الثلج، وقال لها:

- سأذهب معك.

- لا داعي لذلك، نم.

أمرت الجدة:

- يا بنت، لماذا تمنعينه؟ ليذهب. اذهب، وخذ مجرفة الثلوج معك.

لم تشرق الشمس كاملة، ولم يزل الظلام سائداً. لكنه بدا أن الثلوج الجديدة كانت تصدر ضوءاً. لقد صعد سكان القرية إلى الأسطح. كان العم بوكار أيضاً يزيل الثلوج من سطح بيته، وقال للصبي:

- ما شاء الله! أنت ماهر، لقد أصبحت رجلاً حقيقياً.

حاول الصبي تقليد العم بوكار في إزاحة الثلج إلى طرف السطح. لكن بعد قيامه بثلاث خطوات توقف، إذ لم يكن لديه ما يكفي من القوة لدفع الثلوج المتراكمة.

قالت الأم، وهي تقوم بنفس المهمة بواسطة مجرفة خشبية:

- خذ أقل قدر من الطرف.

لم يعد الصبي يتحمل، ووجه إلى أمه سؤالاً كان بداخله:

- يا ماما، لماذا كان العم بوكار أمس يسمي الجدة الكبيرة رجلاً عجوزاً؟

- يطلق هذا الاسم على السيدات الكبيرات جداً. وإلا كيف يمكن تسمية السيدة العجوز التي لم تعد قادرة على القيام بالمهام النسائية في المنزل؟

- وهل سيطلق هذا الاسم على الجدة وعليك في وقت ما؟

- نعم، عندما نصل إلى سن الجدة الكبيرة.

كان ضوء النهار ينبلج أكثر فأكثر، وكان عدد متزايد من الناس يصعد إلى الأسطح، وكانوا ينادون على بعضهم البعض، ويشاركون بعضهم البعض أخبارهم. لكن أي خبر آخر قد يحدث في عالم تساقطت فيه الثلوج بهذه الغزارة.

كان هناك حضور خاص لأصوات الفتيات الشابات.

- هل تجري المياه في رافد كركون؟

- لا، إنه تجمد.

- وكيف النبع لاخام؟

- تجري فيه مياه قليلة جداً. اذهبي إلى منبع «ألبان».

- من الأفضل أن أذهب في أي طريق؟

- اذهبي عبر الطريق الأسفل، لأن الطريق الأعلى تجمد. سقطت بيري-خانوم أمس، وتحطم إبريقها.

تدخل العم بوكار، قائلاً:

- حسناً أن الإبريق هو الذي تحطم وليست هي.

كان النهار يزداد وضوحاً، وباتت السماء تشبه الجليد الأزرق. الرياح لا تهب، ولكن الصقيع شرس. حاملات المياه، ستشق الفتيات والنساء طرقات ضيقة جديدة وسط الثلوج، وسيليهم الأطفال المستعجلون إلى المدرسة.

ازداد الصبي سخونة، واحمر خداه، وهو لا يشعر بالصقيع. إنه متحمس ظناً منه أن مساعدته لأمه ستسعد الجد الذي سيفرح به.

عندما نزلا من السطح، وجدا الجد باكياً مثل الطفل المنزعج، والدموع تسيل من عينيه. كانت الجدة واقفة صامتة، واضعة أصبعها على شفتيها، وهي تهز رأسها.

فهمت الأم أن الصبي لم يدرك شيئاً.

سأل بصوت يهتز من القلق:

- ماذا حدث يا جدة؟

- أصبح جدك يتيماً. توفيت الجدة الكبيرة.

بعد توقفه عن البكاء، مسح الجد عينيه بكفيه، وقال:

- الحمد لله تعالى! خذني أنا أيضاً. إنني مستعد.

قالت الجدة للأم:

- اذهبي أبلغي القوم -ثم توجهت بحديثها إلى حفيدها- إذا أردت، اذهب إلى المدرسة أو إلى العمة. ارجع في المساء. تناول الطعام أولاً، ثم اخرج.

ذهب الصبي إلى المدرسة.

في البداية، لم يسأله الأستاذ رمضان شيئاً، ولم يراجع واجبه المنزلي، ولم يسأل عن الجد، ولكنه مدح الصبي أمام الجميع على مساعدته أمه في تنظيف السطح من الثلج، داعياً الجميع إلى أن يحذوا حذوه. لم يكن الصبي يفهم، لماذا يفعل الأستاذ ذلك، بعد أن ازداد نضجاً قليلاً منذ يوم أمس.

عندما عاد من المدرسة، كان يتم نقل الجدة الكبيرة إلى المقبرة. كان الرجال، صغاراً وكباراً، مرتدين معاطفهم، متجهين إلى حديقة التفاح في موكب خلف تابوت الجدة الكبيرة. كانت المقبرة تقع في حديقة الجمعية التعاونية الزراعية.

وقف الصبي في نهاية الشرفة.

سارت النساء خلف الرجال، ولكن الصبي كان يعلم أنهن لن ينزلن إلى الحديقة، بل سيتابعن السير من بعيد. لم يبك على الجدة الكبيرة أحد. بدا للطفل أنه في وعي الكبار لا فرق بين وفاة الجدة الكبيرة وتساقط الثلوج والضباب الكثيف المتصاعد فوق النهر الكبير. كان يترحم على جدته في أعماق روحه.

من جانب آخر، كان يفكر أنه ربما عند دفن الميت، فإنه يبدأ حياة جديدة. في إحدى حكايات الجدة الكبيرة، يلقي الأعداء بـ«شارفيلي» إلى حفرة عميقة، ويغطونها بحجر ضخم. ولكن شارفيلي يجد نفسه في بلد يعيش فيه الجميع في سعادة ولا يعرفون العداوة والخيانة والكذب، بل هم صادقون في العلاقات بين بعضهم البعض. فكر الصبي: «ربما تعرف الجدة الكبيرة أيضاً الطريق إلى ذلك البلد. وإلا من أين علمت هذا الكم من الحكايات والأمور الشيقة؟ لذلك لا يبكي عليها أحد...».

اختفى موكب الرجال، وظلت النساء واقفات، وهن ينظرن من علو حديقة التفاح.

فجأة قلق الصبي من أن الجد يرقد في البيت بمفرده، فاستعجل في الذهاب إليه.

سأله الجد:

- هل كنت في المدرسة؟

بدا وكأن عينيه ممتلئتان بنور غامض ما.

- نعم.

- غادرتنا جدتنا الكبيرة. هذه سنة الحياة يا بني، وهكذا قرر الله تعالى. لا تحزن. أنت رجل. أنت الرجل في بيتنا الآن يا بني.

أراد الصبي أن يقول «أنت الرجل في بيتنا يا جدي»، ولكنه لم يقل شيئاً. جلس على حافة السرير، وأمسك بيد جده الضعيفة.

ولكن الجد بدا وكأنه سمع الكلمات التي لم ينطق بها.

- أنا الآن لا شيء يا بني... لم أتمكن من وداع والدتي إلى مثواها الأخير... لا تغادر لفترة طويلة. ابق في مكانك. لا تذهب غداً إلى المدرسة ولا إلى العمة...

لم يفهم الصبي مغزى الكلمات الأخيرة لجده، ولكنه هز رأسه المغطاة بالقبعة علامة الإيجاب:

- اخلع القبعة وقرب رأسك من هنا.

قبله جده في صدغه.

امتلأت عينا الصبي بالدموع، وحتى لا يظهرها أمام جده، التف إلى النافذة. لم يكن يعلم أن عينيْ الجد ممتلئتان بالدموع أيضاً.

بدأت الثلوج تتساقط مرة أخرى خارج النافذة، وكأن رقائقه تجتاح العالم.

ثم امتلأ البيت بالناس. اجتمع الرجال في الغرفة التي كان بها الموقد، وسرعان ما تم إيقاد النار في موقد غرفة أخرى حيث تجتمع فيها النساء.

سأل العم بوكار:

- ماذا تفعل هنا يا صبي؟ تعال إلينا.

- قال لي جدي أن أبقى هنا.

- إذن اجلس بجواري.

أمسك العم بوكار بكتف الصبي واحتضنه، ليجلسا بجوار النافذة في مكان نوم الصبي.

لم يتحدث الرجال كثيراً، بل كانوا يتبادلون كلمتين، ثم يصمتون. ثم بدأ الملا الجد نور محمد صاحب اللحية الطويلة البيضاء، بتلاوة الصلاة. صوته النقي والرخيم أبهر قلب الصبي، وازداد الأسى في روحه، ولكنه كان يتحلى

بالصبر. مثل غيره من الرجال، كان يجلس وقد طأطأ رأسه إلى صدره. لم تنته الصلاة. بدا للصبي أنها تشبه صوت النهر الكبير. وأخيراً استغرق في النوم...

في الصباح، استيقظ الصبي على صراخ أمه التي كانت تبكي فوق سرير جدها، وتهتز بكامل جسدها.

- يا والدي! يا والدي العزيز! استيقظ!

أبعدتها الجدة، قائلة:

- اهدئي يا بنت. لا تكوني مجنونة... فقد تحققت أكبر أمنياته... لم يعد بحاجة إلينا...

تمالك الصبي نفسه من الانفجار في البكاء. ظل جالساً في المكان الذي رقد فيه للنوم، وكان مغطياً بالمعطف. تغطى كاملاً، وظل لبضع دقائق يقاوم البكاء، مغلقاً عينيه وفمه. بعد أن هدأ قليلاً، فكر: «كيف تستطيع الجدة أن تتمالك نفسها بهذه الصورة؟ هل قلبها جامد إلى هذا الحد؟ لم تسل دمعة واحدة من عينيها. إنها تشبه رجلاً حقيقياً. على الأرجح، لقد بلغت مستوى الرجل العجوز».

فجأة شدت الجدة المعطف من الصبي.

- قم، أعلم أنك لا تنام.

قامت القريبات اللواتي حضرن من القرى المجاورة إلى جنازة الجدة الكبيرة، وبقين للمبيت. كان الجميع مشغولين بشيء ما، ولم ينتبه إلى الصبي أحد. لم يبد أحد قلقاً شديداً، وكأن الجميع يعلمون أن الجد سيموت اليوم، وكانوا يعتبرون ذلك أمراً مبرراً.

خرج الصبي إلى الشرفة، وكان كل شيء حوله مغطى بالثلوج. بدأت الشمس تشرق، وكانت السماء خالية من السحاب. فكر الصبي: «قد يكون اليوم مشمساً، ولكن الثلوج ربما ستتساقط من جديد في المساء»، واستغرب بنفسه من هذه الفكرة، إذ لم يفكر يوماً ما إذا كان الجو سيتغير وكيف سيكون غداً. لم يكن يهمه كيف سيكون الجو، إذ كان ذلك من هموم الكبار. ولكنه نضج قليلاً مرة أخرى اليوم.

أخذ المجرفة من الحظيرة أمام البيت، وصعد إلى السطح. لم يظهر العم بوكار بعد، ولم يصعد إلى الأسطح الأخرى أحد حتى الآن. كان الصبي يدرك أنه قبل احتشاد الناس في الفناء، عليه إزالة كل الثلوج الكثيفة من

السطح. بدأ بتنظيف حافة السطح. كان يتمنى أن ينسى ما حدث، ولكنه لم يتمكن من ذلك. لم يكن قادراً ألا يفكر في جده: «ربما لم يمت، بل ينام فحسب...». عند خروجه من البيت، رأى السبحة التي سقطت بجوار السرير، وأدرك انعدام جدوى أفكاره.

نظف جزءاً صغيراً من السطح من الثلج، عندما حضر إليه العم بوكار، وقال له، وهو ينظر في عينيه من تحت قبعته:

- دعني أساعدك.

لم يقل شيئاً آخر، بل بدأ يجمع الثلج على أطراف السطح ويسقطه. لم يمزح اليوم ولم يقل كلمات محفزة للصبي.

وصعد الناس إلى الأسطح الأخرى أيضاً.

فكر الصبي: «برؤيتهم العم بوكار على سطحنا، سيتكهن كثيرون أن الجد توفي، لأنه لا يمزح ولا يتبادل الحديث مع من هم فوق الأسطح الأخرى».

في الشرق، كانت السماء تسطع بأشعة وردية، ولكن الشمس لم تشرق بعد، ولم يصدر النهر الكبير صوتاً. زيادة كثافة الأشعة فقط كانت تدل على أن الزمن لم يتوقف.

قال العم بوكار:

- اترك المجرفة هنا. سنذهب لتناول الطعام وسنعود.

- لا أريد.

- لا تسير الأمور بهذا الشكل. كلنا فقدنا أجدادنا. ستسير على قدميك طوال اليوم، وعليك أن تأكل يا بني. لنذهب...

مر اليوم بسرعة، وامتلأ الفناء بالناس مثلما كان عليه أمس. تم نقل الجد إلى المقبرة. لم يقل أحد شيئاً للصبي. ذهب إلى المقبرة ضمن موكب الرجال الكبار. وعندما حاول الإمساك بنقالة جده بيده (لم تكن كتفه تصل إليها)، قال العم بوكار له بهدوء:

- ابتعد... ستسندني بكتفك، حين سيتم دفني.

كان الصبي راضياً عن انضباطه وهدوئه، وكان سعيداً لتمكنه من التصرف كرجل بالغ. تمالك نفسه حتى عندما كان يتم إنزال الجد إلى قبره. لأول مرة نظر إلى داخل القبر. كان رجلان شابان يضعان الجد في عمق القبر. ثم تراجع الصبي إلى الخلف، حين بدأ إسقاط الأحجار المسطحة على القبر. وعندما صعد هذان الشخصان من القبر، بدأ الرجال بإهالة التراب. كان كل واحد منهم يعمل بالمجرفة دقيقة واحدة، ثم كان يبتعد ويضع المجرفة على الأرض حتى يمسك بها رجل آخر ويلقي أيضاً بالتراب في القبر.

بعد وضعه المجرفة على الأرض، قال العم بوكار:

- خذ والقِ أيضاً، فهذا واجبك.

ظل الأمر بالنسبة إلى الصبي سراً، لماذا يتم وضع المجرفة على الأرض بدلاً من تناقلها من يد إلى أخرى. ألقى عدة مرات بالتراب إلى القبر الذي بدأ يمتلئ.

تكوّن تل فوق الحفرة، وتم نصب حجرين مسطحين على طرفيه. حاول الملا نور محمد صب الماء من إبريق على القبر، ولكنه تجمد. كسر العم بوكار الجليد بيد المجرفة وأعطى الإبريق للملا. صب نور محمد الماء، ثم ربط الحجر بموقع رأس الميت، وبدأ بتلاوة الصلاة.

بعد سماعه الصلاة، شعر الصبي مرة أخرى بالضيق والحزن. سعى مغلقاً عينيه، لتمالك نفسه حتى لا ينفجر في البكاء، ولكنه لم ينجح في ذلك. بعد ملاحظته ذلك، احتضن العم بوكار الصبي الذي كان يهتز تحت يده القوية، وهمس له:

- هذا يحدث أيضاً يا بني. اصبر. سألقي بكرتين من التراب على ظهرك، وستخف حالتك، وستبتعد أحزانك.

لم يقل الصبي شيئاً، بل كان يقاوم حتى لا يبكي. وبعد إلقاء كرات التربة المثلجة على ظهره، ازداد ارتعاشه. صرخ الصبي، وانفجر في البكاء، ولكن لم يقل له شيئاً أحد. استمرت الصلاة. كان الجميع يعانون قر الصقيع، واضعين أيديهم في جيوبهم، وهم ينظرون إلى الأرض.

فر الصبي من المقبرة خجلاً منه أنه لم يتمكن أن يتمالك نفسه، ولكنه لم يستطع الصعود إلى موقع احتشاد النساء. عبر جرياً حديقة التفاح الكبيرة كاملة، ووصل إلى مكان لم يره فيه أحد، واستغرق في البكاء.

بعد أن هدأ، شعر بالفراغ التام والخلو من أي فكرة أو شعور أو ذكريات، وكأن طبقة سميكة من الثلج كانت بداخله وخارجه.

- قم يا بني، علينا أن نغادر.

اهتز الصبي من كلمات بوكار، ولكنَّ يدي الرجل القويتين رفعتاه.

أحنى الصبي رأسه.

- عندما توفي جدي، بكيت أيضاً، ويجب ألا تخجل من ذلك... لنذهب.

أوشك النهار على الانتهاء. في البداية، نزلت خطوط السحائب على منحدر الجبل الأحمر، ثم زحف جزء منها إلى شالبوزداغ. ثم بدأت الثلوج تتساقط مرة أخرى.

في المساء، عندما بدأ الناس بالعودة إلى منازلهم، استغرق الصبي في النوم بجوار الموقد، وغطته الجدة بالمعطف. حلم بواقعة حدثت لجده أثناء الصيد.

يجري أرنب بري على المنحدر المغطى بطبقة كثيفة من الثلج، ويطارده ثعلب. يتجه الأرنب إلى الجد. ينظر إليه الجد، مندهشاً: «ألا يراني؟ أم أصابه العمى من الثلج؟». لا، إنهما يرياني. قفز الأرنب المجهد إلى يدي الجد. أطلق الجد طلقة في الهواء. اختفى الثعلب...

ظل الثلج يتساقط خارج النافذة طوال الليل...

«من الصعب أن تكون رجلاً. يجب ألا تكون هناك مهام سهلة على الرجل...»، هذه كانت أول فكرة خطرت على بال الصبي، عندما استيقظ في الصباح.

لم يتذكر الثلوج التي تساقطت في المواسم الشتوية التالية. كانت المواسم تأتي وتنصرف...

وظلت الثلوج تتساقط وتتساقط...

* * *

كان الرجل ينظر عبر نافذة شقة في المدينة إلى العالم الذي تساقطت فيه الثلوج الكثيفة مرة أخرى، واختلطت في عينيه الفرحة بالحزن. نقلته غزارة الثلوج ونِقاؤها إلى قريته في ذلك الزمن البعيد...

لم ينس يوماً تلك الثلوج الكثيفة التي تساقطت حين توفيت الجدة الكبيرة والجد... وكأنه نضج من تلك الثلوج التي علمته كيف يكون إنساناً ورجلاً...

تقول الجدة الكبيرة: «يا بني، ضع يدي على ذقنك، وأطلب منك، لا تقفز من السطح». يسمع صوتها الهادئ والنقي والناعم عبر الثلوج.

«ضع يدي على ذقنك، وأطلب منك...»، من ينظر عبر النافذة بعد أن نضج، يعلم أن أبطال هوميروس كانوا يتحدثون بمثل هذه التعبيرات. حينئذٍ شعر بالفخر مجتمعاً مع الفرحة.

أحضر الأرنب الذي ألقى بنفسه إلى حضن جده أثناء الصيد، إلى المنزل واعتنى به. ثم أفرج عن الأرنب بعد انتهاء صقيع الشتاء. بعد هذه الواقعة، توقف الجد عن الصيد، وأهدى البندقية للعم بوكار...

قال الجد: «يجب أن تكون هناك طيبة في قلب كل إنسان. هذا هو الدرس الذي أعطاني إياه الأرنب...».

«وربما الثلج؟..»، هذا هو السؤال الذي أراد من وقف أمام النافذة طرحه. وكان متأكداً أنه سيحصل على إجابة: «الثلج أيضاً...».

فكر من وقف أمام النافذة: «من الصعب أن تكون رجلاً. إنها مهمة مسؤولة. يجب ألا يبحث الرجل عن طرق سهلة، بل عليه أن يسير في الطريق الذي ينفتح أمامه...».

علم الآن، لماذا لم يكن الجد يسمح سوى للجدة (حتى لا لابنته) بأن تمسكه تحت الإبطين عندما تجلسه على السرير. كان يعتبر الجدة نصفه الثاني، وبات الأمر وكأنه يجلس بنفسه، محافظاً على كرامته.

فهم الآن، لماذا لم يتناقل الرجال المجرفة في المقبرة بين أيدي بعضهم البعض، بل كانوا يلقونها إلى الأرض. كان ذلك يعني أنه لا يجوز تناقل المصيبة، بل يجب أن تنقطع حتى لا يصاب بها الجميع. المجرفة الملقاة على الأرض كانت تتطهر منها...

تتساقط الثلوج خارج النافذة...

من ينظر إلى النافذة، يتجلى له جبل شالبوزداغ الذي يسمع دعاء الناس، ويجري النهر الكبير، ويتراكم الثلج على الفروع العارية لأشجار حديقة التفاح، ويتزلج الأطفال، وتتكثف السحائب على منحدر الجبل الأحمر... وهناك

في القرية من يروي القصص الموروثة من الجدة الكبيرة... وبين الثلوج تهيم أرواح الجد والجدة والأم... ربما تقترب من هذه النافذة أيضاً، ثم تعود...

الثلج لا يطهر الإنسان فحسب، بل يزيده نضجاً وذكاء وعقلاً. يذكرنا الثلج بما إذا كنا نكتب حياتنا بالطريقة الصحيحة، ويلزمناً بكتابتها على البياض فقط.

تتساقط الثلوج...

تتساقط...

تتساقط...

غيبيك كوناكبييف

في الحافلة

كان ذلك يوم السبت. في ذلك اليوم من الأسبوع، كانت القرية تضج بالحركة الشديدة. كان عدد كبير من الركاب يقتحمون الحافلات المتجهة إلى المدينة، لتملأها بشكل كامل. وبدا أن القرية ستصبح قريباً خالية من السكان تماماً.

والآن، فور تحرك الحافلة المنتفخة من الجانبين، ضغط السائق على المكابح بقوة، عندما لاحظ شاباً يجري خلف الحافلة. عند اقترابه من نافذة السائق، سأل الشاب:

- ألا يمكن الانتظار قليلاً؟

- ممكن.

أوقف السائق المحرك.

انتعشت المحادثة بين الركاب، وبات الركاب في الجزء الأمامي يتبادلون كلمات مع من خلفهم.

سألت سيدة عجوز جالسة في المقعد الأول بخجل:

- لماذا نقف يا سائق؟

- ننتظر شخصاً واحداً. ننتظر قليلاً؟

رد البعض:

- لا داعي للاستعجال.

وصمت آخرون، مقطبينَ حواجبهم بغيظ.

انصرمت فترة نصف ساعة. نظر السائق إلى المرآة الجانبية، وقال:

- لم يحضر أحد، لنتحرك.

طلب الشاب مرة أخرى:

- أرجو منكم أن تنتظروا قليلاً.

سأله السائق:

- هل ستحضر الأم؟

هز الشاب رأسه علامة الإيجاب، واحمر حتى طرفي أذنيه.

نصحه السائق:

- لتذهب باتجاهها لتساعدها في حمل حقائبها الثقيلة.

- ليس لديها حقائب.

ثم انحنى الشاب إلى السائق، وهمس في أذنه:

- للأمانة، فإنني أنتظر صديقتي.

- إذن سننتظرها حتماً.

- أرجو منك أن تهدئ الصوت، لأن واحداً من هؤلاء الشيوخ، صاحب اللحية هو عمي والشقيق الأكبر لوالدي.

مرت ساعة.

صرخت امرأة كانت تنقل الدجاج للبيع:

- من ننتظره طوال هذا الوقت ومتى سنتحرك أخيراً؟

وقالت أخرى، وهي تطمئن على البيض في الدلو البلاستيكي:

- لا مجال لمقارنة السوق الصباحية بالمسائية.

وأضافت امرأتان في مؤخرة الحافلة، وهما تعدلان أكياس البصل والمكانس.

وقالت عازفة أكورديون كانوا ينتظرونها في حفل زفاف في الصباح:

- سأعزف لكم قليلاً طالما نحن واقفون.

أفاق زميلها الطبال من النعاس وأمسك بالعصي، بدأ يطبل وفق إيقاع اللحن. شاب لم يفق بعد من السكر ليلاً، رغب في الرقص. تراجع الركاب إلى الخلف قليلاً، تاركين له ساحة صغيرة. بعد الشاب، تذكر الكبار مهارتهم في الرقص. تحول الرقص تدريجياً إلى الغناء. كان أربعة شيوخ يتذكرون الماضي ويضحكون بصوتٍ عالٍ، بعد أن تذكروا شيئاً مضحكاً، على ما يبدو. تبادل الركاب النظرات، ونظروا إلى الخارج.

... بدأت الشمس تغرب.

توجه البعض إلى بيوتهم، البعض لرعاية المواشي، وآخرون لإعداد وجبة العشاء. أخرجت امرأة مكنسة من الكيس، وأهدتها للسائق حتى ينظف الحافلة. جمع باقي الركاب ما لديهم وأعدوا وجبة عشاء. بدأ البعض بترتيب المكان للمبيت. بدأ الشيوخ يتحدثون همساً. أما السيدة التي كانت تنقل بذور عباد الشمس للبيع، فلم تترك الدجاج دون الغذاء المسائي.

... مر أسبوع.

لم يبق في الحافلة سوى الركاب الجالسين. إذا كان بين الحين والآخر يدخلها أحد، فسرعان ما كان يغادرها بعد أن كان يعلم أن الركاب ينتظرون فتاة واحدة. تحول الرجال إلى موضوع آخر. أخرجت الطبيبة الجدول وشطبت على أسبوع من إجازتها. في الصباح، يغادر كثيرون إلى العمل، وفي المساء يعودون إلى الحافلة. وقع شاب في مؤخرة الحافلة في غرام فتاة كانت مسافرة برفقة والدتها. أدركت الفتاة ذلك، وبين الحين والآخر، كانت تنظر إلى الخلف مبتسمة ومشعلة النار في صدره.

بدأ الشاب المنتظر لفتاته بكتابة الشعر. خلال أسبوع مضى، كتب دفتراً كاملاً. عرضها على السائق، فطلب منه أن يقرأها للركاب. والآن اتضح للجميع من هي السبب في وقوف الحافلة طوال هذه المدة. احمرَّ وجه الشاب لدى قراءته القصائد الأولى، ثم ازداد صوته قوة، أعلن بثقة لجميع الحاضرين أنه سينتظر حبيبته حتى النهاية. نصح بعض المستمعين الشاب بأن ينشر قصائده في الجريدة، وهذا ما فعله.

... مر شهر.

انتهى الشتاء، وازداد صالون الحافلة دفئاً. علم الجميع بمشاعر الشاب في مؤخرة الحافلة تجاه الفتاة التي كانت مع والدتها. قرروا إيفاد الشيوخ إلى والدي فتاة، بعد أن أنهوا محادثتهم بالطبع. ازداد الدجاج حيوية، وبدأ يقرقر. صعدت دجاجة إلى دلو البيض، وجلست فوقه حتى الصباح. اضطر الركاب لتوزيع الدجاج على مختلف الأركان ووضع البيض أسفلها. نبتت براعم البصل في الكيس. بدأ الركاب بالعمل معاً، وزرعوا البصل بجوار الحافلة. تم تقسيم صالون الحافلة إلى القرى: اليمنى واليسرى والأمامية والخلفية. تم انتخاب السائق ناطقاً مسؤولاً بالإجماع. إنه يستمع إلى الإذاعة، ويبلغ الركاب بجميع الأخبار.

يقرأ الشاب قصائده الجديدة. بدأ بكتابة رواية. هنا من دخل إلى الحافلة وبعد علمه بمن ينتظرونها، أعلن أن الفتاة اختطفت مؤخراً وعقد قرانها يوم الأحد الماضي.

قال أحد الشيوخ:

- لا وجود لمثل هذا المكر في قريتنا!

وأضافت قريبة الفتاة:

- هي من سلالة عريقة!

تذكر السائق سيارة «فولغا» السوداء التي مرت بهم قبل نحو شهر، وقال:

- في هذه الحالة سنتحرك.

بدأ الشاب يلح مرة أخرى:

- لا أصدق ذلك! أرجو منكم أن ننتظر قليلاً.

وافق السائق المتعاطف، قائلاً:

- إذن سننتظر.

... مر عام.

خلال تلك الفترة، أجرى السائق صيانة شاملة لحافلته. أصدر الشاب الشاعر أول ديوان له. أقام الركاب أخيراً حفل زفاف الشاب من «القرية

الخلفية» مع الفتاة التي كانت مع والدتها، وأطلقوهما إلى المنزل فوراً. وصل الشيوخ في ذكرياتهم إلى سنوات الشباب. أفرخ البيض تحت الدجاجات جميعاً. تفقست الكتاكيت شجاعة، وباتت تنمو في غضون ساعات لا أيام. أنجبت راكبتان، إحداهما بنتاً وأخرى ابناً. أطلق على البنت اسم عزيزة وعلى الولد عزيز. تفحص الطبيبة حالتيهما بانتظام.

... مرت ثلاث سنوات. دهن السائق الحافلة باللون الأصفر البرتقالي. تم قبول الشاب في اتحاد الكتاب. باتت العائلة التي تكونت في الحافلة، تربي ابناً في الثانية من العمر. استنفد الشيوخ قصصهم. لم يبقَ في الكيس سوى أربع مكانس، وكانت المرأة تفكر في العودة إلى المنزل. إلا أنها غيرت رأيها بعد أن علمت أن أسعار المكانس ارتفعت بشكل كبير. أسس الركاب لمزرعة طيور صغيرة خلف الحافلة...

سأل أحد الشيوخ متعباً:

- ربما كفانا انتظارا؟

وأيدته صاحبة المكانس، قائلة:

- كفانا، بالطبع، ننتظر منذ ثلاث سنوات، وربما لن تأتي على الإطلاق.

وقالت صاحبة كيس البصل:

- يقال إن أسعار البصل ازدادت.

وأضافت العازفة:

- سيقيمون حفل زفاف للابن الثالث، أتمنى أن أحضره.

وتابعت المرأة التي جمعت دلوين من البيض:

- حان، ومنذ زمن، الوقت للمغادرة.

وأيدتها صاحبة الدجاجات.

قرر السائق:

- إذن سنتحرك.

صرخ الشاب، مشيراً بأصبعه إلى امرأة شابة مقتربة:

- ها هي قادمة!

جعلت المرأة ابنها يصعد درج الحافلة أولاً، ثم دخلت بنفسها، وقالت:

- كنت أزور والدي، ومن الجيد أنني حضرت في الوقت المحدد.

عندما التفت، لاحظت الشاب الذي كان ينتظرها، وقالت:

- وأنت هنا أيضاً؟ كيف حالك؟ فقد نضجت وحتى أصبح شعرك أشيبَ في بعض الأماكن. يقال إنك أصبحت شاعراً؟ نقرأ شعرك أحياناً، ويعشقه زوجي جداً.

أصيب شابنا بصدمة أولاً، ثم بات كل شيء واضحاً بالنسبة إليه. ظل الطفل يشد فستان أمه، سائلاً لماذا لا تتحرك الحافلة. كان يشبهها كثيراً. شحب وجه الشاب واحمرّ، واحترق في أعماقه...

سألت المرأة الشابة:

- لماذا لا تتحركون، هل تنتظرون أحداً؟

نظر جميع الركاب إلى الشاب:

قال بصوت منخفض:

- لنتحرك، فقد حضرت.

تحركت الحافلة ببطء أولاً، ثم ازدادت سرعتها، وهي تنقل الركاب إلى المدينة. كنت زوجاً لتلك المرأة التي انتظرتموها طويلاً. كنت مستعجلاً، ولكن فوتت تلك الحافلة. ولم يبق لي سوى أن أودعها بنظرتي وأكتب هذه القصة القصيرة...

فياتشيسلاف أر-سيرغي

اختفاء «باديش»

رست قريتي

عند الكرة الأرضية الكبيرة...

نحن نرافق قطيعاً كاملاً من الخيل. 40 رأساً عدا المهور وما هي في عمرها. العديد من الخيول ذات حدوات، طقطقة حوافرها تجعل النجوم في السماء السوداء تهتز. ونحن نطاردها أبعد فأبعد. نحن، أي ميكلاي وغاران وأنا أصغرهم.

يبدو أننا وصلنا إلى الوجهة المقصودة! فقد رعيناها. توجه ميكلاي إلى الأمام، وهو يلوح بالسوط، موقفاً الخيول بإشارةٍ مخضعةٍ منه.

ما أجمل حصان ميكلاي. رقبته مرنة وعالية، ويلمع ظهره بالطلاء الأسود، وترتعش خياشيمه، وصدره قوي وعريض، وجداته جافة، وذيله مثل رغوة الموجة. وشهرته «باديش» [10] لم تطلق عليه لمجرد أن ساقه بيضاء حتى الركبة، بل لأن تويمات، وهو أخلص أنصار أوميل بوغاتشوف، والذي كان يقود فرقة الأودمورت في قوات المقاومة، كان فارسه اسمه «باديش» أيضاً. وتقول الأساطير إن «باديش» كان أسرع وألطف وأقوى أحصنة تويمات وأكثرها وفاء.

أتخيل تويمات نفسه محل ميكلاي الأشعث المرتدي سترة متهالكة، فوق «باديش» السريع. يضيف ضوء القمر والنجوم المبكرة وظلال الأشجار، ملامح جديدة إلى خيالي. لذلك تعجبني رعاية الخيول ليلاً...

يا ليت كان لدي مثل هذا الفارس حتى أجري بـ«باديش» السريع... لا، لا، حتى في أفكاري لن أخطئ في حق الصديق الطيب تايزاك الطيب. حصاني الطيب تايزاك لن يسقطني ولن يعضني أبداً، وسيجد الطريق إلى المنزل في

أي ظروف جوية وفي أي ظلام رغم أنه وحيد العين. خلال سنوات عمره، حفظ كل حزمة عشب وكل عقبة في المنطقة.

يتغذى بشهية في الحقل، وتمسك شفتا الحصان بالأعشاب المرصعة بالطل، ويبتسم له الهلال الذي ينعكس في مرآة البركة.

كلوا، كلوا بالهناء والشفاء، تغذوا بقوة الحقل، وسنعمل غداً من جديد: هناك من سيجر العربة، وهناك من سينقل الراعي في سرجه، وهناك من سيجمع التبن بالمكشطة. تمر ظلال الأحصنة في الضباب، رافعة نادراً رؤوسها فوق الضباب، لتنظر إلى بعضها البعض، ثم تنحني إلى العشب مرة أخرى. ستشبع وسترقد. أنا في طرف الحقل، وغاران عند الغابة، وبعدها يقفز ميكلاي على باديش المشاغب. لا يعرف الهدوء، ولا يتركه لحصانه. بعد مرور بعض الوقت، تسمع إشارة ميكلاي، حان الوقت لإشعال النار والاسترخاء. ازداد ضوء النار تألقاً، وازدادت كثافة الظلام، ليشبه قطران راعي الأحصنة تيموك-أغاي [11]. تحترق فروع شجرة التنوب. أخرج البطاطا من «بيستير» [12]، وألقي بها إلى الفحم. يخرج غاران فطائر طازجة، وميكلاي زجاجة حليب، ثم كتاباً كبيراً... يا ترى... ماذا هناك؟..

اقترب غاران منه، وبات النمش على أنفه أكثر وضوحاً، وقال: - ابدأ. ألا تتذكر أين توقفنا؟

توجه ميكلاي بالحديث إلي، قائلاً: - نقرأ يا سيرغي كتاباً لا يمكن الانقطاع عنه! مؤلفه يدعى شولتز.

لم يتمالك غاران نفسه وقرر التباهي بعلمه، رفع أصبعه، قائلاً: - جيمس ويلارد شولتز.

قال ذلك بطريقة، وكأنه هو الذي أملى الكتاب على شولتز ما أو كان يعرفه عن قرب على الأقل.

وقال ميكلاي:

- عاش شولتز طويلاً بين الهنود في أميركا الشمالية، وكتب عنهم... كتاب عن الصياد العظيم البيزون المتفرد. ذات مرة لم ينصت لشيخ القبيلة وقتل البيزون في وقت الحظر. كان من الخطأ أنه لم يلتزم بالحظر. هرب القطيع، وعانت القبيلة من الجوع...

انحنى ميكلاي على الكتاب، ووهج النار يضيء وجهه وصفحات الكتاب. ونتيجة لذلك يبدو خطابه حيوياً بسحر، وتكتسب كل كلمة له وزناً.

... كنت أمسك البندقية بيدي، وألقت الرياح شعري إلى كتفي، وفي قدمي حذاء خفيف، وتحت السرج تايزاك الحصان الفتي السريع. أجري مع البيزون المتفرد في مرج لا حدود له. يظهر الأعداء بين الحين والآخر وسط الظلام، يطوقني حشدهم، ولكن يدي لا تزال وفية، والعين دقيقة...

نعقت بومة في الغابة القريبة، وسمع فوراً صوت مواء تحول إلى تنهد. وكل ذلك في نفس المكان. البومة وبومة النسر... هل نادتكم؟ اهتزت الأحصنة، وهدأت. تطلعنا مرة أخرى إلى النار.

قال غاران، مخرجاً بندقية يدوية الصنع: - يجب قتل البومة الصماء.

اتضح أن لديه بندقية بدائية... تكاد تكون مسدساً...

قلت له:

- ليس من ذنبها أن لها مثل هذا الصوت. وكيف ستجدها في الظلام؟ وكأنها إبرة في التبن...

من الأفضل أن تعطيني البطاطا حتى نجربها، يبدو أنها جاهزة. كل! ثم سننتهي من قراءة الكتاب، لا تزال أمامنا ليالٍ كثيرة...

الآن فقط تكهنت بالغرض الحقيقي للأحزمة التي كانت تربط الشعر في جبهات أصدقائي، وأصبحت أفكر بنفسي أين أحصل على مثلها!

والبطاطا لذيذة جداً! خسر كثيراً من لم يجربها. وإذا أضفنا إلى هذه البطاطا الساخنة النور البعيد للنجوم المومضة في السماء السوداء، وصفير الطيور الليلية على أطراف الغابة، وروائح الزهور التي تنقلها رياح ناعمة ودافئة، وصوت التيار القريب...

تتنفس الأحصنة، وتنجذب المهور إلى أثداء الأمهات، وترقد بطريقة تكون أكثر دفئاً وراحة.

قال ميكلاي، مخرجاً الخبز من الحقيبة المدرسية القديمة: - سأذهب لكي أطمئن على باديش. إنه قلق اليوم وكاد أن يعضني...

اختفى ميكلاي في الظلام، وأصاب غاران النعاس، وأرخى رأسه على صدره دون أن يترك السوط من بين يديه. اقترب تايزاك من النار. لا أربطه، ولن يذهب بعيداً. دغدغ ذقني بشفتين طالباً خبزاً. إنه يحب الخبز. وإذا خدشت رقبته، فسيغمض عينيه من المتعة.

فجأة ظهر ميكلاي وسط الظلام، وقال: - اختفى باديش.
ابتعد تايزاك فوراً، وكأنه كان مذنباً في شيء.

فرك غاران عينيه، وقال:

- كيف اختفى؟

- هكذا. إنه غير موجود في أي مكان!

لف ميكلاي حول النار بقلق.

سأل غاران:

- ربما فر إلى قطيع ياكشور؟ إنه ليس بمنأى عن المكان في وادي «إلينسكي» ويبعد عنا ثلاثة كيلومترات فقط.

وأضفت:

- ربما خطفه الغجر؟

قال ميكلاي:

- أي غجر!إنهم لم يتواجدوا هنا يوماً... لكن أين اختفى باديش؟ يطلبه رئيس الفرقة، وإذا لم نجده حتى يوم غد، ستكون هذه مشكلة...

اندهش غاران:

- يبدو لي أنك ربطته!

- نعم، بالحبل... إنه أمر غريب حقاً... سنعمل الآتي. ستبقى هنا يا غاران وستتولى مسؤولية رعاية الأحصنة، وأنا وسيرغي سنذهب للبحث. أعطني لجاماً احتياطياً...

نتوجه أولاً إلى وادي «إلينسكي». بدت طلائع الشمس في الشرق. سرعان ما وجدنا قطيع الجمعية التعاونية الزراعية المجاورة. أثناء نزولنا إلى

الوادي، اضطرب حصانانا، ورد عليهما كبير القطيع الآخر بالصهيل. لا، إنهم لم يروا باديش هنا، وهز الرعاة أكتافهم مثلنا...

قرر ميكلاي:

- سنبحث في الأودية الصغيرة، وفي هذا الوادي أولاً! أنت ابحث في الجانب الأيسر، وأنا في الجانب الأيمن!

دفع حصانه واختفى وسط الأحراش. وكأنه يدرك أهمية ما يجري، نسي تايزاك أنه عجوز، فجرى خبباً بسرعة. لم يعد يستخدم للأعمال الشاقة، فجمع قواه. وكان يجري، وأنا أمسك عرفه بقوة. نحن، سكان القرى، لا نحتاج إلى تعلم ذلك. لكن أين باديش؟ ربما عند النبع الأبيض؟ أرافق تايزاك إلى النباتات الكثيفة. يقال إن شرطياً قيصرياً قتل هنا شاباً فر هرباً من ضرب أسياده. وحتى حافظت الأسطورة على اسمه، وهو زيزمي. ومنذ ذلك الوقت، هناك روح تبكي بالقرب من هذا المكان... المياه في النبع باردة وشفافة، وتطلق عليه التسمية الشعبية «الأبيض». صرخت مغمضاً عيني من الخوف: - باديش!

إلا أن صراخي ضاع وسط كثافة الأشجار على منحدر الوادي. أغادر الوادي. لم أر الشبح ولا باديش. خسارة!... تخيلت فوراً الوجه المؤنب للمسؤول كوندا-أغاي: «لا يمكن الثقة فيكم في شيء...». رأيت فوقي ميكلاي. كان حزيناً، مما يعني أنه لم يجد باديش أيضاً...

تتردد في محيطنا أصواتنا، وصهيل تايزاك يكررها: - باديش! باديش!..

أقول من دون أي أمل:

- ربما ذهب إلى المنزل.

- لا خيار سوى التأكد من ذلك...

باتت حظيرة الجمعية التعاونية الزراعية جلية للعيان، والكهرباء تنير في النوافذ. نربط الأحصنة وندخل. يستقبلنا العجوز أورتكيميه تيموك المسؤول عن الأحصنة، وهو ذو لحية شيباء، ولكن سرواله العسكري يترك انطباعاً بأنه مدير.

سألنا ضاحكاً:

- لماذا أنتم منزعجون؟

- تيموك-أغاي...

- ماذا حدث؟.. أجيبوا بوضوح مثلما كان يعلمنا جوكوف أثناء الحرب.

بدأ يهز شاربه بغضب، ولكنه ابتسم أيضاً.

- هل فقدتم باديش يا شياطين؟

أُصِبنا بدهشة: «يا للرجل العجوز!إنه يرى كل شيء...».

قال لنا:

- لنذهب.

خرجنا إلى الفناء الذي يحيطه السور. جلبت الرياح الصيفية الدافئة رائحة الروث.

- ها هو.

أشار تيموك-أغاي بأصبعه إلى باديش، وهو واقف بجوار السور، وبجانبه أنثى حمراء، وبينهما مهر صغير.

تنفس ميكلاي باطمئنان.

- لاحظ أنه حان وقت أن تلد، وعند منتصف الليل، جرى باديش مثل السهم وقفز فوق السور وحتى كسر السياج. قلب الأب ليس حجراً، بل إنه يشعر. يفهم الحصان أحسن من بعض الناس...

تسقط أشعة الشمس الأولى على المهر. إنها أشعة أول يوم في حياته. وبجانبه والده باديش القوي والعالي، وأمه كيزيلي [13] اللطيفة التي تلعق ابنها...

يهمس ميكلاي بانبهار:

- إنه صورة من والده!

يقول تيموك-أغاي:

- لنذهب يا شباب حتى لا نزعجها، وحتى لا نكون سبب وقوع عين حاسدة على الأحصنة...

والآن، يلاحظنا باديش، ويرفع رأسه وينتشر صهيله في كامل عالم الله المضيء في الصباح.

ماشار أيضميروفا

في الطريق الطويل ليلاً

كان يحلم.

حلم جيد انتظره طويلاً.

كان الوالد حياً، وكان يستمع إلى ابنه بانتباه، ويروي شيئاً ما باستعجال خشية من أن هذا الشخص العزيز الذي يفتقده في هذه الحياة المقلقة وعديمة الفرحة قد يختفي مرة أخرى. كان الصبي يشارك والده ما بداخله من اختلاط المرارة بالفرح. كان يبكي ويضحك. لم يقل الوالد شيئاً، بل كان ينظر إليه بحزن ويداعب رأسه برفق. ثم أمسك يده واصطحبه إلى الحديقة التي كان يفتخر بها، عندما كان على قيد الحياة. كانت تنمو هنا جميع أنواع أشجار الفاكهة تقريباً. مد الصبي يده إلى تفاحة، ولكنه لم يصل إليها. قطع الوالد أكبر تفاحة، ومدها لابنه مبتسماً. اقتربا من الأرجوحة. أجلس الوالد ابنه عليها ودفعها بصورة خفيفة. سرعان ما نسي الصبي كل ما هو سيئ ومقلق. ازدادت سرعة الأرجوحة تدريجياً. كتم نفسه في أثناء التحليق، وكان يتألق بالسعادة والبهجة. كان الطفل مستعداً للموت من أجل هذه اللحظات التي لن تتكرر. وراح الوالد يضحك معه، ويدفع بالأرجوحة أكثر فأكثر إرضاءً لابنه. كان أربي يصعد كل مرة أعلى فأعلى إلى عنان السماء. وفي اللحظة التي كاد أن يلامس فيها السحاب، فوجئ أربي بصوت والدته المليء بالقلق والخوف واليأس:

- يا أربي، يا بني، استيقظ يا عزيزي!

سقط الصبي من الأرجوحة مرعوباً لدى سماع هذا الصراخ،. حاول والده مساعدته، ولكن وجهه تشوه من الخوف والألم...

فتح الصبي عينيه بصعوبة، واستغرق وقتاً طويلاً إلى أن ثاب إلى رشده. شعر بالدوخة من الأرجوحة التي رآها في المنام، ولم تزل صورة الوالد ماثلة أمامه... قلبه يئن. ما أصعب العودة إلى الواقع! إنه انتعش في المنام، وحزن

مرة أخرى الآن. لقد أتم اليوم عامه الـ13. في مثل هذا اليوم العاشر من فبراير قبل عام، قُتل والده. أصبح عيد ميلاده هذا هو أحزن يوم في حياته.

كانت الأم تستعجله، قائلة:

- اقتحم العسكريون المدينة! يجب الفرار! قم بسرعة والبس ملابس دافئة، بينما سأجمع الطعام.

نظر الصبي إلى المرآة. بدا له أن العالم أجمع يرتعش وينقطع إلى أجزاء من الانفجارات ودوي الطلقات والرشاشات. كان الناس المرعوبون يهربون، وهم يجرون خلفهم أطفالهم الباكين، ومسندين المرضى والشيوخ. في بعض الأماكن، كانت البيوت تحترق، ويتعالى منها عمود طويل من الدخان الأسود إلى السماء. اتحد الجميع في معاداتهم اليوم. بدا ذلك اليوم شنيعاً وبارداً وبلا رحمة. كانت الرياح الشرسة تلقي بندفات الثلج التي كانت تلتحم بالنوافذ وتذوب فوراً.

اندهشت الأم، قائلة:

- أنت حتى لم تقم يا أربي! لن تنتظرنا الحافلات.

- إلى أين سنذهب يا ماما؟ من يحتاج إلينا؟ الجميع في وضع صعب الآن. لنبقى هنا، وليحدث ما يحدث.

ركعت الأم أمامه، واحتضنته، وانفجرت بكاء.

- عزيزي أبري، هل أخاف على نفسي؟! أخاف عليك وعلى حياتك! لم يبق لي سواك. أعيش وأتنفس من أجلك! هناك أشخاص طيبون في العالم سيستضيفوننا. لن نشكل عبئاً كبيراً عليهم.

انكمش قلب الصبي من المشاعر التي غمرته والتعاطف مع هذا الشخص العزيز والمحبوب بلا حدود. صرخ قلبه: «عزيزتي ماما، أنت شابة جداً، ولكنك هرمت! كم كانت الحياة قاسية معنا! ابتعدت السعادة عنا. إنك قوية جداً في حبك وعاجزة في وحدتك! يا الله، هبني القوة حتى أحميها وأرد لها الجميل على حبها ومعاناتها!».

عدل بيديه الرفيعتين غطاء رأس والدته، مغطياً ضفيرتيها الطويلتين ذات الشعر الأشيب والتي كانت هي والوالد كثيراً ما يتأملان في جمالهما. نظر إلى عيون أمه المليئة بالدموع، وفجأة قال بصوت جاد:

- لا تخافي من شيء يا ماما. لا تقلقي علي، ولا تحاولي إنقاذي. سأكون أنا حاميك الآن. قومي، وسيكون كل شيء على ما يرام.

أخذت مارجان تذرف الدموع لدى سماع هذه الكلمات، وفارقها ما تبقى لديها من القوة. تعبت من الكفاح في هذه الحياة. تعبت من الحياة والأمل. تعبت من الخوف على ابنها والغد. ارتدى الابن ملابسه، وكان ينتظر بصبر متى تهدأ الأم.

لامست الرياح وجهيهما بعدوانية، متوعدة بألا تكون رفيقاً جيداً، بل حاولت إسقاطهما، وكانت تهب في وجهيهما مباشرة. كانا ينحنيان حتى لا يصابا بالطلقات العشوائية، مختفين خلف البيوت من القناصة، فوصلا إلى الحافلة بصعوبة. كان هنا عدد كبير من النساء والأطفال والشيوخ، حاولوا استخدام آخر فرصة للهروب من هذا الجحيم. لم تكن الطلقات حولهم تميز بين الأصدقاء والأعداء. وهل كان هناك أصلاً أصدقاء وأعداء؟ إنه أمر واحد، والكل غريب. حالة من الفوضى والانهيار وغياب الأفق في كل مكان.

كان الجميع يستعجلون بعضهم البعض، وعندما استدارت الحافلة، سمع صراخ امرأة شابة برفقة طفلين صغيرين جعل الجميع يرتعشون. كانت تتوجه بالدعاء إلى الله تعالى وجميع القديسين وتقطع شعر رأسها. انفجر الطفلان في بكاء أخمد صراخ الأم. كانت تدفع بالنساء اللواتي كن يحاولن تهدئتها، وكانت تصرخ في حالة من الهيستريا:

- أيها الناس، انظروا إلي واسخروا مني! اللعنة على أم مثلي... فقد نسيت طفلي في القيلولة... نسيت...

هرعت إلى المخرج، مطالبة الناس بأن يراعوا طفليها، واختفت خلف ركن أقرب منزل. لم يلمها ولم يدنها أحد. لم يعد هناك شيء يثير الدهشة وسط هذا الرعب.

توجهت قافلة اللاجئين إلى عظمة- يورت بعيداً عن المدينة المشتعلة. كانت الطبيعة تنافس قسوة البشر. والقر يتسرب إليهم حتى النخاع، موحداً حمى الخوف ورعش البرد.

انكمش أربي على صدر الأم في حالة من القلق. كان يعشق الأغاني الشعبية، وبدأ يغني إحداها من أداء سلطان محمدوف: «وطني بلاد الشيشان». لم يكن يغني بصوته، وإنما بقلبه. ملأته الأغنية تدريجياً، ليعلو صوتها فوق الصوت العشوائي للسلاح. كان أربي يستمتع باستنشاق رائحة شعر الأم. بدا

له أنه يسمع كيف اشتبك في قلب أمه الألم بالحزن والقلق. مع كل انفجار جديد، كان القلب يتجمد، ثم ينبض نبضاتٍ متسارعة مرة أخرى.

كان الطريق زلقاً، ولكنهم ابتعدوا عن غوديرميس، وباتوا في مكان آمن الآن.

فجأة صرخت النساء، والرعب في عيونهن:

- انظروا، هناك مروحيات!

فصاح رجل عجوز مريض، مؤنباً:

- لماذا تصرخن وتخفن الأطفال؟ ستمر المروحيات. هذه قافلة من أناس عزل مسالمين.

ولكنَّ الطيارين كان لهم رأي آخر.

اهتزت الأرض من الانفجارات. اشتعلت حافلة اللاجئين الذين بدأوا يقفزون منها، مكدسين بعضهم البعض في حقل مغطى بالثلوج. ولكن لم يكن هناك مفر أمامهم، إذ كانت الطلقات تطاردهم في كل مكان. كانت المروحيات تحلق في السماء، مطلقة الصواريخ والرصاص، وتروي الحقل بدماء الناس.

كان أربي عاجزاً عن فهم شيء. كان واثقاً بأن الطيارين لا يرون من يطلقون النار عليهم. ولكن شكوكه سرعان ما تبددت. كانت المروحيات تلتف للهجوم القادم، واقتربت إلى مسافة قريبة جداً منهم. حينئذٍ رأى الصبي ما سيتبقى في ذاكرته إلى الأبد: وجوه العسكريين، وبها شغب الصيادين. أصيب أبري بصدمة.

أمسكت مارجان ابنها، وقفزت مع آخرين إلى الطريق. لم تكن تصرخ مثل الآخرين حولها. في عينيها السوداوين مثل الفحم وحدهما، انعكس رعبها مما يجري. احتضنت ابنها بقوة، وهرعت إلى الغابة بقوة، وكأن الغابة الشتوية العارية كانت قادرة على إيوائهما وإنقاذهما من الرصاص.

خرج أبري بصعوبة كبيرة من حضن أمه، وصرخ:

- يا ماما! ارقدي! ارقدي على الأرض!

حاول الصبي تغطية أمه بجسده الصغير، ولكن مارجان سبقته بحركة قوية، فوجد نفسه تحتها. كتما أنفاسَهما. ورقدا على الأرض، وكان يسمع اهتزاز

أرضه الأم من الألم والضيق. تذكر كلمات والده: «الأرض يا بني، تحتاج إلى اللطف والاعتناء. لا يجوز التضييق عليها، فهي لن تضيق عليك. يجب أن تتذكر دائماً أن الأرض تغذينا وستستقبلنا بعد الموت».

مرت عشر دقائق، وبدا أنها كانت زمناً طويلاً. وفجأة حل الصمت. صمت بارد مثل القبر. ابتعد ضجيج محركات المروحيات باتجاه غوديرميس.

بدأ أربي يتحرك.

- قومي يا ماما، فقد انتهى كل شيء.

ظلت مارجان صامتة. شعر الصبي، وكأنه سكب عليه ماء بارد.

ناداها بإصرار:

- يا ماما!

سقطت قطرة ساخنة إلى خده، ثم سالت إلى الثلج الأبيض أمام عينيه.

أصيب بصدمة. هذا دم... قطرة أخرى... وأخرى، وأخرى...

ارتعش أربي بكامل جسده: «يا ماما! لا! إلا ذلك!». خرج من تحت جسدها، وجلس القرفصاء مرتبكاً. كانت الأم ترقد على الأرض ميتة، وضفيرتاها ممتدتان على الأرض، وكأنهما ثعبانان أسودان. كان هناك جرح في رأسها، وكانت تسيل منه الدماء بغزارة، تاركة آثاراً وردية على الأرض. كان أربي يخشى من لمس الأم خشية من إدراك الحقيقة.

ناداها بهدوء:

- يا ماما!

وكان منتظراً أن يسمع ردها اللطيف المعتاد: «ماذا يا عزيزي؟»، ولكنه لم يسمع مثل هذه الكلمات. لفها الابن بيديه المرتعشتين، وشعر بالبرد. كان وجهها شاحباً، وفي عينيها رعب وألم، وصرخة من الروح على شفتيها. جلس الصبي بجوار جسدها طويلاً، دون أن يسمع أو يلاحظ شيئاً حوله. وعندما لمسه أحد، حتى لم ينظر خلفه.

- لنذهب يا صبي، غفر الله لها. قم. سيرسلون سيارات لنقل الموتى. لن نتمكن من نقلهم اليوم، لأن عدد الضحايا كبير جداً.

كان أربي صامتاً، ولم ينظر إلى المتحدث. بعد أن استفاق، نظر حواليه بعيينن فارغتين. كان الطريق الشتوي مغطى بجثامين القتلى، وكان الدخان يتصاعد من السيارات. هدأت العاصفة، وكأنها خشيت مما رأته، وهربت من موقع المجزرة. كان الصمت يضغط ويكاد أن يُفقد الإنسان العقل.

وقف أربي وحيداً في هذه الصحراء الدموية، كان وحيداً مع مصيبته. كان الوعي يعود إليه تدريجياً. وقلبه ينبض: «واحد، واحد، واحد». إنه وحيد في العالم أجمع. إنه ولد وتوفي اليوم... في مثل هذا اليوم قبل عام، فقد والده، وحينئذٍ فقد نصف حياته، والآن الأم. لم يكتمل عامه الـ13 اليوم، بل عامه الـ100. شعر بالاختناق في الحلق. لم يكن يبكي سوى نادراً، إذ كان يخشى ويخجل من دموعه. ولكنه لن يقاوم هذه الرغبة اليوم. سيبكي على رحيل والده ووالدته، وعلى نفسه وعلى جميع الموتى والأحياء، وعلى الأرض الأم، ولهذا انفجر باكياً. كانت الدموع تحرق روحه وعينيه ووجهه ويديه. كانت تحرق الثلج وتنحل في الدم المتسرب من جرح الأم. كانت تحرق الصمت وزرقة السماء والعالم أجمع.

مد يديه إلى السماء، وصرخ:

- يا الله! لماذا تعاقبني وتجبرني على مثل هذه المعاناة؟ إنك ترى أنني ليس لي ذنب في شيء. لم أسرق شيئاً من أحد، ولم أخطئ في حق أحد، ولم أتسبب في ألم لأحد. لقد حرمتني من والدي... كان من الأفضل أن تأخذني أنا. كان بإمكانهما أن ينجبا أطفالاً آخرين، ومن سيحل محلهما بالنسبة إلي؟... إلى أين أذهب الآن، ومن يحتاج إلي؟

ظل يتحدث طويلاً مع الله، مطالباً بالإجابة عن أسئلة هي ليست من أسئلة الأطفال.

كانت السماء صامتة.

كانت الأرض صامتة.

تجمد الصمت الثلجي.

احتضن أربي رأس الأم المخضب بالدماء، وراح يقبل يديها الباردتين، ويناديها هي ووالده حتى لا يتركاه. فقد صوته، وتحول بكاؤه إلى صرخات. قرر الصبي البقاء هنا مع الأم والموت بجانبها. بحلول الصباح، سيعثرون على جثمانه البارد، وسيتحرر من كل متاعب الأرض. متعباً من كل ما تعرض له، كان يغرق ببطء في غياهب النسيان. مرت أمام عينيه سنوات حياته القصيرة.

الوجه الطيب للوالد، ضحكة الأم السعيدة. ثم الحرب والدمار، ووفاة الوالد ويأس الأم وانعدام الحيلة. جنود ملثمون مدججون بالسلاح... الدبابات والطائرات. أرض مغطاة بالدماء. السماء الأسيرة. وفاة الوالدة. بحر الدم...

لماذا؟ من سيتحمل المسؤولية عن ذلك؟

كانت أمور كثيرة غير واضحة بالنسبة إلى أربي. وكيف تفهم هؤلاء الكبار؟ اقتحمت الحرب ضيفاً غير مرغوب فيه حياتهم المشمسة وحرمتهم من كل شيء: الطفولة والأهل والأمل في الحياة السعيدة. كان يمكن أن يكون للأحداث مجرى آخر. فجأة غلى في قلبه شعور جديد: الكراهية والرغبة القوية في الانتقام من المسؤولين عن كل مصائبه.

ممن ينتقم؟

إنه سيجد من ينتقم منه، ولن يموت نكاية في العدو. سيعيش وسيواصل الانتقام. انتعش أربي من هذه الفكرة مرة أخرى. قام ونظر حوله. سيحل الظلام قريباً. إذا بقي هنا، فلا مفر من الموت. يجب المضي قدماً، ولو حتى الصباح. لكنه لن يترك الأم هنا بأي حال من الأحوال.

هرع الصبي إلى الطريق، وتسلق الحافلة المهجورة، وأخذ حزمته من الحاجيات، حيث وجد بطانية دافئة. راضياً عما وجده استقام، ولكنه رأى فجأة انعكاسه في المرآة، وصرخ متخوفاً: فقد تحولت ملامح الطفل في يوم واحد إلى شكل رجل عجوز. ولكن ذلك لم يدهشه. بات شعره أبيض اللون تقريباً. ظناً منه أن هذا ثلج، هز رأسه، واكتشف أن هذا شيب! هذا اليوم المرعب لم يجرح روح الطفل فحسب، بل حوله إلى رجل عجوز...

... كفن أربي أمه بالبطانية بعناية، وهو يلف جسدها الثقيل بصعوبة بالغة. جمع في يديه ضفيرتي أمه من اللون الأسود المقابل لبياض الثلج، وبات يستنشق رائحتهما الناعمة بكامل صدره. ثم أخفى الضفيرتين في حضن معطف الأم. ربط جثمانها بالمزلجة، واستقام.

حان الوقت للرحيل. ودع الابن اليوم الأم إلى مثواها الأخير.

خرج أربي إلى الطريق. كان عليه أن يمر بالقتلى والجرحى، وكان يخشى ذلك، وكأن قدميه لصقتا في الأرض المثلجة. نظر خلفه إلى المزلجة، وكأنه يطلب مساعدة من الأم، وغضب من نفسه ومن جبنه. لقيت الأم مصرعها، عندما كانت تحميه من الرصاص والشظايا. كم كانت جميلة وشابة.

تعرقت جبهته من القلق والخوف. كان غاضباً من نفسه: «جبان، جبان وبنت...». خلال حياته القصيرة، عاش مصائب كثيرة، وستكون هذه مكملة لها.

خطا إلى الأمام بحزم.

سمع صرير الثلج تحت قدميه، ووسط الصمت المطبق، كان يتخيل صرخات القتلى. لم يبعد الصبي عينيه: «علي أن أرى وأتذكر كل ذلك، ولن أنسى هذا أبداً».

رأى وجوهاً معروفة كثيرة للكبار والأطفال والشيوخ. كانوا يرقدون في أوضاع مختلفة في برك الدماء. مرت في ذاكرته مرة أخرى هذه الدقائق المرعبة: ضجيج محركات المروحيات، وانفجار الصواريخ، وإطلاق نيران الرشاشات، وصرخات الرعب والألم. اهتز قلب أربي، ولكن دموعه استنفدت. قلبه وحده كان يبكي، بينما تسيل منه الدموع. هذا القلب الصغير والكبير في آن معاً، تعب من الحياة ومن كل ما عاشه من العذاب والمعاناة...

... قد قطع الصبي هذا القسم من طريق الموت. لم يعد ينظر إلى الخلف، وكان يمضي إلى الأمام، وهو يجر المزلجة الثقيلة. لم يكن يعرف تلك المناطق والطرق، واعتمد بشكل كامل على إرادة الله.

لم يكن أربي يخشى الظلام ولا الطريق، وحتى لم يعد يخاف المجهول. كان يشعر بالفراغ ولم يستجمع القوة سوى من الرغبة القوية في النجاة والانتقام.

كان ذلك أطول ليل وأطول طريق في حياته.

الطريق من الجحيم إلى المجهول.

كانت الثلوج تتساقط من السماء، و العاصفة تصفعه في وجهه. كاد الصبي ألا يشعر بساقيه، وبات يواجه صعوبة في أن يخطو على الطريق الزلق. سقط مراراً، ولكنه كان يقوم بعناد، ومتعثراً يمضي إلى الأمام. سقطت المزلجة من دفعة قوية، فاضطر أن يبذل مجهوداً كبيراً حتى يقلبها. سقط مجهداً، واحتضن جثمان الأم مثلما كان في الطفولة. كان يجب أن يستمع إلى ضربات قلب أمه التي كانت بدورها تضحك في وجهه المتوتر والأحمق. ذات مرة سألها: «يا ماما، هل يمكن أن يتوقف ويستريح؟»، وسمع الرد: «لا يا بني. إذا توقف عن النبض، فهذا إلى الأبد، وحينئذٍ يموت الإنسان». أصيب أربي برعب آنذاك، إذ لم يكن بوسعه أن يتصور أن والدته ستموت. احتضنت الأم الابن، قائلة: «لينبض فيك دائماً. قلبي، وقلبك».

تسببت هذه الذكريات في انحدار الدموع من عيني الصبي. ثم كتم نفسه، ومترقباً حدوث معجزة، استمع إلى صدر الأم.

كان القلب صامتاً...

اختنق أربي من ألم الخسارة وانفجر في البكاء وأطلق صرخات اختلطت بزمجرة العاصفة. تعبت روحه وجسده. تجمدت ساقاه، وأصبحت يداه ثقيلتين. لم يكن يرغب في الصعود، فما بال الحركة. سيطر النعاس عليه تدريجياً. كانت عيناه الحمراوان من الدموع تغلقان من تلقاء نفسيهما، وحل صمت الهناء. انطلقت موجة دافئة لطيفة في جسده المصاب بالبرد، مهدئة الجسم المجهد.

حلم مرة أخرى بالأرجوحة. كانت الأم هذه المرة موجودة مع الوالد. كانا يحبانه ويداعبانه. انهمك أربي في اللعب مع الوالد، بينما كانت الأم تناديه بإصرار. وضع الوالد أصبعاً على شفتيه، بينما كانت الأم تناديه بإصرار. كانت الأم تغادر إلى مكان ما، وخشية من التخلف عنها، استعجل الصبي لتلبية ندائها. كانت تصطحبه إلى ضوء ساطع. لم يكن بوسعه فتح عينيه اللتين كانتا تدمعان وتسببان له الألم، بينما واصلت الأم النداء عليه.

استيقظ أربي بصعوبة، وأدرك كل شيء. نظف نفسه من الثلج، ومد ساقيه الخدرتين، وأزال طبقة الثلج من جثمان والدته، وبات يجر المزلجة مرة أخرى.

بعد استراحة قصيرة، كان السير صعباً عليه: كان جسمه متراخياً ويتطلب مزيداً من النوم والراحة. كان الصبي يقاوم هذه الرغبة بكامل قوته، وكان يواصل طريقه بخطوات صغيرة متراً بعد متر. كان الثلج يعمي عينيه، و يشعر بالغثيان، و الدموع تسيل من عينيه بغزارة من الأسى والبرد. كان حبل المزلجة يؤلم أصابعه الرفيعة والزرقاء بسبب القر. فجأة، تعثر وسقط، وعض لسانه بألم. تأمل ولاحظ شيئاً يشبه حذاء.

تكهنات مرعبة خطرت على باله. متناسياً الإجهاد، أبعد الثلج بيديه، ووجد امرأة مصابة بالبرد كانت تحتضن حزمة صغيرة.

انكمش قلب أربي.

كانت تحاول إنقاذ طفلها، وخلعت من نفسها كل الملابس الدافئة، ولكن ذلك لم ينقذه أيضاً.

لمس أربي جبهتها التي كانت باردة مثل الثلج. «على الأقل، سأبعدهما عن الطريق»، وجمع قوته ليجرهما إلى قارعة الطريق. وفجأة صعق، عندما سمع بكاء ضعيفاً من الحزمة. لم يصدق أربي أذنيه. تكرر الصوت. انحنى، وأخرج الحزمة من بين يدي الأم ورأى رضيعاً لم يزل حياً. ابتسم له أربي ابتسامة خفيفة واحتضنه. بعث ذلك الدفء في روحه اليائسة وملأ الفراغ في كيانه. قال ضاحكاً: «يا رضيع، هل تظن أنه من حسن حظناً أننا نجونا اليوم؟ لا، أنت مخطئ، لا تزال متاعبنا في بدايتها». ثم جلس بجوار أمه، وقال:

- ودع الأم يا رضيع...

منحه هذا الكائن الصغيرة قوة جديدة، ولم يعد منفرداً. شعر أربي بكامل المسؤولية عن حياة هذا الرضيع الهش، وشد حزامه ولبس قبعة، وبدأ يعتني بهذا الطفل مثل الكبار. ربطه بظهره، وواصل الطريق، مترنحاً بحمل مزدوج.

... وسط صراخ العاصفة، سمع أربي نباح كلب. رفع رأسه، ولاحظ الآن أن الشمس بدأت تشرق. إنه وصل... لم يستسلم... انتصر على الليل والعاصفة والطريق الشاق والموت الذي كان يلاحقه.

التف أربي إلى أمه، وقال:

- وصلت يا ماما... وصلنا... انظر يا رضيع، لقد نجونا...

بدأ الرضيع يتحرك فوق ظهر أربي ويبكي، مثيراً فرحته.

كان أربي يهدئه، محركا شفتيه المتشققتين من الصقيع:

- اصبر قليلاً. سيغذونك وسيدفئونك الآن... لم يبق سوى قليل... ابك يا رضيع، ابك... أرجو منك فقط ألا تصمت...

كان أربي يقف وسط القرية مرتبكاً، ولم يكن يعلم إلى أين يذهب. لم تستيقظ القرية بعد. ربما ينتظر لحين يراه أحد؟

من مئذنة عالية للمسجد، أذن الإمام لصلاة الفجر بصوت رقيق. توجه الصبي بحزم باتجاه الصوت المنقذ.

دخل هادئاً إلى فناء الملجأ المقدس.

الآن فقط، فارقه ما تبقى من القوة، وسقط عند عتبة المسجد. وعندما استفاق، كان أول ما رآه، ساعة كبيرة على الحائط والإمام العجوز الجالس بجواره، مترقباً يقظته. كانت الدموع تسيل من عينيه عبر تجاعيد عميقة على لحيته. سمع بكاء الطفل في الغرفة.

نظر الرجل العجوز إلى أربي، سائلاً:

- هل هذا شقيقك؟

تأنى في الرد. كانت كلمة «شقيق» جميلة ومهدئة.

تمسك أربي بالكلمة المنقذة الجديدة، وقال:

- نعم. إنه... شقيقي!

بايرا بالبوروفا

زاياباري

كان العجوز بورا مستعجلاً للصعود إلى الجبل قبل أن تنهكه شمس منتصف النهار. كانت الطرق تقوده إلى الأعلى، وهي متعرجة في بعض الأحيان. ارتبك بورا بين الآثار، ولكنه أخذ يصعد بشكل أسرع من انطلاق الحصان عبر أحجار مصدات الرياح.

كانت الصخرة تشبه من بعيد خنجراً متصدياً، وهي عبارة عن كومة من الأحجار المغطاة بالأشنات البنية - الحمراء. وشوهدت من قمتها أماكن مناسبة لأداء الطقوس، ولكن الصخرة شبه الطولية كانت تبدو غير قابلة للصعود إليها. فقط في حال الصعود جانباً والتسلق بواسطة نتوءات الأحجار، ربما سيتسنى الوصول إلى قمة الجبل، حتى المكان حيث ظهر فجأة كبش جبلي ذو قرون كبيرة. بعد رؤيته، أحنى الكبش رأسه، وتوقف عن المضغ. امتدت يد بورا من تلقاء نفسها إلى الكتف لنزع القوس. سمعت أصوات الأحجار المتساقطة، واختفى رأس الكبش من الصخرة.

صرخ الرجل العجوز تعبيراً عن ضيقه، فلم يصعد إلى الجبل من أجل كبش جبلي!

علق القوس وكيس السهام على فروع شجرة الأرز، وثبتهما حتى لا يتأرجحا بتأثير الرياح. أعدت الأم كيس السهام قبل فترة طويلة من جلد الظبي الذي كان أول فريسة كبرى له. كان الكيس أصفر اللون أولاً، ولكنه اسودَّ وكان يلمع، وكانت الغرز تنفك في بعض الأحيان، ولكن بورا لم يفكر في استبداله. علق السوط بجوارهما، ثم عاد وربطه بحزامه.

بدأ الرجل العجوز يتسلق. عندما وصل إلى القمة، انهالت عليه ضربة الرياح التي كانت تعميه بالثلج الحاد وتسقطه من قدميه، ووصلت إلى داخل ملابسه. رقد الرجل العجوز على ظهره، وزحف بين الأحجار حتى بلغ الطرف

الآخر من الصخرة المواجه للوادي. حلق فوقه سرب من الطيور، ومرت به الماعز المرعوبة، وهي تقفز من حجر إلى آخر.

توقف بورا على الطرف الذي لا تهب فيه الرياح من الصخرة، وهدأ نفسه بصعوبة، وحك جبهته المتعرقة بقبعته المصنوعة من جلد الوشق.

تساقط الثلج من أغصان أشجار الأرز والصنوبر، وكان يلمع تحت أشعة الشمس، بينما كانت السماء الزرقاء تبدو جلية عبر الأغصان. كانت الأرض مغطاة بآثار الغزلان والمعز الجبلية. يبدو أن الغنيمة استوطنت، ومنذ زمن، هذا المكان عديم الرياح، حيث حتى الأحجار الرمادية بدت مدفأة بأشعة الشمس. الهدوء يسود المكان. لا مكان أفضل لأداء الطقس وعبادة السماء الأب والأرض الأم!

مثلما تحب جميع الكائنات الحية والجن والرعاة الاسترخاء في مثل هذه الأماكن المشمسة، فعمَّ يبحث العجوز المصاب بالخرف في ظلام الصخرة العارية؟!

فتح الحقيبة للتأكد من وجود صلامات [14] وآرول [15] في مكانهما، وأن الحليب لم ينسكب.

صعد بورا إلى تل صغير، وداس على الثلج، مسوياً الأرض. سرعان ما جمع الأحجار، وبدأ بترتيبها فوق بعضها، سعياً منه لمساواة الأركان والأطراف. حجر فوق حجر، وتم سد الثقوب بأحجار صغيرة، وبعد مرور بعض الوقت، ظهرت أمام الرجل العجوز بناية حجرية يصل ارتفاعها إلى وسطه.

تأمل الرجل العجوز فيها من كل الجوانب للتأكد مما إذا كان جمع الأحجار بالشكل المناسب. كان مجهداً للغاية. جلس مسنداً ظهره إلى الأحجار، ولم يلاحظ كيف نعس.

سمع خضعة السيف فوق رأسه، وامتلأ الهواء بضباب وردي يصيبه بالعمى. سمع صوت أمه الهادئ: «يا بني، يجب الاستعجال».

اهتز بورا، وفتح عينيه. كانت أطراف الصقيع المتجمدة تقترب من قلبه، وتضغط عليه، وتصيبه بالبرد من الداخل. بدا له للحظة واحدة أنه أصبح مرة أخرى صغيراً ووحيداً في العالم أجمع. أرغم نفسه بصعوبة كبيرة على الوقوف. لا يجوز النوم على الجبل وفي البرد، ولا يجوز النوم قبل استكمال العمل، اسمع، هل سمعت أنه لا يجوز النوم على الجبل أم أصبحت بحالة سيئة تماماً؟

أخرج شريطاً حديدياً وصواناً من باطن ملابسه، وجلس على ركبتيه. أفرغ كيس العشب الجاف والفطر الخشبي المطحون فوق قطعة من لحاء البتولا. بضربات قوية بالحجر، ولد شرارة على وجه السرعة. نفخ وقرب حزم الشعب الجاف من الشرارة، وأشعل النار، ونقلها إلى البناية الحجرية قبل احتراق لحاء البتولا. بدأت النار تتراقص فوق الأحجار، ملتهمة الأغصان الجافة. أضاف الرجل العجوز حزم الهيذر والعرعر إلى النار. وجه الدخان المر والحلو في آن معاً إلى يديه والقوس وكيس السهام والسوط والسكين والأواني من اللحاء والمعبئة بالدخن والصلامات والحليب.

جرف الحليب والصلامات، وبدأ يرشهما، وهو يدور حول الأحجار.

سمع صوت الأم اللطيف والأجش بعض الشيء: - عندما تأتي أيام عصيبة، الجأ يابني إلى الطبيعة الأم والسماء الأب العظيم. الجأ إليهما بكامل قلبك. تقدم إليهما بالشكر، وتحدث إليهما بأفضل الكلمات لهما، وغن أغنية تكريماً لهما، توجه بالدعاء، ثم اطلب، ثم اطلب...

زاياباري، إيخي [16] زاياباري. عندما ولدت في الطريق الذهبي للكون، وكنت مجرد قذى، فقد استقبلتني يا أيتها الأرض الأم بكفيك الحانيتين، فأشكرك، والسماء الوالد الذي كان يحمي روحي، أشكرك، والشمس التي كانت تغمرني بالدفء اللطيف، أشكرك، والمنابع الحية للمياه النقية التي كانت تمنحني القوة، أشكركم جميعاً... كم هي جميلة جبالك البيضاء، والسهول المغطاة بالأعشاب الناعمة، والرياح...

بعد أن ارتبك في البداية، بات بورا ينطق أسرع فأسرع. انطلقت الكلمات التي لم يسمعها ولم ينطق بها من قبل من تلقاء نفسها، وكأن شخصاً خفياً كان يدفعه ويهمس في أذنه. كان يمجد ويمدح ويستدعي الأرواح الراعية، وبدأ الحديث عن حفيده الوحيد المصاب بعاهة والعاجز عن الحركة.

عندما ذهب الابن والكنة إلى البيت الجبلي [17]، كان بورا قوياً. وقد تربى الحفيد البالغ من العمر ثلاث سنوات آنذاك معه، دون أن يفارق ظهر الحصان. كان يصطحبه معه في طيات ملابسه، وكأنه جرو صغير، حتى عمر الخامسة. وعندما بلغ الخامسة، أجلسه فوق الحصان وأعطاه العنان. بدءاً من السابعة، لم يعد يخاف على حفيده الذي بات قادراً على الجلوس على ظهر أي حصان، وفي عمر الثامنة أصبح يختبر الأحصنة الشابة، وفي عمر التاسعة كان يصيب الغزلان في عينها، رافعاً السهم من الأرض أثناء السير، وفي العاشرة اصطاد

غزالاً منشورياَ، وفي الثانية عشرة كان يختفي في الغابات برفقة أصدقائه لمدة أيام طويلة، ويذهب إلى الأراضي النائية الغريبة. كان بورا مطمئناً عليه.

عندما اصطاد الحفيد حصاناً برياً بواسطة وهق، وأحضره، شعر بورا بما لا يبشر بالخير، وأمر الحفيد بأن يطلق سراح الحصان. ضحك الحفيد، وقال إنه أخيراً حقق حلمه بإيجاد حصان مجنح.

لم يحضر حصاناً، وإنما حيواناً غير أليف. كانت الرغوة تخرج من فم الحصان، وكان يقف على ساقيه الخلفيتين، ويتذمَّر، ويكشر عن أسنانه، وكأنه حيوان متوحش مستعد لعض أي كائن يقترب منه.

كان الحفيد يقضي كل الأيام مع الحصان بغية أن يسيطر عليه ويجعله صديقاً وفياً. لم يكن الحصان يسمح بربطه، فاضطر لقضاء كل الأيام معه، وكان مضطراً لحراسته ليلاً حتى لا تفترسه الذئاب. كان بورا يرى كم يتعب الحفيد مع الحصان، ولكن خيسي لم يكن يستخدم سوطه الجلدي سوى نادراً. بصبر كبير يوماً بعد يوم، كان الحفيد يعلق الحصان بنفسه، وكان يركبه من دون سرج أولاً، ثم عوده على السرج. أطلق على الحصان اسم بولغان [18]. قال إن خطوات الحصان ناعمة مثل جلد الطائر. ليس طائراً، وإنما شولموس [19]!

قطع بورا الفطيرة، وكان يلقي بقطع منها إلى النار، ويحضر صلامات والحليب. كانت الدموع تسيل من عيني الرجل العجوز بلا توقف، وكتفاه يرتجفان.

وفي ذلك المساء المشؤوم، تابع بورا كيف ركب الحفيد الحصان المستأنس وانطلق بسرعة كبيرة. وقفت الكلاب في طريقه. انتفض الحصان، وانتصب على قائمتيه الخلفيتين، ثم واصل الجري. سقط الحفيد من الحصان مرات عديدة، ولكنه كان في المرات السابقة، يمتطي فوراً سرجه، ولكنه لم يتمكن من ذلك هذه المرة، فداس الحصان عليه وجره على الأرض. هرع أصدقاء الحفيد خلفه. مصفرين وصارخين، طارد الشبان الحصان البري إلى الغابة الكثيفة...

لفوا الحفيد الذي كان ينزف بالدماء في قطعة من الصوف، وأحضروه إلى المنزل. منذ ذلك اليوم، بدأ بورا حياة جديدة.

استدعاء الروح، وضيافة الجني الطيب وطرد الجني الشرير، وتبخير العرعر، وغسل الجسم بمياه نبع أرشان وصبغة الإبر، وكان بورا يقوم بكل ما

ـَ

بوسعه. الدم الساخن والكبد للخروف المذبوح لتوه، وخميرة الحليب يومياً، والأضاحي... عاد الحفيد إلى الوعي، ويمكن الجزم بأنه نجا من الموت. بدأ يتناول الطعام ويتحدث، ولكنه لم يقف على قدميه.

بدأ العجوز يحلم أحلاماً غريبة ومرعبة أصبح فيها صبياً من جديد. كان يستقل حصاناً، محتضناً صدر الأم. تذمر من الأحصنة الجارية بجواره، ومن الرائحة المرة للعرق، والصراخ، والدخان الذي يدخل إلى أنفه عند الوقوف للاستراحة. ثمة بردة ملونة من النجوم فوقه. النساء يجمعن الأحجار، وبجوارهن يلعب الأطفال. النار ترقص على الأحجار، والأم ترش الحليب. يصعد رذاذ الحليب إلى الأعلى، وكأنها فقاقيع منتفخة. تلتف الأم إليه مبتسمة، وتقول: «عندما تأتي أيام صعبة، الجأ إلى الطبيعة الأم والسماء الأب...».

بدأت تأتي إليه الذكريات وتعذبه، وكأنها برق الصاعقة. ها هو يجلس على ركبتي الأم التي ترضعه، وتلامس شفتا الأم الجافتان جبهته، وتداعب أصابعها شعر رأسه. إنها تتوجه مبتسمة بالحديث إلى الشخص الجالس على الطرف الآخر من خيمة اليورت المتنقلة. وجهه ليس واضحاً بسبب الدخان، ولكنه يعلم أن شاربه حاد الطرف. إنه يصرخ من الضحك، حين يقترب الشارب الحاد من وجهه ويدغدغ بطنه.

فجأة ينهار كل شيء. الصفير والصياح والصراخ. كائنات مرعبة فوق الأحصنة والصراخ والنار وأكوام من الجثث والبكاء في محيط عجلة العربة. كانت الرؤوس فوق عجلة العربة تنقطع فوراً، وحوله دم، دم. وقف بورا أمام العجلة، وسمع فوقه صوت السيف وضحكة الجلاد الشاب ذي الأسنان البيضاء والذي دفعه بركلة باتجاه الأم الراقدة على الأرض. ثم بدأ سباق ليلي طويل لا نهاية له. كانت تمر أمامه وجوه النساء اللواتي نجون من هذه المجزرة الليلية، وكانت النساء بلا أسنان أو ذوات ابتسامات بيضاء، مرعوبات وشجاعات إلى درجة اليأس.

أدرك بورا أن أمه وبضع نساء أخريات تمكنّ من الهرب من الأعداء. إذا كان مقدراً لسلالته أن تنتهي، فلماذا لم يمت حينئذٍ؟! لماذا يعاني حفيده الوحيد الذي لم يقف في طريق أحد ولم يرتكب الإثم أمام أحد؟!إنه ليس حياً، وليس ميتاً، ماذا سيحدث له بعد انتقال الرجل العجوز إلى البيت الجبلي؟

توقفت النار عن الرقص، وهدأت كل الأصوات في الغابة، وحتى الرياح في ذرى الأشجار هدأت. بدأ تيار ساخن من الهواء يدور حول الرجل العجوز. شعر بثقل كتفيه، وكأنه ارتدى غطاء من جلد الغنم. ربما وقف الجن الراعي

بجواره وسمعه؟ بدأ يشعر بوخزات في أطراف أصابعه، وبالسخونة، ففتح طوق ملابسه. شعر بالضيق في الأنف، وعطس عدة مرات.

شعر بإجهاد كبير. عبر عن كل ما بداخله، وشعر بالفراغ والنقاء. قبل أن تنطفئ النار، جمع الأواني في حقيبته. ركع للأحجار واتجاهات الدنيا الأربعة. خلع القوس والسهام من الغصن، ونزل إلى الحصان. جاء الحصان الذي دربه الحفيد إليه، بمجرد أن سمع الصفير. لم يكن بورا يربط الحصان بالشجرة أبداً، لأن الحصان المربوط فريسة سهلة للذئاب، رغم أنه أثناء صعوده الجبل، علم بورا من الآثار أن قطيع الذئاب قد تابع الغزلان إلى الجانب الشمالي.

من سفح الجبل، يمكن رؤية الوادي الذي كانت قريته تقضي فيه الشتاء، أو بالأحرى قرية شيخ الصيادين غني بوخيه، وهو أقوى وأذكى رجال السلالة. ذات يوم تزوج بورا فتاة من هذه السلالة، ولذلك كان يعتبره البعض منتسباً إلى هذه السلالة، وحتى كانوا يسخرون منه في بعض الأحيان، ولكن بورا لم يكن ينتبه إلى ذلك.

استقبلته القرية بهدوء غريب. لا صرخات الأطفال، ولا نباح الكلاب. خلال عملية الصيد الأخيرة، جرح غني بوخي بأنياب خنزير بري. تقيح جرحه، وكانت حالته تتدهور يوماً بعد يوم. لم يعد ينفعه أي علاج، وحتى الأضاحي لم تُجدِ نفعاً. كان الشيخ في حالة غضب دائم، ويطالب بالهدوء.

سمعت أصوات شابة من بيت بورا. من الواضح أن أصدقاء خيسيه حضروا، وكالعادة أشعلوا الموقد، وأحضروا الثلج، ووضعوا اللحم في القدر لسلقه.

خطا الرجل العجوز فوق العتبة، ووقف مصدوماً. كان الحفيد يقف بجوار الحائط، ويمسك الأواني، وعلى ما يبدو، كان يغلق إناء الجعة. إنهم يجربونها!

قال بورا: - كيف أنت يا خيسيه؟

مر به أصدقاء ابنه، وهم يمسكون قبعاتهم تحت الإبطين. خاجا الطويل ابن الحداد، وباغلا القصير والحاذق.

وضع بورا عتاده في الصندوق الجلدي للسهام، وعلق القوس على الجدار. كان الحفيد ذا سنام ورفيعاً إلى درجة أن عظامه كانت واضحة، وكان يبدو أنه يكاد يسقط.

- إلى أين ذهبت يا والدي؟

- خيسيه...

- لقد وقفت يا والدي...

لقد وقف على قدميه... اقترب بورا من الحفيد وضغط بجبهته على رأس الحفيد وخرج إلى الطريق.

ضرب الهواء البارد وجهه. وجَّه بورا رأسه الأشيب نحو السماء البعيدة والعزيزة التي كانت تشعل آلاف النجوم الساخنة واحداً تلو الآخر. كان الهواء شفافاً مثل مياه النبع، بينما يعزف على أوتار الآلة الموسيقية مورين-هورا، والأصوات المنتصرة تصعد مع تيارات العواصف الدافئة. هبت رياح شرسة وصارت تغني وتئن حوله. والثلج يدور تحت قدميه، أية سعادة في هذه الدنيا!

جثا الرجل العجوز على ركبتيه، ووضع وجهه في الثلج. أشكرك أيتها الأرض الأم! تدحرج على ظهره، ماسحاً وجهه بالثلج. كان الهلال يحوم فوق المنحدر الأزرق للجبل، وبدا شبيهاً بقرن الخروف.

سمع صوت حفيده: - يا والدي، حضر الشامان خارلوو إلى غني بوخيه.

صرخ بورا: - خارلوو؟!

- رأيت أنه كان يتم ربط حصانين بجوار منزل غني بوخيه. إنه حضر بواسطة حصانين.

- كيف علمت أن هذا خارلوو؟

قال لي الأصدقاء إنه تم استدعاؤه لعلاج غني بوخيه...

الساحر الشامان خارلوو... الشامان الأسود خارلوو ذائع الصيت... كانت السيدات العجائز يخوِّفن الصغار والكبار باسمه... إنه يأكل ويسرق الأرواح، ويستبدل أرواح المرضى الميئوس منهم بأرواح الآخرين. من البديهي، لماذا حضر الشامان الأسود إلى العجوز غني بوخيه الذي يوشك على الموت!

خرج الرجل العجوز من المنزل، متوجهاً إلى منزل «يورتا» غني بوخيه. ساد ظلام تام. اقترب الرجل العجوز خلسة من جدران بيت غني بوخيه، ووضع أذنه على الجدار.

سمع كيف يتحدث رجلان كبيران بصوت أجش وعالٍ إعتادا التحدث كثيراً وإصدار الأوامر. كان صوت غني بوخيه متقطعاً وضعيفاً، على عكس الصوت العالي للشامان خارلوو.

بروح من يعتزم استبدال روح غني بوخيه العاجزة؟ كان هذا السؤال يشغل فكر بورا إلى حد أنه لم يشعر بالرياح التي تسللت إلى عظامه.

على ماذا يتفق هذان الرجلان القويان؟ وصلت إلى أذن الرجل العجوز أسماء رجال من قريتهم. العم، والأخ وابنه، وشقيق الزوجة، والحفيد، والأقرباء. يقول له إنه لا مساس بالأقرباء. وفجأة سمع بورا اسم حفيده، وكاد أن يقفز في مكانه! كان يتوقع ذلك!

- إنه شاب وقوي ولا يعرف الخوف. رأى الموت مؤخراً، والآن يقف على قدميه. وليس هناك من يدافع عنه أو يأخذ ثأره: جده عجوز جداً، وقد يموت اليوم أو غداً...

احتدم بورا من الغضب. صار يتمالك نفسه بصعوبة حتى لا يهرع إلى داخل اليورتا ويقتلهما. كيف يجرؤان على التصرف في أرواح الآخرين! إنهما لصان وقاتلان!

ضغط الرجل العجوز قبضتيه: «أبداً، أبداً، هل تسمع؟! لن أسلم لك حفيدي أبداً! غني بوخيه الملعون، سنرى من سينتصر!».

هرع الرجل العجوز إلى منزله، وأيقظ النار المنطفئة، وأحضر من الشارع جذر شجرة، كان ملقىً بجوار الموقد. خلع كيس السهام من الحائط الغربي. كانت بعض السهام قديمة تماماً ولم تستخدم في الصيد منذ فترة طويلة، ولكن بورا كان يحافظ على كل شيء. وضع السوط الأحمر الجلدي القديم بين يدي الحفيد.

أعطى حفيده القوس والسهام، وقال له: - لا تنم، تابع النار. انظر إلى الأعلى، وإذ تحرك ثقب المدخنة، فارم السهم بلا تردد فوراً!

ربط السوط الثقيل بخصره، ووضع إناء الجعة في حقيبته، وأخذ الفأس، وخرج إلى الشارع مسرعاً. امتطى الحصان، متوجهاً إلى أقرب غابة. لم يذهب بعيداً في الغابة، بل اقترب من الأشجار على أطراف أصابعه. أخرج الجعة ورشها في كل الاتجاهات إلى جانب حفنة من الدخن.

- اعذروني، لم أحضر بإرادتي!

اقترب من شجرة صنوبر بطول قامة إنسان، وقطع أغصانها بالسوط.

قطع الشجرة من جذرها، صارخاً: - لست شجرة عادية، وإنما الشامان خارلوو! لست شجرة عادية، وإنما الشامان خارلوو!

ربط طرف الشجرة بحبل جلدي، والطرف الآخر بالسرج، وجرها إلى منزله.

وضع مرجلاً كبيراً على النار، وأحضر المياه، وبدأ يغليها. بعد غليان المياه، وضع طرف الشجرة في المرجل، وبدأ يدوّرها.

كان خيسيه ينظر إليه صامتاً، ويتأمل السهام القديمة، وينفخ على ريشها. جرح أصبعه بالمخرز، على ما يبدو، وبدأ ينفخ عليه ويلعقه.

- در مثلما تدور شجرة الصنوبر في المياه، ولا تمس حفيدي!

أطلقت المياه المغلية عموداً من البخار.

قال خيسيه، مندهشاً: - يا والدي، يبدو أنك ازددت طولاً.

- من كتب له أن يغادر، فليغادر، ومن كتب له أن يعيش، فليعش! مثلما تغلي المياه السوداء، ليغلي رأس خارلوو بهذا الشكل أيضاً. مثلما تدور المياه السوداء، ليدر رأس خارلوو بهذا الشكل أيضاً!

كان خيسيه يقف على قدميه بصعوبة، وكان يسقط بين الحين والآخر فاقداً القوة، ثم كان يقوم مرة أخرى، متعلقاً بكل شيء بجواره، والرجل العجوز تحول إلى اللون الأزرق من التوتر والقلق، وظلا يدوّران المياه في المرجل حتى الصباح.

عندما بدأ الفجر، خرج بورا إلى الشارع مجهداً، واستند إلى جدران اليورتا.

غادر الفارس فناء بورا بوخيه، متأرجحاً في سرجه من الخلف إلى الأمام، ومن اليسار إلى اليمين، وكأنه شرب جعة الحليب إلى حد السُكْر. متوقفاً في بعض الأوقات، ومتأرجحاً فوق الحصان، اختفى الفارس خلف الجبل.

أخرج بورا المرجل من المنزل، وسكب محتواه خلف الفارس، وألقى بشجرة الصنوبر التي استخدمها، إلى مكان أبعد. مسح الرجل العجوز وجهه

بالثلج، ودخل إلى المنزل.

سمع صوت حفيده النعسان: - يا والدي، يجب إيجاد بولغان حتى لا يتوحش تماماً.

- ماذا؟! لا تفكر فيه، هناك أحصنة كثيرة أخرى!

قال الحفيد متثائباً ومبتسماً: - لا أحصنة مجنحة مثل بولغان. قال لي الشباب إن الحصان عبر الممر الجبلي، ويتغذى هناك مع القطيع البري. في كل ليلة، كنت أحلق بحثاً عنه في السماء. اليوم فقط، أعادني بولغان إلى منزلي. يا والدي، لا يملك أحد حصاناً سريعاً مثل حصاني. إنه سريع ومجنح مثل الرياح. سأجد حصاني قريباً، وسأصطاده...

إسيت تيركاكييفا

التفاح

في ذلك اليوم الربيعي الرائع، استعد علي خان مع أشقائه وشقيقاته للسفر إلى موطنهم. لم يعش والداهم حتى ذلك اليوم السعيد، بل وجدا مثواهما الأخير في برد الغربة، حيث توفيا بالتيفوئيد في نفس العام. وقبل ذلك، كانا يبدآن كل يوم باستعادة الذكريات عن الوطن الذي كان يشغل تفكيرهما بشكل كامل. كانا يتذكران القسوة التي تم بها حرمانهما، شأنهما في ذلك شأن الشعب الإنغوشي بالكامل، من مواقد بيوتهم. أصبحت كازاخستان وقيرغيزستان اللتان تم ترحيل الإنغوش إليهما، بمثابة «سيبيريا» الباردة والقاسية. هكذا تثبتت في اللغة الإنغوشية تسمية هذا الحدث التاريخي بـ«المنفى إلى سيبيريا».

تعجز الكلمات عن التعبير عن قسوة المتاعب التي تعرض لها علي خان بعد وفاة والديه، إذ إنه كان الأخ الأكبر لشقيقين وشقيقتين. قبيل وفاته، وضع والده على عاتقه مسؤولية الاعتناء بأشقائه الصغار وتوجيههم إلى الطريق الصحيح، مما كان في حد ذاته مهمة صعبة، لاسيما في ذلك الوقت العصيب. طلب، باكياً، من ابنه الكبيرالتحلي بالصبر والمحافظة على شرف الأسرة.

هكذا أصبح علي خان في عمر الـ15 كبيراً لعائلته. كان يعلم كم سيكون صعباً عمله، ولكن أكثر ما كان يحز فيه، هو أن والديه فارقا الحياة دون رؤية الجبال الأم، شأنهما في ذلك شأن آلاف آخرين.

عندما كان الأب والأم على قيد الحياة، كانا يتحدثان لأبنائهما عن الوطن بحب جعلهم يحبون أيضاً هذا البلد الذي بدا لهم رائعاً. عندما كان الوالد يتحدث عن القوقاز، كانت عيناه تلمعان بضوء فريد. كان يقول: «هذه أرض خصبة وجميلة جداً. وحتى الرياح عندنا تهب بنعومة أكبر. أما الرياح هنا، فتصل إلى العظام. وما أروع جنائننا! هل من فواكه ألذ مما لدينا؟!». متذكراً حديقته، كان ينهمك في التفكير، وكان يعتز بشكل خاص بأشجار التفاح. كل مرة رغب فيها

في التفاح، كان يقول: «استقللت العربة إلى قبردا، واشتريت هناك 18 شتلة، وزرعتها بهاتين اليدين في حديقتي. من حصل عليها يا ترى؟». أصبح الوالد يتذكر ذلك أكثر فأكثر، عندما كان يرقد على فراش الموت. كان علي خان يخمن أنه يريد تفاحاً، ولكن لم يكن بوسعه فعل شيء. في الموسم الشتوي، كانت تكلفة الفواكه في تلك المناطق عالية جداً، ولم يكن لديهم المال. عن أي تفاح نتحدث في الوقت الذي كان الناس فيه ينتفخون ويموتون من الجوع؟!

... كانت هذه الفكرة تدور في رأس علي خان طوال رحلتهم الطويلة إلى الوطن. لقد بدأوا رحلتهم قبل نحو أسبوع. لم يعد أفراد العائلة وغيرهم من الأقرباء يتعرفون على الشاب. كان دائماً مبتسماً ومرحاً، ولكنه أصبح حزيناً وكثير التفكير، بينما كانت وجوه الناس مضيئة بالسعادة، نظراً لانتهاء نفيهم الذي استمر 13 عاماً. لم يخمنوا ماذا يدور في روح علي خان. حتى إذا كان يبتسم، فلم يفارق قلبه الحزن على والديه اللذين غادرا الحياة، وبداخلهما قلق على أبنائهما في بلاد غريبة وباردة.

كان علي خان يحسن أداء مهمة رعاية الأسرة التي كلفها به والداه. نشأ أشقاؤه أناساً شرفاء. ألم يحلم بذلك والداهم؟!

... منهمكاً في مثل هذه الأفكار، وقف علي خان أمام نافذة عربة القطار، عندما اقترب منه محمد. إنه شاب ذو جلد أبيض، وكان زميله في المدرسة وصديقه منذ سنوات طويلة.

- فيم تفكر طوال الوقت يا علي خان؟ ماذا بداخل قلبك؟ علامَ تحزن؟ إننا لا نتعرف عليك! هل نسيت إلى أين نمضي؟ شقيقتاك لا تفهمان ماذا يحدث لك، وتقلقان عليك.

- بعض الأفكار لا تتركني في هدوء. لكن قلبي يغني! ومتى يغني مثل اليوم! سنرى قريباً الجبال الأم! خرجت من المقصورة، خوفاً من ألا أكون وسط الأحاديث أول من سيراها!

- يا الله! كم عدد الناس الذين رحلوا قبل ذلك اليوم! وحتى على فراش الموت كانوا يسألون فيما إذا كانت هناك أنباء عن العودة إلى الوطن.

- هذا ليس بغريب، لأنه حتى أنا الذي لم أعلم سوى قليلاً عن منطقتنا، كنت أتمنى العودة بقوة. كيف لهم ألا يحبوا الأرض التي ولدوا بها والتي عاش بها أسلافنا؟!

- حتى أنكَ تركت الدراسة وتسافر برفقتنا. لو كنت محلك، لأنهيت التعليم قبل السفر إلى القوقاز. الآن طالما أعادوا لنا الحق في العودة إلى الوطن، فإنه لن يختفي منا.

- لا توجد مشكلة، إنني أفقد عاماً واحداً فقط. بعون الله سأتحول هناك إلى التعليم بالنظام الخارجي. الآن توافرت الفرصة للعودة إلى الوطن، سيكون حتى شهر واحد في الغربة عذاباً بالنسبة إلي. سأسكن في بيت أهلي الذي يحتاج إلى يدي صاحبه. تحتاج الحديقة والبيت إلى العناية.

صمت كلاهما لبعض الوقت. كان كل واحد يفكر في أمره، بينما كان نقر العجلات يبشر لهما بلقاء قريب مع الوطن.

- يا علي خان، ما أول شيء ستفعله عند العودة؟

- لقد قلت لك إنني سأعتني بالحديقة أولاً، وسأحرث الأرض، وسأقطع وأروي الأشجار القديمة، وسأزرع أشجاراً جديدة. وفي الخريف، سأجني المحصول، وسأوزعه على سكان القرية تكريماً لذكرى والدي. أعدك بأنك ستشبع بالتفاح هذا العام.

- وهل أنت متأكد أن الحديقة لا تزال قائمة؟ تعد بذلك من دون رؤية البيت والحديقة.

- إنني على ثقة أنها لا تزال قائمة! إذا كانت مثلما كان يروي والدي، فلن ترفع يد إنسان لتدمير مثل هذا الجمال! في وطننا، لن نضطر لأن نحلم بالفواكه!

سمعت في العربة كلمة: «جبال، جبال!». اختلطت صرخات الفرحة بالبكاء. كان الناس يحتضنون بعضهم البعض، ويصرخون: «الأرض الأم، الأرض الأم!». انفجر بعضهم بالبكاء، ضاغطين على النوافذ.

قال محمد، ماسحاً دموع الفرح:

- لم تنتبه يا علي خان! فقد وصلنا إلى الوطن! يهنئ الجميع بعضهم البعض.

انسد حلق علي خان من الحماس، وبات عاجزاً عن النطق بأية كلمة، وكأن نظرته تعلقت بالقمم المتعالية للجبال العظيمة.

جثا على ركبتيه قائلاً:

- أرحب بك أيتها الأرض الأم!

- ماذا تفعل يا علي خان؟

- أريد أن أجثو أمام الأرض الأم دون انتظار الوصول. علي الوفاء بإرادة والدي.

- سيكون لديك حيز كاف من الوقت. عندما ننزل من القطار، سنحتضن أرضنا وبيوتنا وجنائننا، ولن نتركها مرة أخرى أبداً.

- سمع عزف الأكورديون من مقصورة، وكانت هذه ليبخان، وهي عمة محمد، تعزف نغمة حزينة. كانت مسافرة في المقصورة المجاورة برفقة ابنتها وغيرها من الأقرباء. لم ينج من بين أبنائها التسعة سوى هذه الفتاة. كانوا يقولون إنها كانت في أيام شبابها عازفة ماهرة. طوال الـ13 عاماً في المنفى، لم تمسك بيديها الأكورديون، ولكنها لم تبعه حتى في وقت المجاعة، بل كانت تقول: «سيأتي يوم سنعود فيه إلى الوطن، وسنتمنى سماع هذه الأصوات الجميلة». كان هدية من والدها.

ساعدت ليبخان علي خان في أصعب الأوقات بعد وفاة والديه رغم مصيبتها هي.

بمجرد سماعهم أصوات الأكورديون، بدأ الركاب يتجمعون حول ليبخان. وبعد قليل، لم تعد المقصورة تتسع لجميع الراغبين في الاستماع إلى الموسيقى. وقف الصغار بين الأبواب إفساحاً للساحة للكبار. كانت ليبخان تعزف نغمة حزينة دفعت الجميع إلى الانهماك في التفكير. كانت هذه النغمة مكرسة لذكرى من انتقلوا إلى العالم الآخر قبل اللقاء مع الوطن الحبيب. كانت النساء يمسحن الدموع عن عيونهن. توقفت ليبخان عن العزف، عندما بدأت الدموع تسيل من عينيها. صمت الجميع لبعض الوقت. كان لدى كل واحد منهم ما يتذكره. وفي نهاية المطاف، قال محمد:

- ما هذه الجنازة التي نظمتموها هنا؟ لا تغضبوا الله! إنه منحكم مثل هذه الفرحة! لدينا احتفال كبير اليوم. كفاكم! سالت بركة كاملة من دموعنا خلال الـ13 عاماً. يقال إن النهار يأتي بعد الليل. أخيراً أصبحت أشعة الحقيقة متجهة إلينا! يا ليبخان، أمسكي الأكورديون واعزفي نغمة رقص لنا حتى يسمعها العالم أجمع! سننسى أوقاتنا العصيبة وسنؤدي رقصتنا أمام الجميع!

اندهش الشباب:

- ليخبان ستعزف يا محمد، ولكن ليس من الواضح أين سترقص. المكان هنا لن يكفي حتى للعب قطتين.

قال علي خان، ناصباً مائدة خشبية مستديرة صغيرة:

- هذا المكان سيكون جيداً للراقص الجيد.

عجز الحاضرون عن استيعاب ماذا يعتزم فعله بهذه القطعة، ولكن لم يشكك أحد في أن الشاب اخترع شيئاً غير عادي. كان من طابع علي خان ومحمد أن يستطيعا تسلية الناس. سمع صوت الأكورديون، وفي لحظة خاطفة قفز علي خان فوق المائدة. لم يفهم الحاضرون شيئاً، إلا عندما بدأ علي خان رقصته. منذ سنوات الطفولة كان محباً لرقصة «ليزغينكا» الإنغوشية، وكان يطور أسلوبه فيها دائماً.

قال محمد، وهو يبدأ بالقرع على مصطبة صغيرة:

- لماذا نمتم؟ صفقوا!

بدأ الرقص. كان علي خان يرقص على المائدة على رؤوس الأصابع، وكأنه نسر فتح جناحيه في قمة الصخرة. كانت الرقصة جميلة للغاية. كان من المستحيل متابعة الحركات السريعة لساقي علي خان وجسمه. كانت الحركات البطيئة تتناوب مع أخرى بطيئة وتدريجية. كان هذا الشاب الوسيم يرقص بمهارة، وكأنه في حفل كبير. كانت المقصورة ضيقة وقليلة الهواء. تصبب العرق من علي خان، وكأنه تعرض لمطر غزير. العربة كلها استيقظت نتيجة لـ«لوفزار» [20]. لم يعد هناك مكان لا في المقصورة، ولا في الممر. تجمع الركاب من العربات المجاورة لمشاهدة الرقص. صعد بعض الفتيان إلى سطح العربة، ليتابعوا النظر عبر النافذة. الرغبة في متابعة الحفل تفوقت على الخوف.

ظل علي خان يرقص لفترة طويلة دون الشعور بالتعب. توقفت ليبخان عن العزف حتى تتيح له فرصة للراحة. إلا أن الشباب لم يرغبوا في إيقاف الحفل، ورفعوا محمد إلى المائدة. سمعت نغمة الرقص. أدى محمد رقصته، ولكنه لم يكن بوسعه في هذه المقصورة الضيقة أن يستعرض مهاراته، وسرعان ما نزل من المائدة، قائلاً:

- يا علي خان، كان أسلافنا يقولون: إذا كانت هناك فرصة الخيار، فاختر ما يسعد روحك. لم أتمكن من الرقص. فقد أثارت إعجاب الجمهور أكثر من

غيري.

- إنك مهموم باللقاء مع الوطن فحسب.

- هل تقصد أنني جننت من الفرحة؟

ضحك جميع الحاضرين.

- يمكن قول ذلك. إنك تستطيع الترفيه عن الشعب، وإذا أردت، فيمكنك تسليتهم حتى أكثر من ذلك.

- بالطبع، إذا أردت، فإنك تستطيع القيام بأمور كثيرة أيضاً.

بدأ الجميع يطلبون من علي خان أن يرقص مرة أخرى.

تدخلت ليبخان في الحوار:

- ضع هذه المصطبة فوق المائدة يا علي خان، يمكن الرقص من دون طبل.

- ماذا تريدين فعله يا ليبخان؟

- لقد فهمتني. اختبر صلابة هذه المصطبة، فإنني أعلم قدراتك.

بدأت الموسيقى تسيل مرة أخرى من بين أصابع ليبخان، وبدأ الجميع يصفقون. قفز علي خان فوق المصطبة، وبدأ رقصته العجيبة. كان يدور فوق المصطبة الصغيرة. بدا أنه على وشك السقوط، ولكن الحركات الماهرة لساقي علي خان كانت تحول دون ذلك. كانت المصطبة تتسع بصعوبة لقدميه، ولكن ذلك لم يمنع الشاب من إظهار المهارة العالية. حتى الفنان المدرب ما كان له أن يؤدي الرقصة بشكل أفضل من ذلك. كل من شاهد الرقصة، كان يشكر علي خان. قبل خروجها من المقصورة، قالت سيدة عجوز:

- منذ يوم الولادة، لم يفرحني شيء مثل رقصتك وخبر إمكانية عودتنا إلى الوطن. بارك الله فيكم وأطال عمركم على هذه البهجة! نحن، الكبار، كنا نخشى أن الشباب سينسى رقصاتنا. الآن أرى أن رقصاتنا وتقاليدنا ستدوم!

خرجت المرأة من المقصورة، وتلاها الآخرون.

في هذه الحالة المعنوية المرتفعة، خطا علي خان وأشقاؤه إلى أرض الأجداد. إلا أن اللقاء مع بيتهم الأصلي لم يكن مثلما كانوا يتصورونه، إذ كان

«الأصحاب» الجدد موجودين بجميع البيوت، ولم يُسمح لعلي خان حتى برؤية الحديقة التي زرعها والده، فما بال دخول البيت. كان يعيش فيه رجل وحيد، ولم تؤثر فيه حتى دموع الفتيات، بل قابل جميع الطلبات بالرفض. حاول علي خان دخول الفناء، مبعداً «الصاحب»، ولكن الفتيات أوقفنه منعاً لحدوث فضيحة. في ذلك الوقت حضرت إليهم ليبخان، وحاولت تهدئة علي خان، قائلة:

- مثلما يقال، الفأر الجديد طرد القديم. علينا أن نكون متسامحين. لا شر سيمر من دون عقاب. فقط يجب ألا نستعجل. لسنا أنا وأنت فقط من مُنعا من دخول البيت، بل هذه هي حال نصف القرية. لكن هناك قرى كاملة، ويخصصون لنا قطع أرض بجوار القرية المجاورة.

- لست بحاجة إلى قطعة أخرى. لدي قطعة والدي التي زرعها بيديه. لماذا علي أن أسكن في مكان آخر، بينما سيقطع غرباء ثمرات التفاح في حديقتي؟ ليسكنوا هم هناك.

- يا علي خان، هكذا قَررَ مَن بين أيديهم السلطة.

- سأجبرهم على تعديل هذا القرار حتى لو بثمن حياتي. لست مجرماً يحاول الاستيلاء على ما ليس له، بل أريد العيش في بيتي! لست بحاجة إلى ما ليس لي. ليجمع حاجياته وليذهب!

- يا علي خان، النهر السريع لا يصل إلى البحر، وعليك ألا تفكر في نفسك فقط، وإنما أيضاً في ذويك. من احتلوا بيوت الغير، سيعدلون يوماً ما. وعلينا أن نكون متسامحين، من أجل موتانا على الأقل.

هدأت ليبخان علي خان بصعوبة.

هكذا كانت بداية حياتهم في المكان الجديد. ذهب علي خان للعمل بموقع البناء، آملاً الالتحاق بالدراسة بالنظام الخارجي في العام المقبل. إلا أنه أوفد الصغار للدراسة، وتولى هو نفسه أمور الأسرة. شيد بيتاً يصلح للعيش بصورة أو بأخرى، وأقام سوراً حوله، واشترى الأدوات المنزلية اللازمة للفترة الأولية. ولكن قلبه لم يكن متقبلاً لذلك المكان، ولم يزل منزل الأب خاطراً على باله.

بعد عودتهم إلى الوطن، عاش الناس في مودة بين بعضهم البعض، وكثيراً ما كانوا يلتقون ويقضون أوقات الفراغ معاً. ذات مرة في المساء، حين كان الشباب يجلسون عند بوابة بيت محمد، ظهرت على طرف القرية عربة بائع التفاح. سمع في محيطهم الصراخ: «تفاح، تفاح». كان الجميع يعرفونه،

وهو «صاحب» بيت علي خان، وكان الجميع يطلقون عليه اسم كازيك. في كل مساء، كان يستقل عربته إلى القرى المجاورة لبيع التفاح بأسعار ليست في متناول كل سكان القرية. في العام الأول بعد العودة، كانت موارد الناس محدودة. كان كازيك يشتري الكحول مقابل الأموال التي كان يجنيها عن بيع التفاح من حديقة الغير.

نظر محمد إلى علي خان، وقال:

- أتذكر أن هناك شخصاً ما وعد بأن يشبعني بالفواكه هذا العام. يبدو لي أنني سأموت إذا لم آكل تفاحاً.

فهم علي خان تلميحه، ورد:

- إذا مت، سندفنك، فلن نتركك ترقد تحت الشمس.

- لكن التزم بوعدك. لا أنوي الموت قبل أن آكل تفاحاً! نحلم بذلك منذ زمن منفانا الطويل.

انهمك علي خان في التفكير للحظة، وقال:

- إن شاء الله سأفي بكلمتي، وسأشبعك بالتفاح، إذا صبرت لأسبوع واحد.

- ماذا سيتغير خلال أسبوع؟

- سترى.

- عزيزي علي خان، أريد تفاحاً يتم جنيه بطريقة أمينة ولا يستحوذ عليه بالقوة.

- أولاً، سيكون ذلك بطريقة أمينة حتى إذا استوليت عليه بالقوة، لأنه جمع هذا التفاح في الحديقة التي زرعها والدي بيديه. أضطر لشراء التفاح من حديقتي. ثانياً، لن أضطر حتى أن أطلب منه، فسيعطيني كمية التفاح التي تريدونها. هل سأفي بكلمتي في هذه الحالة؟

تدخل أحد الحاضرين في الحوار:

- لماذا تحتاج إلى أسبوع كامل يا علي خان؟ سيكون كازيك هنا غداً، فهو يحضر يومي السبت والأحد من كل أسبوع.

- لماذا، لماذا!!! أريد تربية اللحية!

مزح محمد:

- حتى إذا ربيت غابة كاملة، لن ينمو التفاح على اللحية!

- رغم أن اللحية لا تلِدُ تفاحاً، فإنها ستغذينا جميعاً بها. نلتقي في نفس المكان بعد أسبوع.

بدأ الشباب الذين كان يبلغ عددهم حوالي عشرة، بالمغادرة. لم يسعوا لمعرفة المزيد منه، فكانوا يعلمون أنه لن يكشف لهم سره، ولكنهم فهموا من عيني الشاب أنه اخترع شيئاً مسلياً.

في الوقت المحدد، اجتمع الجميع في المكان المحدد. لم يغب سوى علي خان ومحمد. ظناً منهم أنهما يتأخران لسبب ما، كان الشباب يتحدثون مع بعضهم البعض بحماس. بعد قليل، ظهر كازيك على الطريق، وكانت عربته مليئة بالتفاح.

- أبيع التفاح، اشتروا التفاح! حالما ابتعد بائع التفاح قليلاً عن الشباب، قفز أحد ما من خلف سور الحديقة المجاورة، وجرى خلف العربة، مصدراً هديراً. التفت كازيك إلى الخلف، وأصيب بحالة من الرعب. صارخاً «تفاح، تفاح»، كان يطارده وحش يرتدي معطفاً من جلد الغنم، وفي خصره سلسلة حديدية سميكة، ويحمل وتداً خشبياً، وفي قدميه حذاء قديم من القماش المشمع، أي كان يشبه دباً ذا عينين تلمعانِ بالشر.

لم يكن كازيك قادراً على تجاوز حالة الصدمة، وظن أن شخصاً مجنوناً يطارده بعد أن هرب من محبسه. وكان المطارد يصرخ: «تفاح، تفاح». كاد أن يصل إلى العربة، ولكنه تعثر مصطدماً بالحجر، وسقط على الأرض. خرج كيزيك من صدمته، وبدأ يلقي بالتفاح من العربة، وهو يضرب الحصان بالسوط في آن معاً. وقف الوحش على قدميه بصعوبة، وواصل ملاحقة بائع التفاح. سمع في المكان الصراخ: «تفاح، تفاح».

ظن كازيك أن المجنون لا يكفيه التفاح الذي يلقيه بيديه، فخلع الخشبة من مؤخرة العربة، ليتساقط التفاح على الطريق. ولكن الوحش لم يتركه وشأنه، بل واصل الصراخ بلا توقف: «تفاح، تفاح».

عندما اقترب الشباب المتابعون لهذا المشهد من كازيك أخيراً لمساعدته، خرج محمد من خلف السور، وكان يضحك. حينئذٍ فقط، أدرك

الجميع ماذا يجري: من غير علي خان كان يمكنه اختراع مثل هذا الشيء. إلا أنه اجتهد كثيراً حتى يفي بكلمته. وزع التفاح على جميع سكان القرية الذين شبعوا به أخيراً.

منذ ذلك الحين، لم يظهر كازيك مرة أخرى في القرية مع التفاح، بل باع البيت لعلي خان، وغادر إلى مكان ما. سكن علي خان في بيت والده، وبات يعتني بحديقته، محققاً حلم والديه.

سليمة كوركمازوفا

الصباح

كانت سفيتلانا تحب المدينة في الصباح. الآن في عمرها الذي بات يناهز الـ50 عاماً، لم يعد من الصعب أن تستيقظ مبكراً بنصف ساعة حتى تصل من البيت إلى العمل. كان الشارع في الصباح شبه خالٍ، ولم يكن هناك معارف لها بين المارة النادرين، فلم يعطلها عن الأفكار الصباحية أحد. عاشت سفيتلانا في هذه المدينة منذ قرابة 30 عاماً، وكان الكثيرون يعرفونها. إن المدينة صغيرة، ولكنها كانت عاصمة الجمهورية.

كانت تسير الهوينا، وهي تتطلع حولها، منهمكة في أفكارها التي لم يطرأ عليها شيء بعد. خلال نصف الساعة، حاولت ألا تفكر سوى في أمور إيجابية، مبشرة بالخير في اليوم المحموم الجديد الذي لن يكون سهلاً، ولكن هذه الدقائق المعدودة لها وحدها الحق فيها. كانت سفيتلانا تحب أن تتذكر الصباح الباكر في طفولتها والذي كان يبدأ بهدير جرارة والدها... كان يعني ذلك حلول الساعة السادسة وتوجه الوالد إلى الحقل. كان رئيساً لفرقة العمل الشيوعي، وكان قدوة للجميع في القرية. لم يكن عادياً في كل شيء، وكان الوالد أول رجل أحبته بكامل قلبها. كان طويلاً وعريض الكتفين ذا عينين خضراوين كبيرتين تحت حاجبيه العريضين، وأنف مستقيم وشفتين كبيرتين حساستين. يقال اليوم على أمثاله إنه «أجمل من ألان ديلون»... كان النصف النسائي من القرية من الـ15 إلى الـ50 من العمر، ينظر إلى الوالد بإعجاب، مما تسبب في حدوث دقائق مريرة كثيرة لوالدتها التي لم تتميز بجمال خاص، ولكنها كانت ذات حيوية ومحبة للحياة.

كانت سفيتلانا تعلم أن أكثر أنثى في العالم يحبها والدها، هي نفسها، الابنة التي طال انتظارها والتي بلغت الرابعة من العمر. ولما ولدت الابنة الثانية وأصبحت في عمر عام واحد كانت ترقد في القيلولة، بينما كان الوالد حزيناً لكونها ليست ابناً، ولذلك كان يعاملها بشيء من البرود. كانت سفيتلانا حتى تشفق قليلاً على شقيقتها التي لم تكن تفهم شيئاً بعد.

كان هناك شعور بحب الوالد في كل شيء: في عنايته وابتسامته المشرقة، وإلقائها إلى الأعلى، وكان هو وحده يطلق عليها اسم الدلع «سفيتلياتشوك». بعد أن كبرت، باتت تبحث في الرجال عن هذا الدفء الذي كان يصدر من والدها. ولكن للأسف... ظل ذلك حلماً لم يتحقق.

أما الآن، فهي في الرابعة من العمر فقط. وفي الصباح الباكر عليها أن تهرع إلى والدها حتى يلقاها ويقبلها، ويعيدها إلى الأرض بعناية، وهو يداعب شعرها الممشط. لم يلتقيا كثيراً في الصيف. كان الوالد مختفياً في الحقل من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل، إذ كان يجري جني المحصول، فكان يستقل الحاصدة ويعمل حتى الليل.

بعد توديع والدها، جرت سفيتلانا إلى ورودها المفضلة التي كانت تزدهر في الحديقة المحيطة بالمنزل والتي أنشأها الوالد في عام ميلادها. البيت الجديد المكون من غرفتين كبيرتين وممر طويل كان يطلق عليه اسم «الشرفة»، كان مفخرة الوالد وموضع حسد سكان القرية. ولكن المفخرة الأكبر كانت الحديقة الكبيرة ذات الأشجار المثمرة وكروم العنب. في تلك السنوات، لم يهتم كثيرون بالزراعة، بل كانوا يربون المواشي، وكانت الحظائر، لا المزارع، تحتل الجزء الأكبر من الأفنية. أقامت الشقيقة الكبرى للأب أول حديقة في القرية، وهي كانت تصاحب مُدَرِّسَة مُطَلِّعَة على مثل هذه الأمور كانت تشاركها أسرار زرع الخضراوات. كانت يدا الوالد ذهبيتين. كان باستطاعته القيام بأي عمل، وكان أي غصن يزدهر بمجرد أن يزرعه غريشا. والآن انتشرت في الحديقة رائحة التفاح والمشمش. نمت شجرة مشمش عجيبة أمام المنزل، وأثمرت لأول مرة هذا العام. كانت الجدة والأم تتحدثان بصوت منخفض في المطبخ الصيفي أثناء تناول الشاي الصباحي. كانت سفيتلانا تقف صامتة أمام الورود حتى لا تلاحظها الجدة لأطول وقت ممكن، لأن أول ما ستقوم به هو تمشيط شعرها الكثيف المشاغب. ولكن الجدة هي نصف كارثة، والكارثة الحقيقية هي قدوم الجارة صونيا التي كانت تحضر للحصول على الحليب الصباحي، ولكنها كانت تعتبر أن من واجبها أيضاً تمشيط شعر سفيتلانا. لم تكن ترحمه، بينما لم يكن بإمكان الجدة والأم أن تقولا شيئاً من باب اللباقة. كانت سفيتلانا تكرهها بكامل قلبها الصغير.

ابتسمت سفيتلانا لهذه الذكريات من الطفولة، وانهمكت في التفكير، لم تلاحظ كيف وصلت إلى العمل. تنفست، وفكرت أن الجدة وصونيا والوالد العزيز لم يعودوا على قيد الحياة منذ فترة طويلة. هرمت الأم، وأصبحت ذكرياتها غير سعيدة إلى حد كبير. تعلم سفيتلانا أنها وحدها تتذكر الوالد بهذه الصورة المشرقة.

عند دخولها المبنى، رأت أن أحد الحراس الذي كان معجباً بها، خرج من كشكه، وانحنى مثل المهرج، وقال:

- ها هي حضرت ملكتنا!..

لقد اعتادت سفيتلانا سخريته، وهزت رأسها علامة السلام، وأرادت أن تمر به بهدوء، ولكن الحارس قام بحركة يد غير واضحة، وقال:

- لا تستعجلي يا جلالة الملكة. هناك من ينتظر استقبالك منذ الصباح الباكر. فقد قلت إنك لا تحضرين مبكراً أبداً، ولكن هناك اجتماعاً اليوم، وهذا من حظ هذا الشخص الغريب. كان عليه إجراء اتصال على الأقل طالما حضر من مكان بعيد. ولكن لا تغازليه كثيراً، وإلا سأروي كل شيء لزوجك.

كان زوجها يصطحبها من عملها أحياناً، وكان الجميع هنا يعرفونه جيداً. دون أن تفهم تماماً ماذا قال الحارس، نظرت سفيتلانا إلى عمق الردهة، حيث كان يجلس شخص ما وبحوزته باقة الأقحوان. بالطبع!.. كان هذا الشخص يكره الرسميات والاتفاقات واللقاءات المتفق عليها مسبقاً هاتفياً. وما كان له أن يحضر إلا بشكل مفاجئ في صباح الاثنين.

اقتربت سفيتلانا منه هادئة، وكأنه لم يفصلهما فراق دام 30 عاماً.

- مرحباً. كنت أعلم أنك ستحضر يوماً بهذه الصورة في صباح الاثنين.

ابتسم ابتسامته الخجولة بعض الشيء:

- مرحباً بك يا عكاز.

هكذا كان يسميها في سنوات الدراسة الجامعية، إذ كانت سفيتلانا أصغر وأرفع الفتيات اللواتي كانت تقطن معهن في الشقة. كانت تدرس في كلية التربية، وهو في المعهد الفني للسكة الحديدية الذي كان الجميع يطلقون عليه اسم «لابشا».

وقع صديقه من قومية الكوميك رسلان في غرامها، ومن باب التضامن بين الرجال، لم يكن بوسع نوريك أن يغازلها لفترة طويلة. كان لسانه حاداً، وكان يسخر منها بمختلف الطرق. إلا أنه تغير تماماً بعد أن أقدم فاسق قروي على محاولة فاشلة لخطفها خلال أعياد مايو. لحسن الحظ، لحقها الزملاء، وضربوا الخاطف وشرحوا له أن الفتاة عمرها 17 عاماً فقط، وأن والدها قد يقتله دون النظر حتى إليه.

لم يتغير نوريك تقريباً، ولكنه بالطبع ازداد وزناً. كما أنها لم تعد عكازاً أيضاً. وجدها بعد مرور عشر سنوات تقريباً بواسطة الإنترنت. لم يكن إيجادها صعباً، لأن سفيتلانا كانت شخصية معروفة إلى حد كبير، وكانت تظهر على شاشة التلفزيون كثيراً، فبمجرد أن كتب اسمها بمحرك بحث، ظهرت صورها ومقالات عنها.

كان اسمه نادراً: نورغيسي، أي «شخص مشرق، شعاع»، فكانت تسميه في داخل روحها «نوريك»، أي «شعاع». بهذا الاسم تحديداً أدركت أن هذا هو. كان من النادر أن ينادوه باسمه الكامل. ظل اسمه بالنسبة إلى الزوجة والأصدقاء والأقرباء هو نوريك، أي الإنسان السعيد الذي سعى طوال حياته لإثبات أنه يستطيع تحويل أي شيء إلى احتفال. لكن جرحاً واحداً فقط لم يلتئم داخل روحه، وهو فقدان حبيبته سفيتلانا. كانت زوجته تتكهن أنه لم يتقبل الخسارة رغم أنه لم يكن يظهر ذلك. قاما بتربية ثلاثة أبناء، وبات لهما أحفاد. لكنه كان يهتز بمجرد سماعه اسمها في الحشد أو في حفل زفاف أو مصادفة في الشارع. كان ينظر حوله، ويبحث عنها بنظرته: ربما؟ كان يمكنه مقابلتها مراراً، ولكنه كان يتعمد تجنب هذه الفعاليات. كانت سفيتلانا مقيمة في جمهورية أخرى، وكانت سعيدة في زواجها، وزوجت ابنتها مؤخراً، وولد حفيد... تحدثا هاتفياً بضع مرات خلال هذه السنوات، وكانت كل هذه الأحاديث تتميز بمرارة حلم لم يتحقق، مصير لم يتحقق. كان يعمل في مدينة سورغوت، ولم يكن يزور بيته سوى مرتين في العام، وكان يغادر إلى البحر في أي وقت مناسب. كان البحر هاجسه. كان يحب البحر أكثر من أي شيء آخر في العالم. حتى أكثر منها... وإلا لكان قد حضر إليها منذ فترة طويلة خلال تلك السنوات العشر التي وجد أحدهما الآخر خلالها. ماذا كان يخشاه؟ طلبت منه مراراً أن يلتقيا، وكانت تنتظر كل يوم. الشيء الوحيد الذي لم تستطع القيام به، هو أن تترك كل شيء وتتغلب على كبريائها وتسافر إليه بنفسها. فكرت في ذلك كثيراً، ولكنها لم تكن قادرة على ذلك. ذات مرة قد تصرفت بهذا الشكل، ولم يسفر ذلك عن نتيجة إيجابية.

حدث ذلك قبل 30 عاماً في عيد ميلاده في ذروة الخريف. كان ذلك يوم السبت. لم يكن لديها دروس في المدرسة في ذلك اليوم، ودون أن تقول شيئاً لوالدتها (لم يكن الوالد يعيش معهما في ذلك الوقت)، حجزت تذكرة إلى مدينة مطلة على البحر، وظلت تنتظره بمحطة الحافلات لخمس ساعات. لم تكن هناك هواتف نقالة في ذلك الوقت، وحتى الهواتف الأرضية كانت نادرة. كتبت له قبل ذلك بأسبوع أنها تريد تهنئته بعيد ميلاده، وأنها تريد أن تتذكر أعياد الميلاد النابضة للطلاب التي كانوا يحتفلون بها بقليل من الطعام والبطاطا المخمرة والمشروبات الغازية الرخيصة.

كانت أعمارهم 17 عاماً أو أكثر قليلاً. بدأت المرحلة الخريفية من التجنيد، وكان الجيش بانتظار الشباب. لم يبق لهما سوى بضع أمسيات وسط الضباب. كان مطر خفيف يتساقط ويسيل على شعرها الطويل الذي كان يداعبه بيديه برفق. كان يصطاد قطرات المطر بشفتيه، ويقول بهدوء: «ستبردين...»، وكانت ترد عليه مبتسمة: «لا، لا أشعر بالبرد...». كان يخفيان هذه اللقاءات من الجميع، هو من الأصدقاء، وهي من جاراتها في الشقة. لم تكن لها صديقات. ظل يطاردها رسلان الذي لم يعرف الاستسلام، بينما لم تكن فتيات أقل منها جمالاً يخفين حسدهن. كانت سفيتلانا جميلة للغاية في ذلك الوقت، وكان هذا الجمال يدخل عيون الجميع بوقاحة. عندما ذهبت إلى المدرسة لتلقي تدريبها كمدرسة، كانت تخطف أنظار السائقين إلى حد أنهم كانوا يصطدمون بالأرصفة ويذكرون الشيطان في دخائلهم. والآن، بمرور الزمن، أصبح هذا الجمال هادئاً ومهيباً، وفكر نوريك: «ليس مصادفة أن هذا الثرثار كان يسميها ملكة». عندما اقتربت منه، لم تظهر قلقها بأي شكل من الأشكال. لم تهتز أي عضلة في وجهها. كان أحد الحاجبين أعلى من الآخر دائماً. بدا فقط أكثر انحناء الآن...

وصل في نهاية الأمر... لم تمر عشر سنوات. لماذا لم تتصل؟

لم يكن هناك داعٍ لطرح هذا السؤال، وكأنها لا تتذكر أنه لا يتحمل الاتفاقات المسبقة...

استقبلت باقة الزهور من يديه، قائلة:

- اعذرني، لدي اجتماع الآن.

تخيلت دهشة مديرها الشاب الذي كان يبغضها خلسة بسبب حب كامل فريق العمل تقريباً لها وعلى عشقها للحياة، وضحكتها الرنانة والصادقة، والانفتاح ورفض الظلم. كانوا ينتظرون منها الكلمة الأخيرة دائماً. والآن أيضاً، بدلاً من الاستمتاع بلقاء شخص عزيز انتظرته لسنوات طويلة، عليها الجلوس لساعة ونصف الساعة تحت نظرة أستامير الذي لا تحبذه.

- يوجد مقهى مفضل لدي قريباً. ستنتظرني هناك، وسأشرح لك كيف تصل إليه...

لم تسأل ما إذا كان سائقاً أم لا، رغم أنها كانت تعلم أنه يملك سيارة. لمست كوعها لمسة خفيفة، وأخرجت نوريك إلى العتبة وأشارت له إلى اليمين:

- هناك خلف الاستدارة.

- حسناً يا سفيتلانا.

ابتسم. لم يكن بوسعه أن يجادلها. كانت دائماً مناصرة شرسة للعدالة، ولكنها ظلت نفسها من دون حماية.

عندما بقي له نصف عام فقط في الخدمة، تم خطفها في نهاية الأمر. وهذه المرة بنجاح. كم مرة حلم بالحضور إلى هذه القرية النائية لضرب هذا الشخص الوقح وإخراج الروح منه على تدميره حلمه الهش وروحها المجروحة من دون حماية. لم يكن بوسعها الفرار إلى المنزل. كان والدها سيعود إلى أمها وسيقتلها بسبب عار عودة الابنة المخطوفة. هكذا بقيت لمدة عامين. كان زوجها طالباً نظامياً. لم يكن يسافر إلى أهله سوى في الأعياد، ولم يرَ أحدهما الآخر كثيراً. كان يحبها حباً لا يعرف الحدود وكان يغار منها بصورة وحشية علماً منه أنها كانت غراباً أبيض في هذه القرية، وكان ينظر إليها جميع الذكور بدءاً من المراهقين وحتى الشيوخ.

كانت سفيتلانا تعمل في مدرسة في القرية المجاورة، وكانت تضطر لقطع سبعة كيلومترات على قدميها يومياً، صيفاً وشتاءً، وكانت تمر بحظيرتين تحرسهما كلاب شرسة. كان والدا الزوج وشقيقاه الصغيران يحبانها حباً كبيراً. كان أحدهما في نفس عمرها، وكان يبعد عينيه بخجل، عندما كان يسلمها القمصان والسراويل الملطخة بالزيت لغسلها. كان الوالد ونجلاه يعملون كسائقي جرارات. عندما أنهى زوجها الدراسة، لم يعيشا سوياً سوى لبضعة أشهر، فتركته يوم عيد ميلادها بعد فضيحة كبرى جديدة. حاول الشقيق الأصغر للزوج الدفاع عنها، عندما سمع خلف الحائط الاتهامات الظالمة التي كانت توجه إلى سفيتلانا، ولكنه لم يكن من تقاليد هذه الأسرة معارضة الكبار، فالأخ فكر بضيق فحسب: «إنه أحمق. لم يفهم حتى الآن، أي عصفور جنة حصل...».

استقبلتها الأم صامتة، فقد كانت تعلم أن سفيتلانا غير سعيدة في زواجها، واحتاجت إلى عام كامل حتى تستعيد صوابها. طوال العام، كان أهل الزوج وشقيقاته وهو نفسه يحضرون طالبين عودتها. على مدى ليالٍ كاملة، وقف الزوج على ركبتيه أمامها، طالباً المغفرة، إلا أنها لم تستجب. أدركت الآن أنها لم تشعر حتى بغضب تجاهه. كان هذا الشخص غريباً بالنسبة لها، وبمروره بها دمر سعادتها في ظرف ساعة واحدة.

عند رؤيتها معاناة ابنتها، قالت الأم:

- عليك الرحيل، فلن يتركوكِ في حالك. فكري.

كانت هي نفسها تدرك أنه لا مفر من السفر، وكان يجب عليها بدء حياة جديدة. لكن كيف؟ ومع من؟.. حينئذٍ تحديداً تجرأت على السفر إلى حبها الوحيد نوريك. طوال الطريق إلى المدينة البحرية ظلت تفكر: هل تلقى الرسالة؟ وماذا لو لم يتلقاها؟ هل سيستقبلها؟ ماذا لو لم يصدق؟ فقد ظلت بالنسبة إليه خائنة. بعد الزواج توقفت ببساطة عن مراسلته، بينما أبلغته صديقاتها الغادرات قريباً بأنها تزوجت شاباً من أسرة جيدة، وتعيش في سعادة، ولم تعد تفكر فيه. كان الوضع كذلك في الوهلة الأولى، إذ لم ير دموعها أحد. كانت تزداد جمالاً، وحتى حماها كان يصرخ في بعض الأحيان، عندما كان يراها تخرج إلى الفناء، وضفيرتها الثقيلة تجر رأسها إلى الخلف، لتزداد سفيتلانا الرفيعة كبرياء. كان الرجل الحكيم يدرك مدى معاناتها في هذه القرية، وكان في كل مرة يذكر ابنه المتوسط: «عندما تذهب إلى حفل زفاف، خذها معك، وأعِدها عندما تريد هي». كان حماه يدرك بداخله أنها ستتجرأ، طال الزمن أو قصر، على تجاوز الرسميات، وستترك نجله. كان يفكر في ابنه: «يبدو أنه ليس غبياً، ولكنه أحمق!»، وذلك عندما كان نجله يدرس في هدوء، بينما كانت زوجته الشابة والجميلة للغاية تعمي عيون الجميع في قرية نسيها الله.

أثناء سماعها لعرض جديد من دون تركيز، بدأت سفيتلانا مرة أخرى تتذكر ذلك اليوم البارد، حين جلست بمحطة الحافلات لبضع ساعات. الشمس مالت إلى الغروب. لم تكن سفيتلانا تعرف أحداً في هذه المدينة. كانت تخاف الذهاب إلى الفندق منفردة. فكرت: «في أسوأ الأحوال، سأستقل حافلة ليلية إلى المركز المحلي، وسأصل لدى حلول الصباح». ولكنه حضر في نهاية الأمر! لم يكن وحده، بل حضر برفقة ابن عمه الذي أرسلت إليه سفيتلانا ذات يوم خطاباً إلى الجيش أيضاً. كان سلوك نوريك غير طبيعي ويمزح في غير محله، ربما كان محرجاً أمام ابن عمه؟

تذكرت أنهم استقلوا حافلة مسائية إلى بلدة ما، وذهبوا إلى شقة أحد الأقرباء، وفرشوا المائدة سريعاً، فهذا عيد ميلاد في نهاية الأمر. شربوا نبيذاً أحمر حلواً، غالباً لكسب الجرأة. ثم انصرف ابن عمه. أشار نوريك لسفيتلانا إلى سريرها، وأخذ الوسادة وذهب للنوم بالطابق الثاني. إنها بالطبع، لم تكن تأمل في أن يغفر لها بهذه السرعة. ولكنها كانت تظن أنه سيستمع إليها، إلا أنه أخذ الوسادة وانصرف بشكل استعراضي. كانت الكبرياء الجريحة ومرارة الهزيمة تغليان بداخلها، وبدأت تبكي في هدوء.

لكن الاستسلام لم يكن من طابعها. هل ستتراجع هي التي تجرأت على الحضور إلى رجل بنفسها متجاوزة كل الرسميات، وهي الآن على بعد خطوة

من حبيبها؟ لا، لن يحدث ذلك! اقتربت وسط الظلام من السلم، وصرخت:

- ارجع يا نوريك! علينا أن نتحدث... أرجوك، فأنا مرعوبة...

كانت الشقة باردة، وبدا أنه لم يدخلها أحد منذ فترة طويلة. سمعت خطوات على السلم.

- لقد عدت.

جلس نوريك بجوارها بخجل. كانت سفيتلانا ترتدي لباساً دافئاً، ولكنها كانت ترتعش من القلق أكثر منها من الخوف. لم تبق في ذكرياتها سوى بضعة لقاءات في أيام الشباب، وثلاث سنوات من الفراق، وخيانتها وعدم تحمله ذلك. ماذا بعد؟

ظلت لفترة طويلة تنظر في عيني حبيبها، وكأنها كانت تعشق هذا الوجه والعينين الخضراوين مثل العنب الناضج والشفتين الطيبتين. كم افتقدته، وكم من الكلام أرادت أن تقوله له... كان يغرق أيضاً في عينيها العجيبيتن، ويغوص في ذكريات الطفولة. تذكرا سنوات الدراسة الجامعية الخالية من الهموم، ولعبة اللحاق بالركب في السهول، وباقات ضخمة من زهور الخشخاش البري الأحمر... كم رغبا في إطالة هذه الدقائق. بقيا منهمكين في استعادة الذكريات الجميلة، ولم يلاحظا أن الشمس بدأت تشرق...

- أنت حبي الأول والوحيد يا سفيتلانا.

كم رغبت في سماع هذه الكلمات. في جوهر الأمر، كان هو أول رجل لها. ما كان لها أن تسعد في أحضان شخص غير محبوب وغير مرغوب فيه وغريب تماماً أجبرها على حمل اسم عائلته. إنها لن تكرر هذه الحماقة مع الأزواج القادمين، وستظل تحمل اسم عائلة والدها طوال حياتها.

حل الصباح... كان هذا أسعد صباح في حياتها... هل كان يمكن النوم في مثل هذا الصباح؟ كانت هناك ساعات معدودة من السعادة، إذ كانت مدركة أنه بعد مرور بضع ساعات عليها التوجه إلى المنزل... هناك العمل غداً. إلا لو... إلا لو طلب منها أن تبقى معه إلى الأبد. على الأرجح، كانت هذه أكبر أمنياتها. كانت تنظر إلى وجهه المحبوب إلى ما لا نهاية وتستحضر بداخلها: «لا تتركني! أرجو منك ألا تتركني...». يا ليتها كانت تستطيع النطق بذلك! يا ليت...

طلب منها بصورة اعتيادية:

- احضري لي ماء من فضلك.

ذهبت لإحضار الماء في خضوع. انتهت القصة.

- حلت الساعة الثامنة، وعلي التوجه إلى المحطة. موعد الحافلة عند الساعة الحادية عشرة.

- سأصطحبك.

ظلت تلوم نفسها، وهي تسكب الماء المغلي من الثلاجة: «هذه هي النهاية. وفيمَ كنت تأملين؟ أنت امرأة شابة لها ماض، وهو شاب لم يتزوج بعد. لماذا يحتاج إلى وردة غير طازجة مثلك... إنك غبية!».

شربا شاياً، وتوجها إلى محطة الحافلات، ولم يتحدثا تقريباً أثناء الطريق. نادراً ما كان ينظر إليها بنظرته المتأملة الطويلة، ولكنه قد يبعد عينيه بعد أن يعترض نظرتها التي لم يكن يتحملها. كان اليوم مشمساً ومشرقاً. رأى امرأة ما في المحطة، وقال:

- هذه شقيقتي الكبرى، سأذهب للترحيب بها.

خطرت على بالها فكرة: «أتخيل ماذا ستفكر في». لا تتذكر كم وقفت، وهي تنتظره. لقد فتحت أبواب حافلتها، ولم تبق سوى دقائق معدودة قبل المغادرة. كان قلبها يغرق في الدموع، وثمة ابتسامة خفيفة وهشة على شفتيها. اقترب منها فجأة من جانب آخر تماماً، وهو يحمل باقة من الأقحوان الكستنائي ذي بقع صفراء. لم يقدم لها كهدية مثل هذه الورود أحد من قبل.

- قالت شقيقتي إنك جميلة جداً...

- شكراً لها. هل تتذكر أنك أرسلت لي من الجيش صورتك مع زهور الحقل؟

كانت هذه الباقة بمناسبة تخرجها في معهد التربية، وكان يمد بها، وعلى وجهه ابتسامته العريضة. لا تزال هذه الصورة محفوظة في ألبوم صور سنوات الدراسة. كم كانت تحسدها الفتيات! على الأرجح، لم يخطر على بال المعجبين بهن تقديم مثل هذه الهدية.

تم الإعلان عن تحرك حافلتها.

سالت دمعة الغدر من عينها:

- ليودع أحدنا الآخر.

- لنذهب إلى الحافلة، سأصطحبك.

كانت تدرك أنه لا مفر من الفراق بعد بضع دقائق... أجلسها بجوار النافذة. بدأت الحافلة تتحرك من المحطة. نظرت إليه نظرة متسائلة. خلع المعطف، وجلس بجوارها.

- لقد قلت إنني سأصطحبك. حتى منزلك.

لم تصدق أذنيها. بدا لها أنها تقبلت فكرة الفراق الحتمي. والآن... إنه غير قابل للتنبؤ دائماً. لم تكن تتذكر الطريق إلى المنزل بصورة جيدة. شعر بالارتياح، إذ بات أمامها بضع ساعات ثمينة مع حبيبها. ضحكا كثيراً أثناء الطريق، متذكرين أيام الشباب والدراسة.

- هل تتذكرين أننا قمنا برحلة على متن القطار، وكان شابان من الكوميك من أصدقاء رسلان يغنيان أغاني غير لائقة، وهما في حالة السُكْر. لم تتجرأ أية فتاة سواك على مقاطعتهما. منذ ذلك الحين كنت محاربة أمازونية...

تناولا الغداء في المركز المحلي. بقيت ساعة من الطريق إلى قريتها. حل المساء. كان يمكنه العودة بنفس الحافلة، ولكن هذا الشخص كان يفي بوعده دائماً. وصلا إلى قريتها، وظلا يتجولان دون أن يتجرأ على خطوة لاحقة.

واضعة وجهها في الأقحوان، قالت أخيراً:

- لنذهب إلى بيتنا.

- ماذا سنقول لوالدتك؟

- سنقول إنك حضرت إلي، وإنه ليس هناك مكان للمبيت.

كانت والدتها من أصحاب الأخلاقيات الصارمة، وكان من باب الجنون أن تحضر سفيتلانا رجلاً ليلاً. كانت تعلم أنها ستعاقَب بقسوة وستتعرض للضرب. شخصية والدتها معقدة، كما حولتها الخيانات المستمرة من قبل الوالد إلى كارهة للرجال.

لم تكن الأم تنتظرها. كانت تعمل في قريتها وتعيش في بيت خالها. ظنت أنها لم تعد للعطلة الأسبوعية فحسب. عندما دخلت سفيتلانا إلى البيت، ذهبت والدتها للنوم، فاصطحبت نوريك إلى غرفتها. كان والدها في ذلك الوقت

مع ضحية جديدة وقعت في غرامه. كان الوالد في الـ50 من العمر، ولكنه لم يزل وسيماً للغاية.

الآن، عندما بلغت هي الأخرى الـ50 من العمر، أدركت سفيتلانا أن هذه ليست شيخوخة، وكان لوالدها الحق في السعادة. لم تكن الأم تتفهمه، لأنها لم تحب أبداً، إذ كانت لها قصة حب غير سعيدة أيضاً. سقط الوالد ضحية للظروف.

أجلست نوريك على الديوان، وذهبت لغلي المياه في الغلاية.

خرجت الأم من غرفتها:

- من هو؟ لينصرف.

- يا ماما، إنه ليس من هنا. أرجو من فضلك أن يبيت عندنا، وسيغادر غداً في الصباح. من فضلك...

- حتى يرى الجيران غداً أن هناك رجلاً يخرج من بيتنا! إنك غبية تماماً...

بدأت الأم بالصراخ، وشعرت سفيتلانا بالعار، لأن نوريك يسمع كل شيء. هرعت إلى غرفتها. كان قد ارتدى ملابسه.

- سأغادر يا سفيتلانا.

- إلى أين ستذهب ليلاً؟ سأقنعها بألا تصرخ، وسأنام معها...

- لا أريد البقاء وحيداً.

خرج من الغرفة. كانت الأم تقف في الطرقة، وتنظر إليه بتأفف.

دون أن يوجه حديثه إلى أحد، قال:

- المعذرة...

خرج وتبعته سفيتلانا، متمسكة بآخر أمل:

- من فضلك، لا تغادر. هل تريد أن أغادر معك؟

صرخت الأم:

- سفيتلانا! ارجعي فوراً!

كانت في غضبها تتحول إلى الصراخ دائماً.

- ارجعي إلى البيت حتى لا تبردي...

- وأنت؟ لا تقلقي، لن يحدث لي شيء.

كان واقفاً بجوار البوابة، وكانت سفيتلانا تدرك أن هذا الفراق إلى الأبد. غادر عند منتصف الليل في قرية لا يعرفها... إنها خانته للمرة الثانية.

... في الصباح، رأت زهور الأقحوان ممزقة في صندوق القمامة. لم تكن الأم تتحمل أي عواطف. لاحقاً، كانت تتذكر الأم ذلك اليوم وتلوم نفسها، لأن سفيتلانا لم تعد سعيدة.

لم يكتب لها نوريك. مر عام. غادرت سفيتلانا إلى مدينة كبرى، وغيرت مجال عملها، وتزوجت رجلاً أكبر كثيراً منها في العمر. ذات مرة التقت نوريك في حفل شعبي كبير. كان ذلك اليوم خريفياً بارداً. اضطرت سفيتلانا لارتداء وشاح الموهير التابع لزوجها حتى لا تبرد. وفجأة أتى إليها نوريك...

- مرحباً بك يا سفيتلانا! هل تعملين؟

- مرحباً! كيف حالك؟ تسعدني رؤيتك!

- يا سفيتلانا، لقد تعرضت لحادثة مروعة، ولم أعد أتذكر كثيراً من الحياة السابقة... أتذكر الليل والمطر الذي يسيل فوق شعرك...

- كيف؟! هذا فقط؟!..

- هذا فقط تقريباً...

كان زوجها غيوراً إلى درجة الجنون. شعر بأن هذا الشاب ذا القبعة الدافئة يشكل تهديداً كبيراً بالنسبة إليه، انفصل عن حشد الرجال، وتوجه بخطوات سريعة إليها، واحتضنها وكأنه صاحبها.

- ألم تبردي يا فأرة؟.. ومن هذا؟

- هذا صديق من أيام شبابي...

- نعرف مثل هؤلاء الأصدقاء...

- إلى اللقاء يا سفيتلانا.

ابتعد نوريك واختفى وسط الحشد. بكت سفيتلانا. إنه لا يتذكر شيئاً...

بعد العودة كتبت له. كان يعيش مع جدته في قريته، وتزوج قريباً. لم يعد هناك معنى للتواصل. أنجبت سفيتلانا ابنة، وتركت زوجها للعمل في مدينة في جمهورية أخرى. ذات مرة اضطرت للتوجه إلى قرية نوريك لدواعي العمل. كان يقطنها رسام رائع وأستاذ وصديق لزوجها الحالي. وعند تحدثها مع العمة العجوز للرسام، سألت:

- ألا تعرفين نورغيسي؟ يطلق الجميع عليه هنا اسم نوريك.

ابتسمت السيدة ابتسامة مشرقة:

- بالطبع، أعرفه، ولكنه ليس هنا الآن، بل يعمل في مكان ما في الشمال. لكن زوجته وأبناؤه هنا. يقال إنه عيّن ابنه الصغير للعمل معه أيضاً...

ابتسمت سفيتلانا بمرارة. إذن ليس هناك نصيب. لم يكن زوجها الحالي مجرد زوج، وإنما أيضاً صديقاً كبيراً قد اعتاد تصرفاتها الغريبة. ما كان له أن يحرك حاجبه حتى إذا ذهبت وسط النهار لمقابلة رجل آخر. أي شخص قد تكون له هموم ما... لكن... ليس هناك نصيب.

... انتهى الاجتماع. دون أن تقول شيئاً لأحد، خرجت سفيتلانا من المبنى، وتوجهت إلى المقهى، حيث كان ينتظرها حب حياتها كلها. كيف سيتم هذا اللقاء؟ هل ينتظرها، وهل غادر... إنه غير قابل للتنبؤ...

كان ذلك في بداية الساعة التاسعة. كان الصباح في بدايته...

قربان أوماخانوف

راعي الغنم والملائكة

عندما أتم عزيز العام الـ12 من عمره، أوفده والده لرعاية الغنم. بعد حصوله على مباركة الأم وتوديعها، توجه الصبي إلى الجبال، ووصل إلى مكان انتظار حمزة. وثمة صديق يدعى شافي يرعى الغنم هناك أيضاً. قال العم حمزة للشابين: «يا أبنائي، سترعيان الغنم بالتناوب، واحد لمدة عشرة أيام، والآخر لمدة عشرة أيام». اتفقوا على ذلك. بدأ عزيز يرعى الغنم، بينما توجه شافي إلى القرية للاستراحة.

قال له كبير الرعاة في الصباح:

- يا عزيز، اصطحب القطيع باتجاه جبل «سوفرانين إل»، حيث ينمو عشب جيد وناعم. خذ الطعام معك. لا تعد إلى موقع التجمع مع الغنم بحلول وقت الحلب. لن نحلب الغنم اليوم، بل يجب إعطاؤها دواء.

اصطحب عزيز القطيع إلى الجبل، وكان يصعد على المنحدر ببطء خلف الغنم. وفي القمة، انفتح أمام عزيز منظر رائع: انبسط أمامه وادٍ جبلي يمتد لآلاف الأمتار. وجد هنا أيضاً صخرة صغيرة ذات محراب يشبه مظلة للاختباء من المطر.

اقترب موعد الغداء. تشبع الغنم بالعشب الجبلي، واستغرق في النوم. قرر عزيز أداء صلاة الظهر. بعد الوضوء، توجه الصبي بالدعاء إلى الله حتى يتقبل صلاته. بمجرد أن انتهى عزيز من الصلاة، ظهرت في السماء غيوم سوداء. حل الظلام، وهبت رياح رطبة، وبدأ المطر يتساقط. جرى عزيز مسرعاً إلى الصخرة للاختباء. بعد ساعتين تقريباً، توقف المطر، وأشرقت السماء.

رأى عزيز في وادي جبل «سوفرانين إل» رجالاً يرتدون ملابس بيضاء وأصحاب اللحى البيضاء. كان يجري هناك حلب الماعز الجبلية. لم يصدق عزيز عينيه واقترب منهم. بالفعل، يجلس على العشب اللامع بعد المطر الملائكة

ويحلبون الماعز. لاحظوا الصبي. رفع أكبرهم رأسه، وقال: «تعال يا بني. لا تخف منا. غير ملابسك المبلولة وتناول الطعام معنا. اشرب حليب المعزة. إنه سيجعلك تتمتع بصحة جيدة، وستكون قوياً وجميلاً، وسيحفظك من المصائب. أرى أنك من الناس الطيبين. فقط لا تقل لأحد إنك رأيتنا هنا».

قدم الملائكة غذاء للصبي، وتحدثوا معه طويلاً. مع حلول المغرب، اصطحب عزيز القطيع إلى موقع التجمع. لم يتناول عزيز وجبة العشاء في المساء، لأنه كان شبعاناً. طوال الأسبوع كان يعود بحالة معنوية مرتفعة وبقلب مرح وبطن شبعان.

يوماً بعد يوم كان الصبي يزداد وسامة. اشتبه الرعاة، وبدأوا بسؤال عزيز، ولكنه لم يكن بإمكانه الكشف عن سره. ذات مساء هدده حمزة، قائلاً: «إذا لم تكشف لنا سرَّك، ستندم!». تذكر عزيز كلمات الملائكة وصمت. حينئذٍ بدأ الرعاة بضربه والوشاية عليه: «أنت لص وتسرق الطعام من زملائك». شعر عزيز بمرارة وضيق. ليس لأنه ضرب، وإنما لأنهم سموه لصاً. طوال حياته القصيرة، لم يسرق عزيز حتى إبرة. كان دائماً يتناول الخبز الذي اكتسبه بالعمل النزيه.

في اليوم الحادي عشر، حضر شافي من القرية ليناوب. أثناء الليل، عندما كان الغلامان يتحدثان، وهما مغطيان بالبرقع تحت السماء المكشوف، روى عزيز لصديقه المعجزة التي رآها. في الصباح، كان عزيز يستعد للعودة إلى منزله. بدأ الرعاة يستجوبونه ويضربونه مرة أخرى، ولكن عزيز ظل صامتاً، متحملاً الضرب. أشفق شافي على عزيز، وروى للرعاة خبر الملائكة لإبعاد شبهة السرقة عن عزيز.

منذ ذلك الحين، لم يعد عزيز يرى الملائكة. وبعد فترة طويلة، حين كان يرعى الغنم في المكان نفسه الذي ضيفه فيه الملائكة بحليب المعزة، سمع صوتاً قادماً من السماء إلى أذنيه مباشرة: «لماذا لم تتحمل وكشفت عن سرنا؟ لن ترانا مرة أخرى، ولكننا سنرعاك لاحقاً أيضاً». نظر عزيز حوله سريعاً، ولكنه لم ير شيئاً.

في الخريف، انتقل عزيز إلى قطيع آخر للغنم، تاركاً حمزة. وغادر صديقه شافي معه. أدرك عزيز إلى الأبد أن الحياة الشريفة والأمينة أثمن من أي شيء.

منير كونافين

تحت الشمس الهالكة

ولد طفل،

وحوله منظر طبيعي بلا ضفاف،

بعد نصف قرن

قتل في الحرب.

من يتذكر الآن،

أنه ذات مرة

وضع كيساً ثقيلاً،

انهال منه التفاح

وتدحرج على الأرض،

واختلط حفيف التفاح المستمر

مع صوت العالم،

الذي كانت تغني فيه طيور لا تعرف الهموم.

جان فولين

ذات يوم، عاش في قريتنا ثلاثة معاقين ذهنياً. سأتحدث عن أحدهم، وهو المعاق ذهنياً أكرم الذي ترك بصمة مهمة في كتاب مصيري. لا يمكنني ألا أتحدث عنه.

قضى أكرم آخر عامين في مصحة الأمراض العقلية في مدينة صغيرة على بعد نحو 100 كيلومتر عنا. والآن أصطحبه، أو بالأحرى أصطحب جثته إلى القرية. أنا أتأرجح داخل حافلة قديمة تابعة للجمعية التعاونية الزراعية. وبجواري يتحدث بحيوية السائق مختار، وهو شاب ذو شارب خفيف تحت أنفه. بين الحين والآخر يقطع الحديث بضحك بصوتٍ عالٍ. إنه غيرُ مدركٍ أنني لا أسمعه وحتى لا أريد سماعه.

- لماذا حزنت زين-أغاي لانتقال روح غبي ما إلى الله؟ افتح عينيك، هل تغير العالم مع رحيله؟ لا، حتى شعرة أمس لم تتحرك، والشمس تسطع كعادتها.

أفكر: عاد الفتى من الخدمة العسكرية للتو، فمن أعطاه الحق في الحكم على الحياة والموت؟

المعاقون ذهنياً الذين لا يستطيعون التفكير، يطلقون عليهم في قريتنا اسم «الحالم»، وفي مناطق أخرى يسمونهم أغبياء أو مجانين. يعني ذلك أننا نتخذ موقفاً أكثر إنسانية تجاههم. على الأقل، تسمية «الحالم» ليست مهينة على الإطلاق، وحتى بالعكس تعليهم بعض الشيء. الحالم... يعني مليء بالأحلام. الحالم... الإنسان الذي فرط في تصديق عالمه الخاص وغاص في أحلامه. الأحلام مختلفة، وقد تكون حلوة وصعبة وعجيبة وغير واضحة...

ذات مرة، كنا أنا والحالم أكرم نرعى الماشية. اصطحبنا القطيع لنسقيه، ورابطنا على قمة جبل كاباكتاو. الشمس في عز قوتها، وأنا خلعت القميص وقدمت ظهري للأشعة الساخنة. في تلك الفترة كانت الشمس شابة مثل كرة نارية حقيقية نشيطة! أما أكرم الحالم، فلا يخلع قميصه لا في المطر ولا في البرد، وحتى يسبح به، وثم ينشف عليه مباشرة.

نرقد مسرورين تحت أشعة الشمس. يتأمل صديقي الأحمق السماء الحارة طويلاً، ويصمت لفترة طويلة. يا ترى كيف تتحملها عيناه! إنني لا أستطيع النظر إلى الشمس، ولو قليلاً، إذ أشعر فوراً بالغثيان وتسودّ الصورة أمام عيني. بعد رقاده بعض الوقت، يبدأ أكرم فجأة بالحديث عن أمور غريبة:

- إذا نظرنا إلى هذا العالم من تلك النجوم، فيمكن رؤية ثلاثة طوابق يا زين الله.

لماذا أرى العالم مكوناً من ثلاثة طوابق؟ يكفي استيعاب طابق واحد. لذلك أستعجل لمقاطعته بضحكة:

- أين ترى النجوم؟ ليس هناك شيء سوى الشمس. أم أن عينيك تخترقان السماء؟

بالفعل، ليس هناك سوى الشمس في السماء. أكرم صامت. يرفع طرف قميصه، ويظهر بطنه، ويبدأ بمص قطعة من القماش، وينظر إلى الأعلى. أنتظر منه عبثاً جديداً، وأقول له:

- ماذا بعد، ماذا بعد؟

ينظر إلى السماء بنظرته الطفولية البريئة، ويواصل:

- إذا نظرنا من هذه النجوم، فيبدو لي العالم مكوناً من ثلاث طبقات، وكأنه قطع من خبز الجاودار في جيبك.

أخرج عفوياً قطعة الخبز من جيبي، وأسأل:

- مثل هذه؟

إنها بالفعل مكونة من ثلاث طبقات: هناك زبد فوق القطعة الرفيعة، وفوقها طبقة أخرى من الخبز. تعدها الجدة بهذه الصورة دائماً. يقع الزبد بين القطعتين.

- الطبقة السفلية تحت الأرض، وهي مخيفة، وتهيم فيها أفكار مظلمة. وفي الوسط، الأرض في حد ذاتها والتي نعيش عليها. وفوق، السماء الزرقاء والجميلة. نحن، الحالمين، إما نعيش تحت الأرض أو نحلق وسط السحاب. أما الأشخاص أمثالك يا زين الله، فيقفون صامدين على الأرض وسط الزبد بين طبقتي الخبز. لكنه يجب رؤية العالم مضيئاً من النجوم يا زين الله...

أجد سؤالاً جوابياً:

- ألا يمكن رؤيته ليلاً؟

- لا، لا يمكن ليلاً، لأن أرواح البشر مغلقة في الظلام.

لا يزال أكرم يحلق وسط سحابه، وأنا لا أفهم شيئاً، أو بالأحرى لا أجد في ذلك شيئاً غير واضح أو غامضاً. نعم، هناك أرض، وهناك عالم تحت الأرض، والسماء فوق، فلا داعي لاكتشاف أمريكا في ذلك. لكنني لا أقاطع، فلن أتصرف مثل الأحمق. ليحلم، وليرَ النجوم وسط النهار، فمن يمنعه من ذلك؟ إنني أعلم أن النجوم تسطع وتلعب ليلاً، وتنام نهاراً في حضن القمر. هذا ما

تقوله أمي... ستمر سنوات، وسأعلم أن هناك نجوماً خلف الشمس أيضاً. لكنني لن أفهم كيف كان أكرم يعلم ذلك دون إجادته القراءة حتى؟ كيف كان يشعر بها ويراها حتى في ضوء النهار... وكيف لم تشعر النجوم بتأفف عند رؤيتها أكرم، وهو يمص طرف قميصه؟ بل كانت تدعوه إليها! لن تفهم هذه النجوم: إنها لم تحييني حتى ليلاً.

من كان يظن في ذلك الوقت أنه لا مفر من الهيبة الإلهية في هذا الأمر. كم أحسدك أيتها النجوم المراقبة في وضح النهار... يبدو وكأنه حتى الآن يناديني بصوت منخفض وحنين: «يا زين الله...». إذا فكرت، فلم يطلق غيره علي اسمي الكامل. فقد كان اسمي للجميع مجرد زين، والأم والجدة كانتا تطلقان علي طوال الحياة اسم زينوك. الاسم الكامل كان يغضبني حتى، لأنه لم يطلق سوى على الشيوخ. إلا أنه كان يكرر:

- لا يجوز تحريف الاسم، لأنه لا يطلقه الملا، وإنما الله.

- لو تم الصراخ بالاسم في أذن كل شخص، لكان الله حدَّ من قوته منذ وقت طويل! أعلم أنه وحده.

- لذلك هو وحده يطلق الأسماء.

عندما أتذكر صديقي، أجد بشكل لاإرادي معنى لا يمكن تفسيره في كلماته وتصرفاته...

صوت مختار يجعلني أهتز، ويبعدني عن أفكاري:

- هل نمت يا زين-أغا؟ من كان أهل أكرم الغبي؟ أليس قريبكم بالمصادفة؟ إنك تحزن عليه كثيراً...

- لا، إنه ليس قريبي، ولكن له علاقة بسلالتكم وقبيلتكم.

- لا تقل كلاماً فارغاً، ليس هناك أمثاله في سلالتنا.

- إنني أمزح.

- لا تسخر مني يا أغا!

أتمتم:

- ليس من الواضح من يسخر ممن.

- ماذا، ماذا؟

من الجيد أنه لم يسمع.

- أكرم ليس من منطقتنا، بل حضر والده من زيلميرداك، وهما من قبيلة كاتاي البشكيرية. لذلك إن جسمه قوي، وكأنه دب من منطقة بيلوريتسكي.

- قل كان.

لم أفهم:

- ماذا كان؟

ضحك مختار بصوتٍ عالٍ:

- إنه توفي!

هذا الإنسان بلا روح: توفي إنسان، وهو يصهل مثل الحصان. لكن هل هو وحده؟ إذا فكرنا، ففيمَ نحن أفضل منه؟ لا نفكر سوى في ملء معدتنا وكسب المال. وهل نستمع إلى من يوجد بجوارنا، هل نسعى لفهم ما بداخله؟ إنني مثل غيري. أمثل الآن ملاكاً في جسد إنسان، ولكن ألم يرسل لي أكرم أخباراً بواسطة الناس، ألم يكتب لي؟ وأنا لم أساعده، بل لم أرد عليه. إذا تذكرته قبل ذلك، ربما كان سيظل على قيد الحياة، ولما سافرت لإحضار جثة الصديق المعاق ذهنياً في الـ56 من العمر، استيقظ ضميري متأخراً...

جهير مختار يعيدني إلى الواقع مرة أخرى.

- أنا، بالطبع، لا أعرف والديه. ولكنه يقرب لمن؟

- ليس بغريب أنك لا تعرف. تربى أكرم يتيماً. قُتل والده أثناء الحرب دون أن يرى ابنه الذي ولد بعد مقتله. وتوفيت أمه بعد الحرب. في الربيع، كانت تنقل البذور من توكون، وسقطت مع حصانها في النهر الأبيض. كبر أكرم في الشارع، متنقلاً من بيت إلى آخر. نحن من نفس الشارع. كان مصيره صعباً.

يهز رفيقه رأسه:

- أها، هكذا كانت الأمور.

إنه لا يتعاطف مع المصير الصعب، وإنما يشعر بالارتياح، لأن الأحمق أكرم ليس قريبه.

نحن أطفال نفس الشارع... أكرم وإسكندر وأنا... كان أكرم أكبر مني بثلاث سنوات، وهو من مواليد عام 1941، ونحن ولدنا في صقيع الشتاء ما قبل النصر. أتذكر أنه أثناء الطفولة لم يسمحوا كثيراً بدخول أكرم إلى بيتنا، وحتى إذا دخل، كانوا يمنعونه من اللعب معي. عندما توفيت والدته، كان في عمر السابعة تقريباً. أتذكر حتى الآن المحادثة بين الكبار في الظلام (غروب الشمس ترسخ في ذاكرتي أكثر من كلماتهم) حول ما سيحدث لهذا الأحمق الذي ليس له أقرباء حتى. قفزت حينئذٍ، صارخاً: «دعه يأتي ويعيش معنا!». تنفست أمي، وربتت على ظهري، وأرقدتني في السرير، وقالت إن أكرم سينقل قريباً إلى مكان بعيد في المدينة.

في ذلك المساء، رقدت طويلاً، وأنا أنظر إلى الشمس الوردية في النافذة. لم تخطر في ذلك اليوم على بالي فكرة أن شمس أكرم غربت أيضاً. أتذكر الآن ذلك المساء، ويبدو لي أن الشمس لم تكن آنذاك وردية، وإنما حمراء بلون الدم، وكانت عالقة بمرارة في الأفق، دون أن ترغب في الوداع.

ومع ذلك، كانت الشمس في ذلك الوقت شابة ومرحة. اليوم تضيء الأرض الشمس نفسها، ولكنها الآن مجهدة بعد أن كابدت متاعب كثيرة.

لم تكن أمي على حق. لحسن الحظ أو بالعكس، لم يكتب لأكرم أن يعيش في المدينة، بل وجد المأوى عند السيدة العجوز غاشورا التي كانت تعيش وحدها في نهاية الشارع. قبل الحرب، سافرت ابنتها الوحيدة إلى أوزبكستان، حيث استقرت. ربما لم يلجأ إليها أكرم، وإنما هي التي قررت إيواءه بنفسها رغبة منها في التكفير عن الخطيئة.

وكانت خطيئتها كبيرة إلى حد أنه كان من المخيف أن تتصور عقابها عند الله... كانت غاشورا سابقاً قابلة توليد، وكان أكرم آخر طفل ولد بمساعدتها. ولد كبيراً إلى حد أنه عذب أمه أثناء الولادة. بدا أولاً أن كل شيء على ما يرام، إلا أن تغييرات غريبة طرأت عليه لدى بلوغه العام من العمر. صغرت عيناه، واقتربت إحداهما من الأخرى، وأصبحت حركات الطفل صعبة المراس، وكأنه لعبة القطيفة... ولدى بلوغه العامين من العمر، تبين أن الولد معاق ذهنياً. حينئذٍ اعترفت العجوز غاشورا: «أخشى كما بقي في ذاكرتي أنني ضغطت على جبهته بقوة، وهذا ما جرى. بعد أن ولد أكرم، لم أتجرأ على قطع السرة. كان الولد كبيراً جداً، وأمه صابرة وضعيفة. يا الله، أنعم على الطفل...».

مهما أعربت عن الأسف، فلا يمكن تدارك أي شيء. من يعرف، ربما لم يكن ذلك ذنب قابلة التوليد: يقال إن مثل هذا المرض ينتقل بالوراثة. لم يبحث أحد عن أقرباء والد أكرم، ولم يفحصهم.

كانت العجوز غاشورا منذ أن عرفتها، سيدة طيبة. كانت دائماً تطعم أكرم لحد الشبع، وتلبسه بالطبع لبساً متواضعاً، وكانت تحميه من الجناة بشراسة قدر المستطاع. كانت تستطيع أن تردعهم بكلمة وحتى بقبضتها عند الضرورة. ولكنها نفسها لم تكن تضايق أكرم، بل كانت تعلمه الخير فقط. مختار الذي يتبرأ الآن بشتى الطرق من أي صلة قرابة مع أكرم، هو الحفيد العظيم لغاشورا رحمها الله. لكنه من الأفضل الصمت بخصوص ذلك. إذا احتاج، فسيصل إلى هذه المعلومة بنفسه.

كان من الصعب توفير الطعام في السنوات الصعبة بعد الحرب. كما كان يجب إطعام الصبي الذي بات يصل بطوله إلى السقف في عمر الثامنة أو التاسعة. لم يكن الناس يطردونه، بل كانوا يضيِّفونه بما رزقهم الله، وكان بعض الطعام من نصيب السيدة العجوز. كانت تتقبل هذه العطايا المتواضعة، ما يعني أنها لم تكن تعارض ممارسة ربيبها التسول. في البداية، لم يكن يحدث ذلك سوى نادراً، ولكنه بات يتكرر أكثر، عندما مرضت السيدة العجوز.

في عمر الـ12، أصبح أكرم وحيداً تماماً، وتوقف تماماً عن العودة إلى البيت. كان يمضي لياليه عند مختلف الناس بالتتابع. كم كان الناس طيبين في ذلك الوقت! لم يكن أحد يطرد أكرم، بل كان كل صاحب بيت يعتبر أن من واجبه إيواء العبد لله. لكن في جميع الأحوال، كان مكان الإنسان المحروم بجوار العتبة دائماً. ما كان أحد أن يوفر له مكاناً لائقاً للمبيت. وشيء جيد أن أكرم كان يدرك ذلك بوضوح. بعد تعوده على الاكتفاء بالقليل، بعد تناول قليل من الطعام، كان يرقد فوراً للنوم بجوار الباب. وفي الصباح كان يختفي. بروحه الحساسة، غالباً ما فهم أنه لا ينبغي انتظار المزيد من الناس. بالإضافة إلى ذلك، فإنه لم يكن يلمس شيئاً ليس ملكه مهما كانت ظروفه. اعتقد لذلك تحديداً ما كان سكان القرية يرحبون به ويثقون فيه.

ذات مرة كنا ننتظر مجيء أكرم بفارغ الصبر. في الأسبوع السابق، مرضت معزتنا الأم لثلاث معزات، فاضطررنا لذبحها بعجالة. في ذلك المساء، أعدت الجدة مرجلاً كاملاً من اللحم، وكانت تردد: «يبدو أنه تراكمت الذنوب، وأنزل الله مصيبة. سنكفِّرها عبر أكرم...». لذلك كنا ننتظر اليتيم عديم الذنوب.

عاد والد إسكندر من الحرب بلا ساق (عاد والدي مريضاً أيضاً، وكان شبه عاجز عن السير)، وأول ما فعله هو أنه حلق شعر الأحمق بموسى حاد،

ثم ذهبنا معه للاستحمام. بمجرد أن تمدد على المصطبة الساخنة، حضرت الجدة وانهالت علينا بالضرب بالمكنسة. كنت أشعر بالألم، بينما لم يشعر أكرم بشيء. كانت الجدة تردد: «انعم جسم المسكين. سننعم، سننعم عظامك... جسمك قذر، ولكن روحك طاهرة...». عندما غادرت الجدة، خدش الصديق نفسه حتى تدفق الدم منه. ثم اغتسلنا في المياه المخلطة بالرماد، وتمتعنا بذلك. غسلت أمي كل ملابسه، ونشفتها على الأحجار الساخنة، إذ كانت هذه الطريقة الوحيدة للتخلص من القمل الملعون. بعد ارتدائه قميص الوالد وسرواله، تحول إلى شاب وسيم، وعيناه السوداوان فقط ظلتا غير حيويتين. كان ينظر نظرة المذنب من تحت الجبهة، ملأت الخسة هذه العيون إلى الأبد...

يا للعجب أن ملابس الوالد كانت تناسب هذا المراهق. كم كان كبيراً! بعد الاستحمام، تناولنا شوربة لحم الماعز. أكل أكرم نصف الطبق، وصلى، وتوجه إلى الباب، ولكن الجدة أعادته.

وأثناء تناوله طبقاً آخر، ظلت تردد:

- يبدو أن حالة معدتك تدهورت تماماً من الطعام البارد. كل يا مسكين، كل.

قبل النوم، توجه الصديق إلى الباب، وفي هذه المرة غضبت الجدة غضباً كبيراً:

- مهما أطعمت الذئب، فإنه ينظر باتجاه الغابة! اذهب إلى السرير، ونم مع زينوك! من ينام بجوار الباب بعد الاستحمام يا أحمق؟

أنا قلت:

- إنه أحمق، وليرقد هناك.

اختبأت تحت البطانية، بعد أن لاحظت النظرة الصارمة للوالد. إنني غبي، وقلت ذلك من دون تفكير. لكن من أين ستأتي العناية إذا كان المرء لا يعيش في رخاء؟

استجاب أكرم، ورقد على طرف السرير. ليلاً سمعت عبر المنام أصوات تقيؤ أكرم، بينما كانت الأم الحزينة تردد أن الطعام الجيد لا يناسب معدة الكلب. بعد الاستحمام، نمت مثل القتيل، وبحلول الصباح لم يعد هناك أي أثر للأحمق. بعد هذا العيد، لم يحضر إلينا أكرم لفترة طويلة. عندما كان يأتي إلى دورنا، كان يمر جانباً بعيداً عنها.

لم تتحمل الجدة:

- اسأل، لماذا لا يحضر أكرم إلينا.

وجدته بسرعة، وسألته. ظل ينظر إلي من الأعلى، وقال:

- إنكم لا تتركونني أنام بجوار العتبة، ولذلك لن آتي. كما أن شوربتكم دسمة جداً.

بعد سماع ذلك، انخرطت الجدة في البكاء.

وهزت الأم رأسها، قائلة:

- حقاً، إنه غبي جداً.

بعد أن هدأت قليلاً، قالت الجدة:

- لا تقولي هكذا يا كنة. إنه ليس غبياً، بل أذكى مني ومنك، ولن نفهمه. خلقه الله طاهراً وحساساً بصورة مفرطة. إنه يعلم مكانه دائماً. حتى أنا رغم بلوغي سن الشيخوخة، لا أعرف مكاني في هذا العالم وما إذا كان عند العتبة أو وسط الوسادات. هناك كثيرون، كثيرون جداً لا يعرفون - تنفست والتفت إلي - ادع أكرم، سنجد له مكاناً بجوار العتبة...

في الأوقات الماضية، كان الناس يتسمون بالرحمة والسخاء، وكانوا يتقاسمون آخر قطعة خبز. والآن يعيش الجميع في الرخاء والشبع، ويتوافر لديهم اللباس والحذاء. الحياة فنجان ممتلئ، والأرواح بها ثقوب. عندما تتذكر الزمن السابق، تتعجب، فعندما يُشيَّدَ بيتٌ، يتدفق الجميع للمساعدة. يأتي الجميع للمساعدة بما يستطيعون. فيبنى البيت أمام العيون، وهذا عيد للجميع. والآن؟.. إذا احتجت لتغيير وضع الخشبة من الأفقي إلى الرأسي، سيطلبون منك مالاً. يأخذ الابن مالاً من أمه مقابل المساعدة. القرابة وكرم الضيافة والصداقة والتعاطف... يختفي كل شيء. والموائد ممتلئة بالطعام اللذيذ. لكن كل باب مغلق بعشرة أقفال. وسابقاً؟ عند السفر لفترة طويلة، كان صاحب البيت يضع غصناً أو ريشة أوز على الهيكل.

أصبحت السماء أعلى، ولكن الشوربة على موائدنا سائلة أكثر. لذلك تهرم شمسنا. وذات يوم كان هناك أناس يرون النجوم حتى في الضحى. لو عاش أكرم في الزمن الحالي، لكان رحل مراهقاً. من يعرف، ربما نحتاج اليوم إلى مزيد من الأشخاص البسطاء مثله من الحالمين الذين لا يعرفون المكر. في هذه الحالة، كان الكثيرون سيعرفون مكانهم.

المعاقون ذهنياً أنواع. في قرية كوشكاين المجاورة، هناك مثل هذا الأحمق سيباغات وحيد اليد، وذات مرة أحرق نصف القرية. في برد الخريف، أراد أن يتدفأ بجوار النار تحت كومة القش. بالفعل، إنه أحمق. أكرم ملاك بالمقارنة معه. لم يتسبب أبداً في أي أذى لقريته ولا للناس. بالعكس، عندما نضج، بات يأتي بالنفع إلى كل منزل. الأغبياء متحمسون للعمل. عندما كان هناك نقص في الأيدي العاملة، كانوا يبحثون عنه في الشارع بشكل مساعدة مجانية.

أحياناً تطلب منه طلباً إنسانياً: «لنذهب يا أكرم لجز القش»، أو تمدحه: «يداك من الذهب، تعالى إلى موقع البناء غداً»، أو تطلب منه المساعدة، فيرد في كل مرة نفس الرد. ليس من الواضح، من أين أتى بهذا، ولكنه كان يقول في كل مرة بصوتٍ عالٍ: «على الأرجح سمعت أن صاحب العمل المجاني توفي منذ فترة طويلة. إذاً أعطتني رأسين من وجبة «كوروت»، سننظر...».

كان يرد بهذه الطريقة على السيدات العجوز والنساء والفتيات. قد اعتاد الناس ذلك، وكانوا يوافقون بكل سرور، ويصافحونه، ثم كان يلي صاحبه الجديد. بعد العمل، كان ينسى فوراً من طلبه، وكان يأكل حتى الشبع، ثم ينصرف حاملاً الفأس أو المذراة أو المنجل (أتذكر مشيته المتأنية حتى الآن). كان بعض الناس يعرضون عليه المال، ولكنه كان يرفضه، قائلاً إنه ليس كاتباً ولا يحتاج إلى الأوراق، وهو فعلاً لم يكن يعرف قيمة وحساب تلك الأوراق. حين كانوا يعطونه وجبة «كوروت» اللبنية، كان يقبل ذلك دائماً. أحياناً كان يسير في الشارع، وجيباه ممتلئان من الجانبين.

في فترات الراحة، كان أكرم يجلس ويمص الـ«كوروت»، وكأنه طفل صغير. كانت مقولته المضحكة تتسبب في مواقف طريفة ومحرجة في آن معاً. ذات مرة أوفدت أسماتاي (هكذا كان اسم العمة أسماء) صهرها الذي وصل إلى القرية للتو، لذر السماد. بعد أن نظرت إلى الصهر، هزت رأسها، وقالت: «لن تستطيع بمفردك. يا أنور، يا صهري، ستجد بجوار المتجر أحمق طويلاً وضامراً يدعى أكرم، واطلب منه المساعدة. قل له إنني طلبت». سرعان ما وجد الصهر الشخص المطلوب وأبلغه طلب حماته. فهم أكرم أنهم يحتاجون إلى المساعدة. قام ببطء من مكانه، وقال جملته المعتادة:

- على الأرجح سمعت أن صاحب العمل المجاني توفي منذ فترة طويلة. إذا أعطتني رأسين من «كوروت» وسلفتني الزوجة للمساء، سننظر...

أمسك العريس المنفعل في حلق أكرم:

- فقد طمعت في عروستي!

يبدو أنه كان غيوراً جداً طالما لم يخش مثل هذا البطل الكبير.

أكرم الذي لم يلمس ذبابة في حياته، ارتبك. ازداد العريس جرأة، وطلب المساعدة مرة أخرى. كرر المسكين نفس الجملة، ومد يده للمصافحة كالمعتاد. ازداد العريس انفعالاً، وصفعه عدة مرات على خديه. لكن في هذا العالم حتى أكبر صبر له حدود. فجأة رفعه أكرم وكأنه طفل، وأجلسه على سطح مخزن المتجر. جلس العريس لساعة كاملة على السطح، مستنجداً بالمارة.

هكذا رفض أكرم لأول مرة في حياته طلب إنسان. يعلم الله وحده المشاعر التي تحركت في روحه. لم يخرج من البيت لأسبوع كامل، ولم يتحدث مع أحد، وكان يبعد نظرته عن المارة.

الواقعة الثانية لم تكن مضحكة بهذه الصورة، إذ دعا مسؤول النادي، واسمه محرم، أكرم لبناء المنزل. بعد المصافحة، اتفقا كالمعتاد على رأسي «كوروت» والزوجة للمساء. انتهى العمل، وتم بناء المنزل. نحن، الرجال، نتناول مشروب العسل في الشارع. أكرم الذي لم يكن يشرب أبداً، تناول الطعام، وبدأ يستعد للعودة إلى المنزل. في تلك اللحظة خطرت على بال محرم الذي كان في حالة سُكْر، فكرة جنونية: «كيف أنا، الرجل، سأتخلى عن وعدي أمام العالم أجمع؟». أخذ الفأس من أكرم، ودفع به إلى البيت القديم بالقوة. كانت زوجته أيضاً امرأة شجاعة ومستفزة. ليس من المعروف، عما تحدثا، ولكن محرم خرج من البيت وحده، شاحباً وأغلق الباب من الخارج. كتم الرجال أنفاسهم في حالة من الترقب.

لم تمر دقيقتان، إلا وقد اندفع أكرم خارجاً من المنزل، بعد أن حطم الباب. أصيب الرجال بصدمة، فقد كان أكرم غاضباً ويبحلق عينيه بجنون، واقترب من محرم، وبدأ بالخوار مثل الثور.

ظننا أنه سيقتله.

ولكن مدير النادي سقط جاثياً على ركبتيه، وقال:

- لا تقتلني يا أكرم، يا شقيقي، فقد مزحت بشكل غير مناسب، وسأقبل قدميك...

ارتعش البطل من دون أن يفهم كلامه، ثم استدار إلى الباب وسقط.

لم يتحرك أحد. رقد أكرم هناك بعض الوقت في هدوء. ثم نهض ببطء، ودون أن يأخذ فأسه، ذهب إلى الشارع، وكأنه طفل مخطئ. ساد صمت تام. لم يلمس الأكواب المليئة أحد، بل توجه الجميع إلى بيوتهم. لم يصر محرم على بقاء أحد، بل ظل يردد أنه بالغ في مزحته.

كنت واحداً من شهود تلك الواقعة العبثية. صديقي إسكندر توقف عند البوابة، وقال لصاحب البيت قبل توديعه:

- حسناً، يا محرم، سنرى ما إذا كنت ستقبل قدميه؟

بعد ذلك، نسي أكرم مقولته تماماً. إلا أن زوجة محرم ظلت تتباهى أحياناً بأنه حتى الرجال الأكثر هدوءاً يرتعبون من نظرة واحدة منها.

مرت سنوات، تغير الزمن. تدهورت حالة منزل أكرم، وانهار تماماً فيما بعد. عاد الحالم مرة أخرى إلى نمط حياة المراهقين: كان يقوم بأعمال في بيوت الناس، وفي الشتاء كان يرقد فوق رماد غرفة المرجل بالنادي... قضى بضعة مواسم شتوية في القرية المجاورة ببيت سيدة مريضة ما، هكذا كان يعيش الحياة التي منحها له الله.

من المؤسف أنه رغم رؤيتهم كل ذلك بأم عيونهم، لم يبادر أحد إلى مساعدته في إيجاد مأوى له، ولم يحرك أحد أصبعه. لا الإدارة المحلية، ولا أصدقاء الطفولة مثلي، ولا غيري... بالمناسبة، عن الآخرين. مهما بدا ذلك غريباً، فإن أكرم رأى كثيراً من الخير من الصهر القصير الغيور الذي أجلسه ذات يوماً على سطح المتجر. بعد تخرجه في المعهد والعودة إلى القرية، أصبح، كما يقال شعبياً، شخصية كبيرة وصديقاً للجميع. بالطبع، كان لاسعاً مثل الدبور، وشديد الحساسية، إلا أنه كان طيباً في داخل روحه. كان يعشق مهنته، ويعالج الناس بإخلاص. الناس الذين تعبوا من تلقي العلاج في المركز المحلي البعيد، تنفسوا الصعداء. ذات مرة، عالج أكرم على وجه السرعة، وخصص له غرفة فردية في المبنى الجديد للمستشفى، وحتى سمح له بتناول الطعام في مطعم المستشفى، بينما حافظ أكرم على معاشه. وامتناناً منه على ذلك، كان أكرم يرعى حصاني المستشفى، وكان يطعمهما ويسقيهما ويعتني بهما ويعد لهما العلف. في تلك الفترة، أصبح الحصانان يلمعان. بمجرد أن كان أكرم يخطو على شرفة المستشفى، كانا يصهلان من الحظيرة ترحيباً به، إذ كانا يتعرفان عليه من مشيته من مسافة بعيدة.

يمكن القول إن هذين الحصانين كانا من أكثر الأرواح الحية في هذه الحياة حساسية وتفهماً حيال أكرم. لذلك، كان يعتني بهما، وكأنهما من أفراد

أسرته. من يعرف، ربما إن العناية الإنسانية لكبير الأطباء أنور والعمل الذي منحه له، قد أثار في هذا الشخص الموقف المسؤول تجاه العمل. المسؤولية أمر جيد، فهي تجعلك تشعر بأنه يمكن الاعتماد عليك، وأنك تشارك أيضاً في مصائر الناس. ربما هذه الصفة هي التي تميز الأذكياء عن الحمقى.

إلا أنه إذا كتب لك أن تكون غير سعيد، فإن الحظ لن يكون معك، سواء أكنت ذكياً أم أحمق، أو لا تميز السعادة عن التعاسة، أو تحلق في السماء. لم يعش أكرم حياة إنسانية سوى عامين، ثم انقلب مصيره في اتجاه آخر تماماً. نعم، تغير الزمن. تم تعيين محرم الذي لم يرفع في حياته شيئاً أثقل من الأكورديون مديراً للإدارة الريفية. في البداية سعد الجميع لكونه شاباً يتبع لنا، ثم أصبحوا يقرون بمرارة بأن الغرباء كانوا أقرب وأكثر مشاركة. قلص المدير الجديد مساحات غرس الأعشاب والمراعي. ذات مرة حتى منع السقي من النهر وسط القرية، مفسراً ذلك بأن سكان القرية لا يقدمون حليباً للدولة.

في المقابل، كان المدير الجديد يتفاهم بصورة جيدة مع الإدارة، وذلك عن طريق تقديم بلاغات عن سكان القرية بين الحين والآخر، وهو من أودع أكرم مستشفى الأمراض العقلية. ما كان ذنبه أمامه؟ في البداية، اشتكى محرم من كبير الأطباء أنه يستضيف عاملاً في بيته، وحتى أبلغ الشرطة بذلك. ولكن الصهر كانت له أيضاً معارف، ولذلك تجنب العواصف الشريرة.

ثم حضر وفد وزاري للمراجعة بذريعة أن إقامة شخص معاق ذهنياً في المستشفى لا تلبي المعايير الصحية، كما أنه يثير خوف المرضى. وقريباً ما تحقق الهدف، وأودع المسكين مصحة الأمراض العقلية.

من السهل القول إنه أودع. وسط شعوره بالتشاؤم، أغلق أكرم على نفسه باب الحظيرة، فاضطروا لكسره. لفترة طويلة، لم يتمكنوا من فصل يديه عن عنق الفرس، وهناك شخص غبي ما حتى حاول حرق يديه بالكبريت. لكن محاولات الإقناع لم تجد نفعاً. انطفأت عيون الحالم. أنا لم أشارك في هذه الواقعة، ولكنني كنت في مكان قريب... لم أنطق بكلمة دفاعاً عن صديق الطفولة. ربما كنت أظن فعلاً أنه سيكون الوضع أخف بالنسبة إليه هناك.

دعا اليائسون أنور، وطلب من الجميع الخروج من الحظيرة. ليس من المعروف عما تحدثا، ولكنه خرج قريباً، قائلاً: «سيخرج الآن بعد إطعام الفرس»، وغادر إلى المستشفى.

بالفعل، سمع حفيف القش وصهيل الفرس، وقريباً ظهر أكرم على الباب. كان شاحب الوجه، وفجأة انحنى بصورة حادة. لم يبكِ، ولم ينظر إلى

الخلف للوداع، بل دخل فوراً إلى الباب المفتوح للسيارة، وأغلق وجهه بيديه. يبدو أنه تقبل مصيره.

لم يعد إلى هنا مرة أخرى، وعلمت بوفاته من زوجتي التي سمعت ذلك بجوار مكتب البريد. لم يدهشني خبر الوفاة في حد ذاته، بقدر ما أدهشتني الرسالة السريعة من محرم إلى المصحة، ومفادها أنه ليس له أقرباء، فليدفنوه في مكان الوفاة. لقد نساه الجميع في القرية، ولكن لست أنا. في تلك السنة، كتب لي زميله في المصحة تيميغالي خطابين باسمه إلي. يعني ذلك أن أكرم كان يعتبرني قريباً ويثق في. لم يمر شهر على تاريخ وصول آخر رسالة، وقد قررت زيارته بعد موسم الحصاد. لعنة الشيطان على تلك الهموم الحياتية! تأخرت. كان يستعجلني في رسالتيه. كتب لي زميله: «إذا كانت هناك إمكانية، فخذوا قريبكم إلى قريته، وإلا سيُضرب عن الطعام حتى الموت».

وها هو خبر حزين. أجريت اتصالاً بالصديق إسكندر في أوفا، وقال لي:

- لا شك في ذلك؟! من الضروري إحضاره ودفنه بطريقة إنسانية.

ثم أضاف:

- هل تتذكر أنه عندما كان يتم بناء المنزل، وعده محرم بأن يقبل قدميه حتى وفاته؟ ذكّر المدير بذلك. سأحضر أيضاً غداً.

بعد الدخول إلى المكتب، أمسكت بتلابيب المدير فوراً.

إنه ارتبك.

كنت أرتعش من الغضب:

- من أعطى لك الحق؟ طردته حياً، والآن لا تسمح بعودته ميتاً؟ لن يحدث هذا! خصص لي سيارة، وسأذهب بنفسي!

لم يفهم محرم فوراً عما يدور الحديث.

- ماذا؟! ألا ترى من أمامك؟ هل تريد أن تسجن؟

- أنت الذي يجب سجنه! بسبب أكرم.

- آه، إذن أنت تعتني بالغبي؟

- إنه ولد هنا وسيدفن هنا. أعطني سيارة حتى أذهب.

- ليس هناك وقود، ولن تتحرك السيارة من دون وقود، وشراء الوقود يتطلب مالاً.

- يبدو أن المال كان كافياً حين طردته.

صمتا.

- لنهدأ يا صديقي زين ونفكر.

- قل أولاً، هل ستخصص لي سيارة أم لا؟

- لماذا لصقت بي مثل الدبور، لقد قلت، سنفكر. في هذه الحالة، يجب أولاً إخطار المصحة.

لم أتركه:

- هل ستخصص سيارة أم لا؟

- لقد قلت لك إنه ليس هناك وقود. يجب إحضار ثور من المنطقة المجاورة، وحتى لذلك ليس هناك وقود...

- ما علاقة الثور بذلك، إذا احتجته، أحضره ماشياً على قوائمه. أحتاج إلى وسيلة لنقل أكرم، هل تفهم؟

- نفترض أننا سنحضر أكرم. لكن كيف سينظر سكان القرية إلى ذلك؟ ماذا ستقول إدارة الحي؟ ألن تستغرب أننا ننعى غبياً ما؟ طالما توفي، ما الفارق أين سيرقد؟

- هل تتذكر أنك كنت تحضن ركبتيه، وتقول: «لا تقتلني، سأقبل قدميك طوال حياتي». لقد وجب عليه أن يقتلك.

لوحت بيدي، وتوجهت إلى المخرج، ولكن محرم قفز من مقعده، وقال:

- لماذا أنت مثل المجنون؟ سنفكر، وسنرى حلاً...

- سنجده بأنفسنا.

قلت له ذلك، وخرجت.

بعد عشر دقائق، حضر مختار على متن حافلة قديمة، وقال ضاحكاً: «توافر الوقود فوراً، ما هو الأمر المستعجل يا زين-أغاي؟».

تمكن محرم من إجراء اتصال بالمصحة، وبحلول وصولنا، تم إعداد الجثمان وإحضار الأوراق اللازمة.

عند رؤيته، تثلجت، كم أصبح صغيراً الآن. كان وجهه مليئاً بالتجاعيد، وكأنه رجل عجوز. هل كان يمكن أن يتغير الإنسان بهذه الصورة خلال عامين؟ دخلت إلى مكتب كبير الأطباء لسؤاله عن ظروف وفاته وما إذا كانت له أمنية أخيرة. استمع الرجل ذو الكرش إلي بهدوء، وقال:

- قتله الثور. كان هادئاً ومسالماً بصورة مفرطة.

وكأنه كان مكتوباً أن تنقطع حياته بهذه الصورة. اقتربت من الحافلة، وبداخلي شعور ثقيل. كان ينتظرني هناك شخص مسكين يرتدي نظارة. تبين أن ذلك تيميرغالي الذي كان يراسلني. أخرج من باطن ملابسه ورقة، ومدها إلي، وقال، وكأنه يغني:

- ضربوه حتى الموت... بسبب رفضه تسليم هذه الورقة... أخفاها في باطن ملابسه، ولم يسلمها. إذا سلمها، ربما لما قتلوه...

لم أسمع باقي كلمات تيميرغالي. فجأة ضعف جسمي، ولم تعد الرؤية واضحة أمام عيني، حين نظرت إلى الورقة. لقد رسمت بيد طفل صعبة المراس، رسمت صورة فرس...

لم ألاحظ حتى كيف وصلنا إلى القرية. قاطع صوت مختار الأفكار والذكريات مرة أخرى:

- يبدو يا زين-أغاي أنك نمت حتى الوصول؟ أين سنضع الجثمان؟

- نعم، نمت. فقد نمت طول الحياة. أحضره إلينا!

شاركت القرية كلها في جنازة أكرم، وأقاموا التأبين في اليومين الثالث والسابع. حضر إلى التأبين العديد من سكان القرية الذين عرفوه يوماً. حضر إسكندر من أوفا. أثناء العودة من المقبرة، لاحظت طائر ذعرة يطاردني مغرداً. تابعته كثيراً بنظرتي، واستنتجت أن هذه روح أكرم. فجأة صعد الطائر إلى الأعلى. نظرت خلفه، ولم أصدق عيني، إذ رأيت شرارة خلف الشمس المنهكة! إنها نجوم! يبدو أن الشمس العاجزة لم تعد قادرة على التستر على ضوء النجوم. إذ حتى أنا رأيتها...

بعد أسبوع، ظهر قبر آخر في المقبرة. كان ذلك قبر المدير محرم الذي قتله الثور بقرونه بعد أن تم إحضاره من الحي المجاور. دخل القرن الحاد في عين محرم، ووصل إلى المخ. حضر جميع سكان القرية والمديرون الكبار إلى التأبين. أنا فقط لم أذهب، إذ لم أستطع إجبار نفسي...

في زمن بعيد، عاش ثلاثة حمقى في قريتنا، وكان أحدهم أكرم. كان يعلم جيداً مكانه في هذا العالم الهالك. يبدو أن هذا كان خطأه...

زوراب بيمورزوف

أشباح المقاتلين

- أويرا، أويريرا! [21]

- أويرا، أويريرا! أويرا، أويريرا!

- أويرا، رارا، أويرا، ريرارا، أوي!

تتحرك الأشباح في شبه الظلام في الكوخ المضاء بالقماش المحترق. لم تزدد كثافة الهواء بسبب الدخان والعتمة، بقدر ما ازدادت من الأصوات المرافقة لأغنية قديمة قدم العالم. يجلس الشيوخ في شبه دائرة حول ثلاث قطع راقدة، ويقف خلفهم رجال شباب. نغمة حزينة، وكأنها منسوجة من الماضي، وتأتي موجة واحدة تلو الأخرى من الظلام. يجلس الشيوخ بجوار ساحل هذا البحر الموسيقي الذي تختلط فيه الكلمات بالذكريات، وينصتون لضربات الأمواج.

- أويرا، أويريرا!

صوت أحد الشيوخ يصعد إلى الأعلى، وكأنه طائر النوء المنفرد. يحلق في الظلام، ويخرج الصدى من أركان الكوخ الأكثر ظلاماً. وفوراً يكرر وراءه كورال الشباب، وكأنهم قطيع للنوء يجتمع خلف زعيمه في شكل إسفين، وينطلق إلى حريته في السماء فوق القرية، ويندمج في أغاني الأكواخ الأخرى.

- أويرا، أويريرا! أويرا، أوريرا!

- أويرا، رارا، أويرا، ريرارا، أوي!

يقوم أحد الشيوخ من نصف الدائرة، ويتلقف الصدى الأخير للأغنية، ويبدأ بالغناء: - أويرا! ليس بطلاً من يقتل في المعركة!

ليس بطلاً إلا من يبعث للقتال

والموت من أجل الأجداد الذين لم يعودوا على قيد الحياة!

ومن أجل الآباء الذين لم يعودوا على قيد الحياة!

ومن أجل الأبناء الذين من المبكر عليهم أن يموتوا!

وأمام البطل معركته الأخيرة،

التي تسبق فيها الحياة الموت،

حتى لا يلحق الموت بشعبه!

يردد الكورال: - أويرا، رارا، أويرا، ريرارا، أوي!

- ليس بطلاً إلا من كان جسمه

ممزقاً ومجروحاً بالرصاص!

- أويرا، رارا، أويرا، ريرارا، أوي!

- ليس بطلاً إلا من يزرع الألم

ويحصد الموت!

تتغير الوتيرة، وبدلاً من الصرخات الحزينة تسمع مسيرة المعركة. المعالجون السحرة يخرجون من وسط الدائرة، ويُسلَّطُ ضوء غير واضح على ربطات ملطخة بالدماء وأوجه الراقدين المشوهة بالمعاناة.

يسمع صوت التصفيق، ويتزايد أكثر فأكثر، مشدداً على وتيرة الأغنية.

يسمع صوت التصفيق فوق الرؤوس.

- أويرا، أويريرا! أويرا، أويريرا!

يبرز صوت الشيخ: - أين أبطالنا؟! أين أبناء شعبنا البواسل؟!

يقول الكورال: - يتم إخراج الخراطيش من أجسامهم! - أويرا، أويريرا!

- أين الأسافين؟

- تعاني من العطش حتى تتشبع بالدم! - أويرا، أويريرا!

- أين روح شعبنا؟!

- إنها تفترس الموت حتى تسبق الحياة!

ينهار عالم الظلال. ترقص ألسنة اللهب في الأركان. يفتح الراقدون عيونهم، هاربين من النسيان، ويرون كيف يختلط الظلام بالضوء في رقصة غير مسبوقة...

نتواصل شعيرة «تشابش» [22] لليوم الثالث. يأتي ويغادر ويتناوب الناس، وكأنهم النهار والليل فوق القرية الشركسية. الوتيرة الجنونية للمساء الأول، تهدأ قليلاً بحلول منتصف اليوم الثاني. تروي الأغاني الحزينة قصص الأبطال العظماء الذين عاشوا وماتوا من أجل شرف الشعب وحريته.

بحلول مساء اليوم الثاني، يستفيق اثنان من الراقدين. ولكن الثالث لا يزال فاقداً الوعي، يبين أنه على قيد الحياة الارتعاش النادر وحده. هذا إسلام، وهو مصاب بأخطر الجروح. إحدى يديه ممزقة، ورأسه مربوط باللفائف تماماً باستثناء العينين المغلقتين.

ليلاً ونهاراً يغير المعالجون اللفائف ويعالجون الجروح، ولكن ليس في أيديهم كل شيء. الأمل الأكبر هو نصف دائرة الشيوخ الذين يرددون الأغاني الواحدة تلو الأخرى. يبدو أن احتياطاتهم استنفدت، وتراجعت قوة كلماتهم. لكن في أعماق الذاكرة الشعبية التي لا قرار لها، يجد أبطال جدد طريقهم إلى نهارهم الطويل.

يفتح إسلام عينيه، ويرى الناس المحيطين به في جو من الضباب، ولم يتعرف على الجميع بعد. يبدو له أنه يرى والده وشقيقيه. على عكس غيرهما، إنهما لا يغنيان، بل ينظران إليه صامتين.

تحت نظراتهما الرهيبة، يستجمع إسلام قواه. لا يستجمع حياته بقلبه، وإنما بعقله الذي بدد أسر الضباب. على الرغم من أن الألم شديد، فإنه لا يفقد ذاكرته مرة أخرى.

عندما يعود إلى وعيه تماماً، تختفي ظلال الوالد والشقيقين. يتذكر أنهما لقيا مصرعهما، بينما نجا هو ويرقد في كوخ غريب. هكذا تمر أيام كثيرة، وتُغنَى

أغانٍ كثيرة، وتتناوب عدة مجموعات من الناس، قبل أن يخرج الشيخ إلى منتصف الدائرة، ويقول بنفس صوته الحزين: - أشكرك يا شعبي. فقد طردت الموت مرة أخرى، وأعدت إلينا أبناءنا! ساعدنا الله تعالى في أن نرد لك دَيْن الألم!

يصمت الشيخ، ويخرج الناس في هدوء. يبقى في الكوخ معالج واحد والشيخ نفسه. بحركات خفيفة يمر الشيخ بالراقدين حسب دورهم.

- الحمد لله على السلامة يا بني! أنت بيننا، ونحن معك!

ثم يجلس في الركن البعيد للكوخ. يجلس المعالج بجواره، ويبدأ الشيخ برواية إحدى قصصه العديدة عن الحياة والموت، والحب والكراهية، والأبطال والجبناء.

يحل الليل مرة أخرى فوق الكوخ. ولكنه ليل آخر هادئ. هادئ إلى الحد الذي قد يكون به هادئاً في الإقليم الشركسي الذي تجتاحه منذ بضع سنوات الحرب والموت، والمجاعة والحرمان.

حمزة عز الدينوف

في ممر جبل خاريب

الانهيار الثلجي الأول. العاصفة الثلجية

تشاناكان يتحول إلى رجل الثلج. كانت العاصفة القوية تحمل الثلوج المتساقطة وسط الجبال القاسية. تجمع العاصفة الثلوج من المنحدرات، لتحولها إلى كثبان عند أطراف الأودية الضيقة وفي الحقول وعند نتوءات الصخور.

كان من المستحيل تمييز الطريق. فتغطي قمة الجبل والمنحدر أكوام الثلوج. ومسافة الرؤية بضعة أمتار فقط. كان الضباب الكثيف يغطي كل شيء في المكان، ويسود الظلام في العالم أجمع.

تحرك تشاناكان في الصباح من مدينة خاسافيورت على متن سيارة «واز»، وفقد هنا يوماً كاملاً في منتصف الطريق حين أصبح أسيراً للثلوج. حتى سيارة الطرق الوعرة «واز-3151» توقفت وسط الثلوج. فقد تشاناكان طريقه، وكأنه راعي المواشي في يوم ضبابي، فاقداً الشعور بالمسافة، ولم يكن يعلم إلى أي مكان وصل. خرج الراكب من السيارة.

خلال بضع ثوانٍ قضاها وسط عاصفة هوجاء، كاد تشاناكان أن يتحول إلى رجل ثلج وكتلة ثلجية مدلاة. جعلت العاصفة الثلجية قبعته ومعطفه وسرواله بلون الحليب. بات تشاناكان مغطى بالثلج كاملاً، وكأنه في كفن. كما حولت العاصفة الثلجية شعره شبه الأشيب إلى كتلة بيضاء مثل الثلج أيضاً. لم تمر بضع دقائق، إلا واكتسبت رموش وحاجبا المسافر اللون الأبيض. لم تكن الطبيعة تقبل هنا اليوم أي لون سوى الأبيض. كانت سيارة المسافر مغطاة برداء أبيض أيضاً.

رافق المسافر ابنه ماخولاف في الـ21 من العمر وابنته ميسيدا في الـ19 من العمر. تذكر أستاذ التاريخ تشاناكان جميع الأساطير والقصص

وشهادات المؤرخين المتعلقة بالممر الجبلي خاريب. فكر تشاناكان: «الأهم هو ألا يحدث انهيار ثلجي»، وسارع لركوب سيارته.

بات تشاناكان في حالة نسيان... وقد اكتسحته عاصفة الزمن والمكان، وانتقل مع ابنته وابنته والسيارة إلى القرن الـ14، وقطع مسافة زمنية تزيد على 600 عام.

الانهيار الثلجي الثاني. المترجم خوخولاف

بعد رؤيته وحدات قوات تيمورلنك تتجمد مثل الماعز بالممر الجبلي خاريب، صرخ تشاناكان:

- تنتقم الجبال منكم اليوم، لأن أندي وأوسيشا كانا يضطهدان الناس، وارتكبا أعمالاً وحشية في بلاد الجبال.

كان مقاتلو تيمورلنك ينظرون بدهشة إلى تشاناكان ومرافقيه وسيارته، وهم يرتدون دروعاً ويحملون سيوفاً مغطاة بالثلج. فهم المترجم الأفاري معنى الكلمات التي صرخ بها تشاناكان. إلا أن الأزياء الغريبة للأشخاص الثلاثة والعربة الحديدية غريبة الشكل، كانت تتعارض مع الصورة المعتادة في ذهن المترجم خوخولاف وأذهان مقاتلي تيمورلنك. دون أن يصدق عينيه، مسحهما، وبات يتطلع مرة أخرى مندهشاً من المسافرين الثلاثة الذين ظهروا فجأة. فكر خوخولاف: «أليست هناك شياطين بداخلهم؟!». اصطحب المترجم وبضعة مقاتلين تشاناكان وابنه وابنته إلى تيمورلنك نفسه.

فتش مقاتلو طاغية الشرق المسافرين للتأكد من عدم حيازتهم السكاكين أو أي سلاح آخر. كان شكل وسلوك الغرباء يثيران الشكوك وعدم الثقة، ويحملان في طياتهما تهديداً محتملاً بسبب غرابتهم. لم يفهم مقاتلو تيمورلنك الأغراض التي كانت تستخدم لأجلها حاجياتهم الشخصية مثل الهواتف النقالة. تأمّلها بضعة مقاتلين، وبعد خروجهم باستنتاج أن مثل هذه الحاجيات لا يمكن أن تسبب ضرراً، أعاد حراس تيمورلنك الهواتف لأصحابها. عندما دخل المسافرون الثلاثة إلى حجرة تيمورلنك تحت سطح الأرض، أرسل ماخولاف رسالة نصية إلى صديقه في القرن الـ21: «اصطحبونا إلى تيمورلنك الأعرج، وينتظرنا حوار صعب مع فاتح لا يعرف الرحمة».

الانهيار الثلجي الثالث. القصة المكتوبة بالخنجر والريشة

الأعرج الحديدي الذي غزا نصف آسيا ونصف أوروبا، لفت فوراً أنظار تشاناكان وابنه وابنته بين القادة العسكريين الآخرين. كان مقاتلو تيمورلنك يحملون عرشه أثناء الحملات. كان الفاتح الآسيوي الذي لا يعرف الرحمة، يعتلي ذلك العرش. كان تيمورلنك يضع فوق رأسه قبعة من جلد الغنم بسبب الصقيع في الممر الجبلي، وكأنه أرض الزمهرير الأبدي، كما كان يرتدي معطفاً وحذاءً من الجلد عالي الجودة على قدميه. وعلى الرغم من اشتعال النار في موقد هذا القبو تحت سطح الأرض، بدا أن العاصفة الثلجية ستدمر حتى هذا البيت الحجري.

نظر تشاناكان في عينيْ تيمورلنك، بينما نظرت إلى ساكن الجبال عينان اعتادتا رؤية العروق المقطوعة. وتراءى على الوجه المتجعد للقائد العسكري، تعبير عن هوس السلطة واعتياده التحكم دون حساب بأرواح الآخرين. عند دخول القبو، كان الجميع يسجدون خاشعين أمام الفاتح. إلا أن المبادئ لم تكن تسمح لتشاناكان وابنه وابنته بالسجود أمام أصحاب السلطة، فامتنعوا عن أداء تلك الشعيرة. قال المترجم خوخولاف بلغة أوزبكية منمقة، بضع كلمات عن القادمين لتامرلان.

قال تيمورلنك، وترجم المترجم معنى كلامه لاحقاً:

- إنني تيمور ابن تاراغاي بارلاس حاكم نصف العالم الذي يطمح إلى التحكم في العالم أجمع! رفض خان الحشد الذهبي توختاميش الخضوع لي. أدرك هذا الخان الهائم المنحرف عن الطريق المستقيم أنه لن يكسر قوة جيشي. أحرقت المدن والقرى التي دعمت الخان المنحرف، وقتلت العاصين. فقد اختبروا بأنفسهم كامل قوة وجبروت تيمور ابن تاراغاي بارلاس الذي لا يقهر! تلتهم نيران الحريق الذي أشعلته، بلادكم الجبلية! فقد سيطرت على المدن والقلاع المحصنة بالمكر والخداع. ليرى توختاميش كيف أدمر دولته! أترك في كل مكان أهراماً من رؤوس أنصار توختاميش، بما في ذلك في بلاد الجبال! كانت قواتي عاجزة عن السيطرة على مدينة ألماك، إذ كان ما بين 7 آلاف و8 آلاف مقاتل يدافعون عن هذه المدينة المحصنة. كانوا يدافعون عن مدينتهم بشراسة. حينئذٍ لجأت إلى حيلة عسكرية: أوفدت جواسيس للحصول على معلومات كشفت لي الحلقات الأضعف لدى المحاصَرين، وتمكنت من السيطرة عليهم. قطعنا مياه الشرب من المنبع عن حماة القلعة. من لم يركع أمام فاتح نصف العالم، اختبر بنفسه غضبي، ونال ما يستحق من عقاب! إنهم معذبون ومنهكون بلا مياه، ولهذا طلب سكان قرية ألماك السلام، ووافقوا على فتح بوابات القلعة بشرط المحافظة على سلامة المدينة والسكان. إلا أن الهدف يبرر الوسيلة. لم أفِ بكلمتي، وهاجم حشدي هذه المدينة المنكوبة.

الحيلة- ضمان النصر! المقاتلون الشجعان سووا ألماك بالأرض، وأبدنا أغلبية سكان المدينة، وأسرنا بعضهم، وهرب جزء من السكان. لا يجوز الاعتراض على تيمورلنك العظيم ومعارضته! حتى إذا فكرتم في عدم الاتفاق معه، فهذا خطأ وجريمة كبيرة! أنتم الآن في حجرتي ولا تحنون رؤوسكم! ليوضع رأس لم ينحن أمامي في خشوع فوق العمود، وكأنه رأس الخروف!

رد تشاناكان على تيمورلنك (ترجمه المترجم لاحقاً بالتفصيل):

- منذ النظرة الأولى، أثار وجهك كراهيتي، إنه غير مثير للإعجاب! لم ينس قاطنو الجبال والبشرية كلها الأعمال الوحشية التي ارتكبتها أنت وجزاروك في بلاد الجبال حتى بعد مرور 600 عام. أدرس التاريخ للأجيال الجديدة من سكان الجبال، وأحدثهم عن غدر حملاتك وقسوتها، وعن تضحيات سكان جبالنا وحبهم الكبير لوطنهم. تيمور الذي حقق نهضة سمرقند وبخارى، ورعى العلوم، وهو جد لعالم الفلك أولوغ بيك، ترك أثراً دموياً على الأرض. والآن يستعرض شيوخ بلاد الجبال طريق تيمور الدموي أمام الأجيال الجديدة. إنك لم تنتصر! إنك خسرت! آثار القسوة التي تركتها في بلاد الجبال، تشهد ضدك، وتدل على أنك من أجل الهدف الوحيد، وهو إلحاق الهزيمة بتوختاميش وحشده الذهبي الذي لم يرضخ، فقد قتلت آلاف الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ، ودمرت وأحرقت مدن بلاد الجبال وقراها. نحن أعدنا بناء المدن والقلاع والقرى التي دمرها مقاتلوك. فقد غادرت أنت وجلادوك أراضينا. يعيش ويبدع هنا منذ آلاف السنين أصحاب هذه الأراضي من شعوب بلاد الجبال. لا يستطيع زرع الحدائق ورفع الحقول على المنحدرات سوى سكان هذه الجبال!

الانهيار الثلجي الرابع. كريمبيه معلم أولوغبيك

عندما ترجم المترجم كلام تشاناكان من اللغة الأفارية إلى الأوزبكية، انفجر تيمورلنك غضباً. كان الفاتح الرهيب يعتزم إصدار أمر بقطع رؤوس الضيوف الغرباء من القرن الـ21، لولا تدخل معلم عالم الفلك أولوغبيك، مستشار تيمور الأعرج، واسمه كريمبيه. خطا إلى الأمام، وتوجه بالحديث إلى سيده:

- يا أيها الأمير العظيم تيمور ابن تاراغاي بارلاس! قد يساعدنا هذا المدرس في البحوث العلمية والتاريخية. على الرغم من الأقوال الجريئة للمؤرخ، إلا أن المحافظة على حياته ستأتي بنفع أكبر على إمبراطوريتك من إعدامه يا أيها الحاكم، الأمير العظيم تيمور ابن تاراغاي بارلاس!

- أبعدهم عن عيني! في الوقت الذي يموت فيه مقاتلو وحداتي بسبب العاصفة والانهيارات الثلجية، لا تنقصني خطابات الكبرياء لهذا الرحالة!!!

تم اصطحاب تشاناكان وماخولاف وميسيدا إلى حجرة مجاورة لتامرلان تحت سطح الأرض، ومحمية من العواصف والانهيارات. تحدث كريمبيه للرحل عن جبال قرغيزيا والعواصف الثلجية التي تجتاح تلك الأماكن، إلا أن العالم أقر بأن الكوارث الثلجية لم تلحق في أي مكان بقوات تيمورلنك نفس الضرر الذي ألحقته في الممر الجبلي خاريب. وأضاف كريمبيه أنه على الرغم من صرامته وقسوته، فإن تيمور ابن تاراغاي بارلاس كان ينصت أحياناً لنصائح الخبراء والعلماء، وتابع:

- يا تشاناكان، أدعوكم إلى سمرقند، عاصمة الأمير العظيم تيمور ابن تاراغاي بارلاس حتى تتأكدوا بأم أعينكم أن دولتنا لا تشهد ازدهار لغة الحرب وفن القتال فحسب، وإنما أيضاً لغة العلم وجميع مجالات الحياة.

رد عليه تشاناكان، قائلاً:

- لا نتفهم ولا نتقبل العنف والشر اللذين تفرضانهما في بلاد الجبال. ربما ستساعدني الرحلة إلى بخارى وسمرقند في فهم ثقافتكم. إنني أوافق على زيارة سمرقند.

لا تزال مصادر مختلفة متباينة في نقل قصة رحلة مدرس التاريخ من القرن الـ21 إلى بخارى وسمرقند في القرن الـ14. إلا أن تشاناكان كشف لكاتب هذه القصة القصيرة تفاصيل هذه الرحلة العجيبة عبر الزمان والمكان. ربما سيأتي وقت لتسجيل هذه المغامرات.

خرج كريمبيه من الحجرة تحت سطح الأرض والتي تم إيداع المسافرين الثلاثة فيها. ازدادت العاصفة الثلجية شراسة. كان صوت العاصفة أعلى بأضعاف كثيرة من عواء الذئاب، وكان يخمد جميع الأصوات في محيطه، سائداً فوق الممر الجبلي. لم تتحمل طبلات الأذن لبعض المقاتلين، ففقد المحتلون حاسة السمع والإدراك. أمواج صوت العاصفة غطت على مقاتلي تامرلان، وشللهم بصفيرها، وكأنه صفير النسر وصوت السماء. ألقى انهيار ثلجي جديد مئات المقاتلين إلى قاع الهاوية.

الانهيار الثلجي الخامس. الممر الجبلي خاريب بدأ يتحدث

فجأة تحدث الممر الجبلي خاريب... بدأ الجبل يتحرك، ضاغطاً القبضات الحجرية للصخور. وقف تيمورلنك والمقاتلون بلا أية حركة، وانتصب شعر

رؤوسهم، وابيضت وجوههم كبياض الكفن.

بدأ الممر الجبلي خاريب يتحدث بصوت جعل الصخور تنهار:

- أيها المحتلون وقتلة الأطفال! لا تنجسوني بأعمالكم الوحشية وكراهيتكم للبشر! أنا!!! سأسقطكم من نفسي مثل الغبار! سيدمركم جيشي الثلجي عقاباً على جرائمكم ضد الإنسانية! اتركوني وبلاد الجبال في سلام! سكان الجبال يحبونني ويحبون وطنهم أكثر من حياتهم! سيضحون بحياتهم بلا تردد من أجل هذه الجبال! إنهم يرعون الغنم على منحدراتي! إنهم خلقوا شرفات الحقول والحدائق تجسيداً للمعجزة الحضارية وبطولة العمل البشري، والتمثال اليدوي الصنع للطبيعة! إنهم يعتنون بهذه الحقول والحدائق، ويسمدونها سنوياً ويزيلون الأعشاب الضارة! إنهم يعالجون جروحي، ويبنون جدراناً تحت الانهيارات، ويزرعون أشجاراً على الصخور لتعزيزها بجذورها! الجبال تحمي قاطنيها دائماً! إذا كنتم لا تريدون الموت هنا، فارجعوا بنفس الطريق الذي جئتم منه! إنكم ملطخون بالدماء حتى المرفق. لا تتحمل الجبال قتلة النساء والأطفال!

أسقط انهيار جديد العديد من الغزاة، ونجا تيمورلنك بأعجوبة في دوامة الكارثة الطبيعية. ربما أنقذته رعايته للعلوم والمعرفة؟

ظل الممر الجبلي مفترساً الغزاة حتى غادر آخر محتل الجبل. حينئذٍ طلعت الشمس من خلف الغيوم، مضيئة خاريب. دفن سكان الجبال جثامين الغزاة الذين وجدوا هنا قبوراً لا مجداً ولا غنيمة! ابتلعت أرض القوقاز الغزاة.

وحتى الآن، يحزن جبل خاريب حين يتذكر أحداث عام 1396. لكن إضافة إلى عام 1396، شهد الممر الجبلي خاريب العديد من الأيام والسنوات الصعبة، وخضع لاختبارات كثيرة. لم يكشف جبل خريب عن كل قصصه للأجيال الجديدة. قد يكسر الممر الجبلي صمته مرة أخرى. إنه قادر على الكشف عن المزيد، شأنه في ذلك شأن غيره من الجبال والممرات والصخور والأحجار والطرقات وأبراج بلاد الجبال.

أيغون جليلوفا

حريق فوق القرى

كان يوم مملاً ومثقلاً بانتهاء الصيف. كانت السيارات في الشوارع قليلة، وكان بعض المارة في حالة من الكآبة يقيسون بنظراتهم طول البرك، ويقفزون، وهم يودعون بعضهم البعض بنظرات تعبر عن اللامبالاة.

كانت السحائب الرهيبة في عجلة من أمرها، وهي مستعدة للتصادم في أي لحظة. وبدا أن السماء كادت أن تتحرر منها، وكانت تحل محلها سحائب أخرى أكثر منها تهديداً وظلاماً وثقيلة مثل الدخان الأسود. بينما تتصادم قمم الأشجار ببعضها البعض، وبدت وكأنها أرامل تمد أيديها إلى السماء، طاردة الطيور الفزعة والمختفية وسط أوراقها الكثيفة. كانت الأوراق المصفرة تتساقط على الأرض وأسطح المنازل والطريق والمارة. الشمس التي كانت تسطع قليلاً أمس، لم تعد تظهر على الإطلاق.

في مكان قريب احتشدت السيارات والبشر، وقد هرع الناس إلى وسائل النقل بالمدينة، دافعين بعضهم البعض في اتجاهات مختلفة أو واقفين، منتظرين الحافلات وسيارات الأجرة. كانت الرياح الباردة تحاول الدخول إلى باطن الملابس والمعاطف وتدخل القطرات إلى داخل الأحذية.

كانت الفتيات المرتديات تنورات قصيرة يخبئن تسريحاتهن الجميلة من المطر، بينما لم تعد امرأة تحمل ملفاً تحت الإبطين تلقي بالاً إلى شعرها العشوائي، وكانت المياه تسيل منه إلى الفستان الغالي الثمن. كانت السيدات المرتديات البراقع السوداء، ينظرن بحذر عبر أقنعتهن، محافظات حتى على جفاف الكفاف تحت القفاز الأسود. أما الرجال المرتدون سراويل قصيرة وأصحاب اللحى من دون شوارب، فبدوا وكأنهم ضيوف من البادية العربية، فلم يسعوا للهرب من المطر، بل كانوا يتعمدون وضع أنفسهم تحت دموع السماء.

رن الهاتف بمنزل أميروف. نزل الصبي من الكرسي بهدوء، ورفع السماعة:

- نعم، مرحباً!

- السلام عليكم! هل أمير بالمنزل؟ نادِ عليه.

بعد صمت قصير، رد الصبي:

- إنه نائم.

قال صوت منخفض، ولكنه خشن وبارد، مربكاً المالك الصغير:

- إذن أيقظه!

وضع الصبي السماعة على مضض، متوجهاً إلى غرفة النوم. بدأ يهز شقيقه بيديه الرفيعتين، ثم صرخ:

- قم يا أخي، هناك من يناديك يا أمير، قم من فضلك، هناك رجل يناديك!

استمر النداء لنحو ثلاث دقائق أخرى دون أن يلقى استجابة، ثم ترك شقيقه الكبير في حاله وفي حضن الظلام الشديد للغرفة التي لم يضيئها حتى النور الصباحي.

رفع الصبي السماعة:

- لا يقوم الشقيق.

ولكنه لم يسمع سوى صوت الهاتف نفسه.

بعد قليل، عادت الأم من العمل الليلي. إنها امرأة قصيرة ومكتئبة وقليلة الكلام. منذ فترة طويلة، لم تعد تنتظر شيئاً مفرحاً من الحياة. لقد انتهت الحياة المليئة بالتوقعات الطيبة والآمال المشرقة، ولم يعد هناك في الحاضر سوى هبوطها التدريجي من ارتفاعات قوس القزح. كان ابنها الكبير أمير هو سندها الوحيد. بعد وفاة الوالد، عانى في البحث عن العمل، مدركاً أنه يتحمل الآن المسؤولية عن الأم والشقيق. كان شاباً رفيعا ذا عينين ذكيتين وملامح وجه رقيقة، وكان جاداً للغاية قياساً بسنه. كان الشباب من نفس عمره يحومون حول الفتيات، ويقضون ليالي كاملة في الأحاديث الهاتفية،

ويجلسون في مقاهي النرجيلة والمراقص حتى ساعات متأخرة. أما أمير، فكان يخجل حتى من التعارف على الفتيات، لكونه يعلم أنه لن يستطيع إجراء أحاديث مرحة طويلة معهن، إذ لم يكن لديه وقت لذلك. منذ وفاة والده، تحول كل يوم من حياته إلى البحث عن العمل، ولو غير المنتظم، لمساعدة أمه. لم يكن يعاني بسبب ذلك، ولكنه كان يعيش مع هذه الفكرة يوماً بعد يوم. بصفته رجلاً، كان ملتزماً بالإنفاق على أسرته وتسهيل حياة الأم وتعليم أخيه ومساعدة شقيقته المتزوجة، والذهاب إلى أفراح الأقرباء وسكان القرية وجنازاتهم. شقيق الوالد، العم سعيد، لم يعد يتردد عليهم منذ فترة طويلة، ولم يكن هناك أحد آخر يمكن انتظار المساعدة منه.

سألت الأم محمد بمجرد أن خطت فوق العتبة:

- هل أمير بالمنزل؟

- لم أتمكن من إيقاظه، حين اتصل به رجل كبير.

- من أين علمت أن الرجل كبير؟

- كان صوته خشناً جداً.

كانت كلمة «الاتصال» تقلق ماما منذ فترة طويلة، فانهالت على محمد بأسئلة لم تكن لديه إجابة عنها، فبات غضب الأم يخرج عن السيطرة. مدركة أنها لن تحصل على إجابة حتى من أمير، جلست إلى مسند الأريكة، واستغرقت في أفكارها.

- أريد أن آكل يا ماما. هل ستخرجين معي إلى الشارع؟

- الآن، يا بني!

أخذت ماما هاتفها واتصلت بأمير، وسمعت الدقات بداخل الأم، وكأن قطناً رمادياً كان يغطي على أفكارها ومشاعرها وضربات قلبها.

بعد تقديم الطعام لابنها الصغير، جلست الأم للاستراحة، وحاولت الوقوف أثناء النعاس، وكانت تستيقظ، بينما كان إجهاد اليوم الطويل يجر جسمها إلى عالم الهدوء، ولو المؤقت.

جلس محمد بجوارها، وقال:

- أشعر بالبرد يا ماما.

قامت الأم، وغطت الصبي، ورقدت بجواره. لكنها لم تسمح لنفسها بأن تستغرق في النوم. قامت، وذهبت إلى النافذة.

كانت قمم الأشجار في الحديقة تتأرجح وتتوقف، لتملأ الفناء بالرائحة الخريفية للفواكه المتعفنة مثل التفاح والكمثرى والعنب. منهمكة في همومها، نسيت الأم منذ وقت طويل عن الحديقة وجمال الخريف الذي يعري الأشجار والشجيرات، وعن رائحة التفاح والكمثرى. حل منذ فترة طويلة الشتاء في روحها، شتاء لا يعرف الرحمة وقاسٍ وعقيم. منذ لحظة ما لم يتبقَ شيء في حياتها، لم يعد لها سوى أمير وما كان بوسعها مقاومته و يبعد عنها أمير وأفكاره وجسمه ودمه. كانت ماما تعلم أن هذه المصيبة دقت على أبواب كثيرٍ من الداغستانيين، وحرمتهم بلا رحمة وببالغ القسوة من أعز ما لديهم، من أبنائهم وبناتهم ومستقبل الأسرة نفسه. كانت الأم تشعر بالحاسة السادسة أن ابنها يهبط أكثر فأكثر في هاوية لا مخرج منها.

فقد ورثوا من والدي زوجها بيتاً جميلاً من الطوب الأحمر وحديقة مرتَّبة، وكان الإنفاق عليهما يزداد صعوبة. ذات يوم تزوجت رجلاً ينتمي إلى أسرة محترمة وميسورة الحال. كان الزوج يوفر لها كل شيء، وحتى يدللها. بيت عال ذو طابقين واسعين، ومرآب كبير، وحديقة مليئة بالزهور والأشجار تسودها رائحة الصيف وأغاني الطيور ودوي النحل. تلك الأيام المبهجة، حين كان أمير طفلاً: كانت الحياة كلها وكل نفس له فخر ماما وبابا.

لكن الزوج توفي مبكراً من جراء نوبة قلبية. يبدو أحياناً ما كتب له أن يحدث، أنه يحدث من دون منطق. ولكن هناك منطقاً في كل شيء في الحياة.

والآن، بات العشب ينمو حتى على الطرقات في الحديقة، لأن الوقت كله أصبح للأبناء والعمل.

كانت الأم تنظر إلى البوابة، منتظرة الدق. جرت دقائق، وكانت تنتظر كل دقيقة، وكأنها عذاب، وهي تشعر بأنه يقترب الوقت، حين سيأخذون أمير منها، ولن تستطيع عمل شيء، ولن يكون بوسعها نجدته ومنع وقوع مصيبة. كيف لها أن توقف التهديد، الكرة النارية المتجهة إلى عائلتها، مهددة بالقضاء على السعادة الهادئة لرؤية وجهي ابنيها. ستأتي ساعة، حين سيأخذ شخص مجهول ولغرض مجهول ابنها إلى مكان لا يعود منه أحد. لمن ستثبت أنه طيب ومستجيب، ولكنه ليس له والد أو من سيتابعه وسيوقفه. وليس هناك في المدرسة أستاذ يثق الصبي فيه... يضم الفصل نحو 30 طفلاً، وكيف يمكن للمدرس أن يوجههم جميعاً، وكيف يمكنه أن يتقرب من كل واحد منهم ويفهمه ويصطحبه؟ من سينصت الآن لصراخها الأصم الذي يقطع قلبها وجسمها،

ويوقف الدم في عروقها! إنها كانت مستعدة لمنع حدوث هذه المصيبة عن طريق الإلقاء بنفسها تحت الكرة، ولكن هل سينقذ ذلك ابنيها، وكيف يمكن عمل ذلك حتى تنأى المصيبة جانباً؟! مَن هؤلاء الناس الذين يبعدون ابنها عنها، وماذا قد يكون أعز على جسمه ودمه من كلمة الأم؟! متى توقف عن مشاركتها في مشاغله، عندما كان في العاشرة من العمر؟ أم عندما أدرك أنه يمكنه عصيان الأم، وأنه أهم رجل في البيت؟ لا، على الأرجح، عندما بدأ ينظر إليها نظرة الثقة في أحقيته وعجز الأم، وعندما أصبح يصلي أكثر وبشكلٍ استعراضي. لكن ماما ما كان لها أن تعترض على الصلاة ما لم يكن ذلكً مستفزاً بهذا الشكل! لم تعد الأم الشخصية الأهم بالنسبة إلى أمير، ولكن محمد لايزال يمتثل لها. لكن كيف تعرف ماذا يشغل باله؟! كيف توقفه، إذا لم تكن تعرف، ماذا يجذبه؟!

عاد أمير قبيل الفجر. فتح الباب بهدوء، وكان يريد أن يتسلل إلى غرفته، ولكنه رأى أن أمه تنام بجوار النافذة، وغطاها بالبطانية. لم تستيقظ الأم.

كانت الساعة السابعة صباحاً. كان الجو كئيباً، واختفت الشمس تماماً، تاركة الساحة لضباب كثيف خيم على الأشجار والبيوت. يترك كل صباح أثر اليوم السابق، وفوضى في الغرفة وظلاماً، وشبحاً ما ليوم أمس.

أيقظ صوت المنبه الأم، فقامت بصعوبة، وبدأت تجهز محمد للذهاب إلى المدرسة. وفوراً خطرت على بالها فكرة عن أمير، وما إذا كان عاد إلى المنزل، ومتى، وأين كان؟ نظرت إلى داخل غرفته. كان ابنها مستغرقاً في النوم، وكان نفسه منتظماً وغير ملحوظ. تأكدت من نفسه، إنه حي! رفعت السروال والمعطف من الأرض، وبدأت تبحث في جيوبه، فوجدت هاتفاً نقالاً وقطع ورق بها أرقام هاتفية. لم تدل هذه الأرقام على شيء بالنسبة إليها...

ألقت نظرة إلى الأسماء والأرقام والرسائل التي كانت عبارة عن مقاطع قصيرة من محادثات وتعليمات تشبه شيفرة أرقام أو تكليفات. أدركت فوراً أن هذا أمر غير طبيعي، إلا أن الصعوبة الأكبر كانت في كيفية بدء الحديث مع ابنها وإيقافه، وإيجاد كلمات مناسبة قد تثنيه عن قراره. لا تقدر الكلمات على الكثير في هذا الوضع.

كانت لابنها صلة بمجموعات خارجة عن القانون تزاول نشاطها في الغابات والبلدات، وفي كل مكان في الجمهورية. إنهم متعصبون دينياً، أعداء من الخارج، سياسة منهجية لشخصيات ما، اختلفت التسميات، ولكن جوهر المشكلة لا يتغير. كان واحداً من هؤلاء، وهذه حقيقة لا مفر منها ولا يمكن

تقبلها، بل يجب مواجهتها، ولكن يمكن تجاهلها أيضاً... كان على الأم حل هذه المسألة. قررت أنه من الضروري الحديث معه. استعدت لحديث طويل وأليم ومتوتر وبلا نتيجة. إنها لم تخطئ.

خرج محمد إلى الفناء، وهو يشعر بقرب العاصفة والضجيج والتوتر، ولذلك قرر الجلوس في الفناء، متظاهراً بأنه مشغول بشيء. من موقع جلوسه، كان يمكن رؤية ذلك القسم من الغرفة، حيث كانت ماما وأمير يجلسان أحدهما أمام الآخر، وكأنهما عدوان متخاصمان حتى الموت. كانت الأم تقوم بإشارات كثيرة بيديها، بينما كان أمير يرفض الكلام والبراهين والأسباب والتداعيات. كان مغلقاً للحوار، وكأنه مبرمج على عدم استيعاب المعلومات بخصوص هذه المسألة، فكان الحديث معه يشبه شجاراً بين إنسان حي وجدار حجري. لم يكن بوسع محمد أن يستنكر أخاه، أخاه الكبير، لأنه نفسه كان صغيراً لذلك. كان يرى في أمير صخرة صلبة وظهراً عريضاً وفخراً له. وأكثر ما كان يؤثر في محمد، هو دموع الأم وتعبير وجهها وصوتها. بأي ألم كان يكسر صمت الحديقة! ظل هذا الصوت رناناً في أذنيه لسنوات طويلة.

في ذلك اليوم أثناء الفواصل بين الدروس والطريق إلى المدرسة والمنزل، كان منهمكاً في أفكاره، وكان أصدقاؤه يضطرون لهز كتفه حتى يستفيق ويعود إلى الواقع. ظل الحوار بين أعز شخصين، ماما والأخ، يتردد مراراً في ذهنه. لم يكن قادراً على الوقوف في صف الأم أو الأخ، إذ كان يحبهما بنفس الدرجة. كان يشعر بالوحدة لعدم فهمه ما يجري.

حل شتاء حقيقي، ولكن عدد الأيام الباردة تراجع بصورة كبيرة خلال الأعوام الـ15 - 20 الأخيرة. تساقطت الثلوج في نوفمبر، ولكن الجو في ديسمبر كان جافاً ودافئاً. كانت الحياة تسير بحوادثها مثل الهجمات الإرهابية والأخبار والخسائر والأفراح والنجاحات. يتناوب في الحياة السيئ والجيد دون السماح بالإصابة بالاكتئاب أو الانتحار. تسقط هذه القطرات على الأماكن الأكثر ألماً، ممدة السعي للحياة، والنصر والأمل والوجود.

في ذلك اليوم، كان عيد المولد صاخباً، وكان تدفق الناس يأتي ويغادر إلى ما لا نهاية. بين الصلوات، بدأ الناس يصخبون مثل النحل، متحدثين عن الأحداث والشائعات، ومكررين أسئلتهم إلى بعضهم البعض. كانت أم أمير تجلس أيضاً في دائرة ضيقة من الأهل والمعارف.

كانت تشعر بأنها عارية، وكأن الجميع يرون مشكلاتها وضعفها، ويثرثرون خلف ظهرها، ويغمزون لبعضهم البعض، وينظرون بتنديد: «كيف يمكنها التظاهر بأن كل شيء على ما يرام؟! ألم يصبح ابنها واحداً من إخوان

الغابة؟! يعلم الله وحده كم عدد الأعمال القذرة التي شارك فيها؟!». كانت تعذبها الأفكار المنسوبة للآخرين. ازداد عدم ثقتها، وأرادت أن تغادر بسرعة وتنحل وسط المارة. كانت تريد أن تختفي في ثقب غير ملحوظ حتى لا يلاحظ اختفاءها أحد.

في لحظة ما، أشار لها شقيق زوجها سعيد بأن تتبعه. خرجت وراءه إلى الفناء.

- هل علمت أمرهم على وجه الدقة؟ هل تحدثت معه؟

ردت عليه، وكأنها دمية من الشمع بلا حياة وروح:

- كل شيء واضح معهم منذ وقت طويل. فقد تحدثت معه مراراً، ولكنه ذهب إلى هناك، ولا يسمع أي كلمة لي.

أراد سعيد أن يتحقق من الأمر، لكونه يتحمل المسؤولية عن أسرة أخيه بعد وفاته.

لمع الغضب والألم في عينيْ سعيد. أراد أن يقول شيئاً... وقفت أمامه أم صبي، منكسرة نظرتها لإخفاء الدموع، بينما كانت يداها اللتان لم تعتنِ بهما منذ فترة طويلة، تشد طرف المعطف القديم الفاقد للونه. فات أوان البحث عن المتسببين.

بعد فاصل ثقيل، قال باختصار وبشكلٍ قاطع:

- سأتحدث معه...

وكأنها تحمل على كتفيها عبئاً ثقيلاً، استدارت الأم ببطء، متوجهة إلى المنزل.

أصبح أمير جزءاً من هذا العالم المظلم غير المعترف به، وكان مخلصاً في تنفيذ كل التكليفات ووضع الخطط، والاختفاء في المساء.

التقى أصدقاءه الجدد في الصالة الرياضية التي كان أمير يحب أن يتدرب فيها. حينئذٍ لم يكن يهتم سوى بالرياضة. ولكنه وجد هناك من نصب شباكه الأيديولوجية للشباب الأقوياء والأطهار مثل الورق. أدت وحدة المصارعين الشباب دورها، وقريباً انجر أمير إلى دائرتهم بشكل كامل. لم يكن ينشر الأيديولوجيا، وإنما كان فقط يدعم مصالحها: يساعد الأصدقاء في جمع المعلومات وترويع المطلوبين، ولكنه لم يكن يشارك في التفجيرات.

أتى العم في المساء، حين كان أمير بالمنزل.

- اسمع يا بني! أنا الآن مثل والدك. ما تقوم به لا يشرفنا ولا يشرفك. تعلم بما ينتهي ذلك في أغلب الأحيان. أنت شاب ذكي، وتتحمل المسؤولية عن أمك وشقيقك الصغير. كيف يمكنك تجاهلهما؟ ماما؟ إنها تعمل من أجلكم فقط. لقد فقدت والدكم، والآن تريد أن... بالإضافة إلى ذلك، لا جدك ولا والدك ولا أنا، لم يتحرك في عائلتنا أحد ضد الدولة أو القرية أو شعبه. ولن أسمح لك بذلك أبداً. ليس من حقك تشويه اسم الوالد والجد. لن يؤدي طريقك إلا إلى ذلك.

وجه أمير نظرته إلى الفراغ.

- فكر في كل شيء بنفسك، ثم قل كلمتك.

أصبحت نظرة أمير، وكأنها زجاجية، وكأن ستاراً حديدياً كان يفصله عن عمه. كان أمير صامتاً، ولم يرد أن يقول شيئاً. ولم يكن العم يعتزم الضغط عليه: فقد قال كل ما لديه. انتهى الحوار. كان سعيد يعلم أنه لن يتمكن من إعادة أمير على وجه السرعة. وهل سيتمكن من أساسه؟! إلى أي مدى تم توريط الصبي؟ من يقف وراء كل ذلك؟ هل سيردونه لأمه؟

كان أمير بعيداً عن القسوة دائماً، وحتى في دائرة الأصدقاء الجدد كان يؤدي جزءاً من العمل، آملاً في أنه لن يضطر أن يلطخ يديه. لكنه كان يعلم أن الرفض لا يقبل في مثل هذه الأوساط، ولم يكن مستعداً للجوء إلى آخر الإجراءات. كان أمير مستعداً لمساعدة أصدقائه، ولكنه لم تكن لديه فكرة للقتال من أجلها. كان ذلك بالنسبة إليه مجرد تبجح وإثبات الذات والنفوذ بين الشباب من نفس العمر. يتحمل عمه الآن المسؤولية عنه أمام القرية، ولم يكن أمير يتمنى إحراجه وتلطيخ اسم والده.

كان أمير يرقد ويفكر ما إذا كان سيستطيع الآن مغادرة العالم الذي انجر فيه، وما إذا كان سيسمحون له بالمغادرة، خاصة أنه لا يعتزم خيانة أحد ولن يفرط في الكلام في أي مكان. ولكنه يتحمل المسؤولية عن الأم والشقيق، وسيضطر مرة أخرى للوقوف أمام عمه.

لكل شيء في الحياة عادة التغير إما للأفضل أو للأسوأ. تشرق الشمس وتغرب، ويحل الليل ويتراجع، وتبدأ الحياة وتنتهي.

بات أمير الآن يقضي وقتاً أكثر فأكثر في البيت، متجنباً اللقاءات، ومحاولاً المحافظة على هاتفه في الغرفة الأخرى. بدأت نظرة الأم تشرق،

وأصبحت تبقى في البيت أكثر، وتطبخ له، وكأنه بإمكانه تناول الطعام عدة مرات يومياً، بينما أصبح محمد يحوم حول أخيه طوال النهار. أظهر له أمير كيف يتم إصلاح عجلات الدراجة، وأجبره على لصق ورق الحائط في غرفة أمه، وحتى جلس معه لإعداد الدروس. ولكن لما يفارقه الضيق في قلبه. فكر أمير أنه يجب تعليم أخيه الصغير أي شيء تحسباً لأي متاعب قد يعيشها... وحده...

لكن ذلك لم يعجب «أصدقاءه»، إذ بات يثير شبهات.

قال له أحد معارفه الجدد الذي لم يره سوى مرة واحدة:

- عليك أن تكون معنا في المساء عند بوابة رجل الشرطة...

نظر في عينيه الحادتين بحزم، وقال:

- لا يمكنني، لا يمكنني ترك أمي.

لف أمير باتجاه منزله بحزم، مترقباً صوت طلقة خلفه.

- لا تيقظيني مبكراً يا ماما، أريد بقوة أن أنام.

- مبكراً جداً؟! - أخطأت وأضافت بعجالة - حسناً، حسناً، نم يا بني، لن أسمح لأحد بإزعاجك.

لم يقل أمير لأمه:

- اعذريني يا ماما لأنني أجعلك تقلقين.

استيقظ أمير من رائحة خانقة في الغرفة.

قال صوت أو عينان عالقتان فوقه:

- قم واخرج إلى الفناء. هناك من ينتظرك هناك.

... سعد أمير أنه يرى أشعة الشمس، وهو لا يزال هنا بجوار أمه وشقيقه، ويرى الفجر رغم أن جسمه لا يمتثل له كثيراً. لكن عليه الزحف حتى السرير، لأن ماما ستخرج إلى الفناء الآن. يبدو أن يديه ليستا مكسورتين، وساقيه متجمدتان، ولكنه يستطيع القيام.

زحف إلى النافذة، وتغطى كاملاً بالبطانية. فتحت أمه الباب بهدوء وتنفست الصعداء: إنه نائم!

غادرت. قام أمير، وتسلل إلى الحمام، سعياً ألا يلطخ البساط القديم بالدماء، قبل أن يستيقظ شقيقه.

- لا يمكنني التسبب في معاقبة شقيقي أو أمي... سأقوم بكل ما تريدونه. لكن كلفوني بمهمة لن أعود منها. لكن عدوني بأنكم لن تلمسوا أسرتي...

ربتواعلى ظهره بطريقة شبه ودية:

- هذا قرار صائب! سنناديك قريباً! والآن اذهب. لكن ستحضر فور احتياجنا إليك.

عندما حضرت الأم، كان أمير يقوم بإصلاح السقف، وكان يمكن رؤيته من أي مكان.

همست الأم بشفتيها:

- انزل.

لم يقل أمير لأمه: «إنهم أقوياء جداً يا ماما. فات الأوان، فات الأوان منذ فترة. أينما ذهبت، سيخرجونني من تحت الأرض... لكنني... أخاف أكثر عليك وعلى شقيقي...».

كررت الأم، وكأنها تعثرت عند نظرته، وسمعت كل ما لم ينطق به:

- انزل!

امتلأت عيونها بالدموع:

- انزل... يا بني، انزل... انزل.

كان الجميع يعلم أن رجال الغابة لا يتركون من كان بين ظهرانيهم. لم يكن بوسع أحد في العالم مساعدة ابنها. ومن يحرص على مصير ابنها الكبير والناضج من أساسه؟

- سأنهي العمل حتى لا يتسرب المياه من السطح في الخريف...

- في الخريف؟! لماذا في الخريف؟

لم تر الأم وجه ابنها، إذ كان مطر الدموع يسيل على وجهها.

كم أصبح كتفاه عريضين، وباتت نظرته نفس نظرة أبيه، كيف كان سيكون شكل أبنائه؟ كانت الأم تفرش المائدة، وتنظر، وتنظر، وتنظر إليه...

- ألا يمكنك السفر؟

- وأنتما؟

ليست العيون من كانت تبكي.

استمرت المواجهة بين شرطة المهام الخاصة والمسلحين لسبع ساعات. تم إجلاء سكان المباني المحيطة. وأخيراً تم استدعاء أقرباء المسلحين للتفاوض. في ظرف دقائق معدودة، وصلت أم أمير وأقرباء غيره من المسلحين مثل الآباء والزوجات والشقيقات والأمهات.

انتشرت رائحة ثقيلة للدخان والخراطيش والحريق. كان البيت مهدماً، مصدراً رائحة الموت. كان الجميع يتحدثون في آن معاً، لا، إنهم لم يتحدثوا، بل بكوا وتوسلوا لهم وبين بعضهم. لم يتحمل رجال الشرطة ذلك، وابتعدوا.

صرخت أم أمير، وكأنها تصرخ إلى قبر في مقبرة:

- عِدني أنك ستستسلم يا بني، إنني لا أريد سماع شيء آخر. هل تسمعني؟

- سامحيني يا ماما، لا مخرج من هنا، حافظي على أخي.

بدا لها للحظة أنها تحت تأثير دواء مخدر، وأن رأسها يطير، وهي لا تشعر بيديها ولا بقدميها، وهناك ضجيج حولها، وهي تردد شيئاً دون أن تسمع صوتها هي.

رفعوها وحملوها. في هذه الدقائق الأخيرة من حياة ابنها، كانت ترقد من دون وعي، ولم تتمكن من استخدام الوقت الثمين لإنقاذه. لم يفهم أمير، لماذا انقطع صوت الأم فجأة. تم منحهم 20 دقيقة للتفكير.

لم يسلم أحد نفسه. تم اقتحام المبنى، ولم يتكبد رجال الشرطة أي خسائر. تمت تصفية المسلحين.

رقدت جثثهم مغطاة بالغبار أو الرمل الأبيض، وكانت وجوههم مشوهة إلى حد تعذر التعرف عليهم. رقد جثمان أمير تحت كومة من القمامة مغطى بالغبار، وكانت يداه خاليتين، وكانت تسيل منه دماؤه الدافئة. لم يسمحوا لأحد بالاقتراب، وتم الإلقاء بالجميع في شاحنة ابتعدت. كان صراخ الأقرباء يشبه صراخ وحوش جُنَّت من الألم. بعد نصف ساعة، لم يعد هناك في الموقع أحد باستثناء بضعة رجال شرطة وشهود. الآن كان الأقرباء يقتحمون المشرحة للحصول على الجثامين ودفنها وفق عاداتهم. بموجب القانون، لم يكن من حقهم الحصول على الجثامين، مما شكل أكبر صدمة للأقرباء. المعاناة والآلام السابقة لم تكن تعني شيئاً مقارنة بذلك.

لم تكن قادرة على البقاء وحيدة، ولو للحظة واحدة. أخنقها إدراك ما حدث، وكأنه ظل أسود ذو يدين طويلتين ووجه وصوت قبيحين. بقي الناس معها ليلاً ونهاراً. اجتمع الناس في اليومين السابع والـ40. لم تكن الأم تبكي، فقد استنفدت كل دموعها خلال هذه السنوات الثلاث الطويلة. لم تعد بداخلها دموع. كانت تبحث بنظرتها عن محمد طوال الوقت فحسب، ولم يكن بمقدورها ألا تراه، ولو لدقيقة.

اقترب اليوم السابع لتوديع ابنها. كانت الشمس تغرب، تاركة السماء للمساء، وهي في تلك الدقائق مشرقة بشكل خاص، وتعمي البصر بآخر أشعة.

كان محمد الهزيل يقف أمامها، حاملاً قطعة من الفطيرة في يده الصغيرة:

- كلي يا ماما، فقد أحضرت العمة «كلمات» فطيرة.

اختلطت الدموع بالفطيرة... كيف كان يمكنني نسيان ابني الصغير؟! ماذا كان يأكل طوال هذه الأيام؟! من أطعمه؟ ماذا عانى؟

حاولت الأم استعادة السيطرة على نفسها:

- افتح التلفزيون يا محمد والستائر. علي الذهاب إلى العمل. وهل ستذهب إلى المدرسة؟

- الآن المساء يا ماما، وقد عدت من المدرسة. والعمة شاونات تذهب إلى العمل بدلاً منك.

- إنه موقف محرج، فقد نسيت.

نظرت ماما إلى شاشة التلفزيون، وكان الوزير يقدم تقريره: خلال النصف الأول من العام، تمت تصفية 90 مسلحاً، وتم تسجيل 321 آخرين...

- أطفئ! أطفئ! أطفئ يا بني.

لم يسمعها محمد، بل كان ينظر إلى النافذة. بالقرب من الوادي، كان يحترق مبنى مطوق برجال ملثمين وسيارات عسكرية.

ابيضت شفتا محمد، والتفت إلى أمه، قائلاً:

- يا ماما، هناك عملية أمنية خاصة تنفذ بمنزل العمة كلمات.

التهمت النيران مزيداً من البيوت، وأضاءت ألسنة اللهب، مجتمعة مع آخر أشعة الشمس، البلدة والجبال المحيطة باللون الوردي الدموي.

رستم غاليولين

الغريب

كان شخص غريب الأطوار يمضي في اتجاهات عشوائية في الأودية والتلال والمنخفضات. في كل مكان، كان يبحث بعينيه عن الزهور ويبتهج لجمال الطبيعة وأهم زينتها الزهور، فكان يجمع في قبضة يده البراعم المتفتحة ويتحدث معها برقة، ويداعب الأوراق، ويستنشق برحابة صدره رائحتها العبقة... شعر الغريب بمتعة روحية حقيقية من وفرة الزهور وجمالها الطبيعي. استوحى المشهد إلى حد أن عينيه فاضتا بالأمل.

كثيراً ما كان يصادف زهوراً خادعة بلا وجه. إنها تبدو براقة من بعيد، كما لو أن أشعة الشمس تداعبها وتمنحها الدفء والنعومة: لكن مع الاقتراب منها، كانت برودة الاغتراب تتسلل إلى الروح. كان لمس أجمل الزهور يحرق الأصابع بالصقيع. بينما إدراك أحادية جانب بريقها، يؤلم الروح ويفسد المزاج. لم يتوقف غريب الأطوار طويلاً عند مثل هذه الزهور، وحاول ألا يلاحظها على الإطلاق. لاحظ لدى التنقل من حقل إلى آخر، أن هناك عدداً كبيراً من الزهور الخادعة. مع كل خطوة، ازدادت مهارته في التعرف على جواهر جمال الطبيعة في البحر المتعدد الوجوه.

إن الحقول شاسعة حقاً. إنها كون حقيقي لا نهاية له. كان الغريب يخطو، متأملاً في كل فج وواد وتل. أحياناً كان يصادف حقولاً مغطاة بالزهور بكثافة. وكان يبقى لأوقات طويلة في مثل هذه الأماكن. فيفحص بإمعانٍ الزهور التي أثارت إعجابه، وتمتلئ نفسه بانفعالات جعلته يشعر أنه فراشة تحلق فوق البراعم. كان الأحمق يصبح أكثر شباباً، ووجهه يزداد وسامة، وينبعث منه نور السعادة السماوية. يمكن الظن أنه نحلة تجمع الرحيق وحبوب اللقاح! هكذا واصل السير في الطريق، وهو بحالة معنوية مرتفعة.

كثيراً ما كانت الطرق غير الواضحة تقود الغريب إلى أجمة الشجيرات التي نمت فيها بكثافة الكينوا والأزيز الشائك والدغل العشبي الخانق وطفيليات أخرى. كان يبحث هناك أيضاً عن الزهور. ولغرابة الأمر أن العديد

من النباتات لها أوراق ضعيفة وسيقان مشوهة، والأزهار غير نضرة. كانت الزهور حزينة في وجود سلطة أصحاب تلك الأراضي. كان الأحمق يندهش: هنا وسط الأجمة التي لا تصل إليها أشعة الشمس، يمكن إيجاد نماذج رائعة من الزهورأيضاً! لكن مصيرها مرتبط بقوة بتلك الأجمة. كان الأحمق يتمنى أن يعيد زرع الزهور بالحقول المشمسة بجوار شقيقاتها، ولكنها نمت ورسخت جذورها هنا تحديداً وسط شجيرة شائكة. الشجيرات في موطنها في الأودية المنخفضة للأنهار...

هام الأحمق كثيراً. بدت رحلته طويلة، وغطت «قطرات اللقاح» الفضية رأسه، وانتشرت تجاعيد عميقة في وجهه، وأصبحت نظرته جادة يشوبها نوع من الحزن والحنين. قرر الأحمق العودة.

خطا نحو مرج كبير مليء بالزهور، وكأنه بساط براق وحلاب يضم جميع الزهور والألوان: تجد هنا زهوراً براقة وشبه منفتحة ورائعة وأخرى قبيحة تتمنى أن تقطعها فوراً. هناك العديد من الطفيليات أيضاً: اللبلاب والأزيز وأشقاؤهما. إنها لا تشعر بأي ضيق: إنها اختلطت في وسط المرج بالزهور النبيلة الرائعة، واحتضنتها وعاشرتها. وتنمو الزهور البسيطة على امتداد الحقل، وكأنها عائلات.

فحص الأحمق كل القطع بدقة، وشكلت ببعضها البعض أجمة كثيفة من العشب البري: في مثل هذه الأماكن لن تجد زهرة نهاراً حتى إذا حملت شعلة. في العديد من القطع، تجف البراعم، وليس هناك أحد يحميها من الشمس المنهكة ويخفي الجذور ويغطيها من الرياح التي لا تعرف الرحمة. لا يفكر أحد في القيام بمثل هذه الأعمال المقدسة. حزن الأحمق، وشعر بالكرب. ما كان له أن يبقى هنا في الغربة، وتوجه إلى مرجه. عندما رأى مواطنها الأصلية من بعيد، جرى الأحمق عاجزاً عن كبح قلقه الممتزج بفرح. كانت تنطلق من روحه أغنية السعادة، وحتى لم يلاحظ أن الطريق المؤدي إلى هدفه وعر، ولم يعد طريقاً واسعاً مثلما كان في السابق. أخيراً وصل إلى مرجه. وقف الأحمق طويلاً، وهو طافح القلب ممتلئ النفس بالمشاعر. كان هذا المرج معروفاً وعزيزاً جداً عليه!

أجال بصره متأثراً بالصمت المبارك، في امتداد المرج طولاً وعرضاً. كم من الزهور الرائعة هنا! كان الأحمق متحمساً للمس البراعم واستنشاق رائحتها النقية. لكنه التف إلى الخلف بغية أن يصعد التل في الطرق الضيقة. لا، إنه لم ينصرف بعيداً. سيصعد الآن، وسيستمتع بمنظر الوادي.

ألقى نظرة على الهضبة، وكانت هناك بركة مدورة عند قاعدتها. كان سطح الماء فيها يرتعش لدى أقل هبة ريح. يمكن الظن أن البركة لا تعجبها المداعبات الناعمة. حوّل الأحمق نظرته إلى الساحل، فوجد الوادي مليئاً بالزهور، بينما لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد هنا في الوادي. لكن الأغرب أن النباتات تذوي بدلاً من الازدهار. يبدو أن المكان واسع، ولكن هناك شعوراً بأن الزهور تتربص ببعضها البعض، وتراقب حتى لا يحصل الجار على حصة أكبر من المكان. بالإضافة إلى ذلك، يبدو وكأنها تشعر بالغيرة من بعضها البعض ومن الأرض الخصبة! لم يصدق الأحمق عينيه: هل هذا ممكن؟ ألا يجب أن تزدهر الزهور ازدهاراً كاملاً وتبعث الأريج، مزينة هذه الأماكن الخصبة؟ استغرق الأحمق في تفكيره الثقيل. سقطت نظرته على أحد الزهور الساحلية: ها هو السبب! النباتات التي كانت نامية ومزدهرة يوماً، فقدت بريقها وجمالها الطبيعي بسبب الطفيليات المجاورة.

جرى الأحمق بشكل لاإرادي إلى البركة حتى يصل إلى الساحل ويقطع جميع الطفيليات من جذورها! بعد وصوله، أصيب بالدهشة، إذ إن الزهور تشابكت مع الأزيز والكينوا إلى حد أنه كان من المستحيل قطع الأعشاب البرية دون المساس بالزهور. لاحظ براعم فتية وسط النباتات المتهالكة. كان بريقها يعمي البصر، ولكنه للأسف لم يكن طبيعياً... كاد الأحمق أن يبكي. لحسن الحظ، لم يكن هناك كثير من النباتات الفتية التي اعتادت رؤية الطفيليات بين جيرانها وتعتبرها مكافئة لها. وقف طويلاً، مستجمعاً أفكاره. أراد أن يغادر محيط البركة في أسرع وقت حتى لا يعود يرى الزهور المسكينة الهالكة. ألقى الأحمق آخر نظرة عليها اختلطت فيها القسوة بالتعاطف، والكراهية بالرحمة، وغادر البركة بخطوات متسارعة.

كان الوادي مغطى بالزهور بوفرة، وكل كل زهرة هناك تشتعل بنارها البراقة الخاصة. كان الوادي يشبه أسرة من زهور محاطة بالطفيليات من كل النواحي، ولا أمل في اجتياز السور الحي المكون من الأزيز والكيوان واللبلاب والدغل العشبي الذي سيتسبب في مشاكل كثيرة. هناك شعور بأن أحداً تعمد زرعها لعزل النباتات الكريمة عن العالم الخارجي. تعذب الأحمق كثيراً قبل أن يتمكن من الوصول إلى الزهور المرغوب فيها. واي-واي-واي! كم هي جميلة! يضم بساط واحد زهوراً هالكة فقدت جميع أوراقها تقريباً، وأخرى مزدهرة حديثاً. سعد الأحمق، وحتى الطفيليات عاجزة عن خنق هذا الجمال. ولكن العشب البري ليس قليلاً. الزهور العاجزة عن مقاومته، هلكت، ولكن الأحمق لم يكن ينتبه إلى ذلك. بدا ممتلئاً بالسعادة من تأمل الزهور، لم يعد يفكر في أن الطفيليات المحيطة بالمرج قد تنمو وتخنق الجمال. ومع ذلك، شعر بنوع من الحزن عبرت عنه البراعم والزهور. كانت الزهور تنجر إلى بعضها الأخرى.

بدا أنها تشعر بأنه قدر لها أن تتوحد يوماً في باقة كبيرة واحدة وتخرج من العزلة إلى أراض خصبة عبر مياه البركة...

لاحظ الأحمق نباتات فتية تحت سيقان النباتات الكبيرة وسارع إليها. الأماكن التي نمت فيها البراعم مع الزهور الفتية، كانت تتميز عن غيرها. على الرغم من أن الطفيليات لم تكن بنفس الكثافة هنا، ولكنها كانت تبدو أكثر كثافة ولغزاً منها في قطع أخرى. لم يلاحظ الأحمق أنه صرخ من الفرحة: كم من البراعم الفتية التي ستنمو قريباً وستصبح زينة للمرج! لكن لماذا سيقانها ضعيفة بهذا الشكل، ولم لم تتفتح البراعم بشكل كامل بعد؟ جلس الأحمق القرفصاء، واستمع إلى نفس الظهور. إنها تحتاج إلى المياه، المياه! تحتاج الزهور الفتية إلى الري الفوري حتى تزداد سيقانها قوة، وتمتلئ البراعم بالقوة والجمال! تمنع الطفيليات السعادة مرور أشعة الشمس والشعور بنعومة لمسات الرياح والحرية الكاملة! ضغط الأحمق قبضتيه وقفز من الغضب! لا، انظروا فقط: ليست البراعم الفتية وحدها، وإنما الزهور المتفتحة أيضاً تعاني العطش ونير الطفيليات!

دفع تجمع الأرقطيين وسارع إلى البركة. إن الزهور تحتاج إلى المياه! جمع الأحمق كفيه في حفنة واحدة، وتوجه إلى المياه بحذر. ما هذا؟ لماذا لم يستطع الوصول حتى الآن؟ وقف الأحمق متردداً متشابكاً بالطفيليات. كان بإمكانه قطع الشباك من قدميه، ولكنه خشي من قطعها مع الطفيليات، الزهور التي باتت هالكة وكئيبة، ولكن اقترب من تلك الكائنات الرائعة التي تنمو في المرج. إنها ذات يوم كانت رائعة أيضاً، وكانت تسعد بجمالها. والآن ينبعث البرد من تلك الزهور الهالكة.

لم يتمكن الأحمق من أن يدوس على الزهور القليلة أصلاً بجوار البركة. واصل طريقه بهدوء، متزلقاً بحذائه على الأرض. ما هذا؟ زهرة جافة بجوار المياه تتأرجح حسب وتيرة الرياح، لماذا تقطع الطريق أمامه؟ مهما حاول الأحمق، إلا أنه لم يتمكن من الالتفاف على «الرجل العجوز الأصلع». لم ترغب الزهرة البخيلة في إعطائه قطرة مياه واحدة.

حاول الأحمق، مندهشاً جداً مما رآه، الاقتراب من البركة من الطرف الآخر. كان يأمل في كرم الضيافة وسخاء زهرة جافة تشبه غصناً خشبياً أشيب للزهرة. لكن عبثاً حاول ذلك، إذ إن «الرجل العجوز» لم يفسح له الطريق.

توقف في حالة من الارتباك والتردد. لاحظ الأحمق المهموم تأرجح زهرتين على الضفة المقابلة، وكأنهما كانتا ترحبان به، وهرع إليهما. كانت الزهرتان تنموان، وتسند إحداهما الأخرى. بدا وكأنهما أخذتا تدلفان إلى الهلاك،

ولكن صدر عنهما جمال طبيعي. لم تستسلما لأفواج الطفيليات، بل حافظتا على استقلالهما. كان موقعهما هو الأجمل على الساحل. لم يصدق الأحمق عينيه: انحنت الزهرتان في اتجاهين مقابلين، وكأنهما تفسحان له الطريق. وراح وقد ارتبك من العون المفاجئ، يراوح في مكانه لبعض الوقت. ثم تمالك نفسه، واقترب من المياه، وملأ حفنة منه، وسارع إلى المرج، وكانت المسافة من هناك إلى الزهور الفتية أقرب كثيراً! التفت الأحمق: تألقت الزهرتان بالسعادة. ولكن الطفيليات المحيطة بهما بدت أكثر كثافة، بينما ازدادت الزهور الهالكة قبحاً على خلفية البراعم البراقة!

بعد عودته إلى المرج، توجه أولاً إلى الزهور الفتية. اختار أجملها، ورش عليها المياه الساحرة الواهبة للحياة. حدثت معجزة: في ظرف لحظات معدودة، اكتسبت الزهور لمعاناً حياً، وازدادت سيقانها قوة، وامتلأت أوراقها بالخضرة النضرة، وارتفعت البراعم المنحنية بكبرياء. بدا حتى أن ستار الطفيليات انحنى خائفاً إلى الأرض، مفسحاً الطريق. كان الأحمق سعيداً لمثل هذا النجاح، وهرع إلى المياه، ضاغطاً على الطفيليات بلا رحمة.

- تستسقى الزهور! إنها بحاجة إلى أشعة الشمس والرياح الناعمة! استيقظت جميع الزهور في المرج من صرخته المفرحة.، كانت النباتات الشابة تزداد جمالاً مستوعبة الرطوبة الحية ثانية بعد ثانية...

... وصلت إلى المرج سيارة «جيب» سوداء ذات زجاج أسود منغم لا يبشر بالخير وأثارت سحابة من الغبار. عندما تبددت سحابة الغبار، خرج من الباب الخلفي للسيارة رجل ضخم يرتدي زياً أسود تبرز منه عضلاته، ويرتكز فوقه رأسه المربع. دفع بأصبعه السميك نظارته السوداء إلى طرف أنفه، وألقى نظرة سريعة على المرج. ثم اقترب من الزجاج الخلفي للسيارة، وأحنى رأسه وظهره في خضوع، وفتح الباب الخلفي. قفز منه رجل ضخم آخر ذو جسم ووجه بدين ورأس مدور. غمض عينيه بغضب، وسأل رفيقه:

- من... هناك؟

- أين يا سيدي؟

- هناك، حيث أشير بيدي يا غبي!

نظر الرجل الضخم وصاحبه السمين إلى الأحمق الذي يروي زهور المرج من قبضته.

- ماذا يفعل هذا المجنون؟

فهم الرجل الضخم سؤال سيده بطريقته الخاصة، وأخرج المسدس من غطائه، ووجه نظرة الكلب إلى صاحبه:

- هل تسمح لي يا سيدي؟

- يا غبي! ألا ترى أنه غير طبيعي؟ سنطرده من هنا من دون مسدس!

توجها إلى البركة وداسا فوق الزهور.

- يا غبي، ماذا تفعل هنا؟

لم يسمع الأحمق صوت الرجل الضخم، إذ كان يجلب المياه من البركة، وهو يردد لنفسه شيئاً مفرحاً.

غضب الرجل السمين بجد، وتوتر إلى حد أن عروق جبهته اسودت وبرزت أكثر، فصرخ بصوت عال:

- يا غبي! ماذا تفعل هنا؟

الأحمق الذي كان يداعب الأوراق بيد، ويروي زهرة بيد أخرى، ارتجف ورفع رأسه، واضطرب كثيراً عند رؤيته رجلين لا يعرفهما.

- ماذا تفعل في أرضي يا غبي؟

ظل سؤال الرجل السمين بلا إجابة.

- هل يزرع المختل ألغاماً في أرضي؟

وجه الرجل السمين نظرة عينيه الممتلئتين بالدماء إلى الرجل الضخم الذي خطا باتجاه الأحمق، فوقف هذا الأخير في مكانه خائفاً حتى أن يتنفس.

- يا غبي، هل أنت أصم وأبكم؟ لماذا لا ترد؟ ماذا تفعل في أرضي؟

نظر الأحمق إلى الرجل السمين بدهشة.

- على... أرضك؟

رد الرجل السمين، رافعاً رأسه بكبرياء:

- نعم، هذه أرضي! -ثم أخرج بضع أوراق مذيلة بأختام من جيوبه- انظر يا غبي، هذه الأوراق هي مستِندات تؤكد أنني صاحب هذه الأراضي!

لم يفهم الأحمق شيئاً من المستندات المليئة بالأرقام والأحرف.

- هذه الزهور لا صاحب لها، وهي لا تتبع لأحد، وهي حرة طليقة. أما كل أوراقكم بالأختام، فهي خداع.

احتقن الدم بشدة في عيون الرجل السمين.

- ماذا تقول يا غبي؟ هل تعلم مع من تتحدث؟ غادر أملاكي فوراً!

اقترب الرجل الضخم إلى مسافة قريبة من الأحمق، ووقف، منتظراً الأمر.

- وهذه الزهور... هل هي ستعترف بأنك صاحبها؟

انفجر الرجل السمين ضاحكاً. بدا للحظة أن عرقه الفاصل جبهته إلى نصفين، سينفجر من التوتر.

- ها، ها، ها! هذا غبي حقاً، غبي غباء! ها، ها، ها! ماذا قال، هل ستعترف الزهور بي؟

ظل الرجل السمين يضحك لوقت طويل. سعياً لإرضائه، حاول الرجل الضخم أن يهز كتفيه أيضاً، ويتظاهر بالضحك. عندما توقف الرجل السمين عن الضحك، انطلقت من عينيه شرارة الغضب.

- ليس لي شأن بزهورك! هل فهمت؟! سأزيل هذا الوادي! لن تبقى روح الزهور هنا! ارتجف الأحمق.

- ماذا قلت؟ هذه الزهور هي زينة الطبيعة، ويجب ريها والاعتناء بها...

- ها، ها، ها! هل تعتبرني غبياً مثلك؟ سيشيد هنا قريباً قصر حقيقي. سنشيده بجوار البركة نفسها، وسنحول هذا المرج إلى منطقة للاستجمام والترفيه. ربما سنلعب الهوكي، وربما الكرة. على الأرجح، سيقام هنا ميدان وساحة لجولات الخيول، وملعب لتدريب الناس...

صرخ الأحمق بصوت عال غير اعتيادي:

- لا، لا!

جرى إلى الزهور، واحتضن كمية كبيرة منها، وهمس:

- لن أعطيكم لأحد يا زهوري العزيزة. ستنمين وستفرحين الجميع بجمالك، وستعالجين أرواحنا بأريجك الشافي...

تبادل الرجلان السمين والضخم النظرات.

- ماذا يفعل هذا الغبي؟ كفى! أبعده من هنا فوراً. سنربطه وسنلقي به في السيارة، ثم سنتركه في غابة كثيفة. ليتظاهر هناك بالغباء مثلما يريد! أعمال عظيمة في انتظاري، ويجب ألا يعرقلني مثل هؤلاء الأغبياء!

لم ينه الرجل السمين كلامه، إلا وقد هجم الرجل الضخم على الأحمق، وجره بكفيه القويتين إلى السيارة.

- اتركني! هذه زهوري...

ألقى الرجل السمين نظرة سيد المكان مرة أخرى إلى الوادي، وهدأ، وركب السيارة.

- ستموت الزهور! اتركوني!

ربط الرجل الضخم يدي الأحمق وقدميه حتى لا يتحرر.

- نتحرك يا سيدي؟

- لنتحرك! فقدنا وقتاً كثيراً مع هذا الغبي.

ألقى الرجل الضخم بالأحمق المربوط إلى عمق قسم الأمتعة في السيارة.

- اتركني! هذه زهوري...

- إنها ستجف وتموت! إنها تعيقنا عن العيش كما نريد! ولاسيما الأغبياء أمثالك...

في تلك اللحظة ومض البرق وهدر الرعد.

عجّل الرجل السمين الرجل الضخم:

- سر! بسرعة، بسرعة، علينا بلوغ طريق الأسفلت، وإلا سنتعثر هنا...

بدأ الأحمق يتحرك في قسم الأمتعة.

- الصاعقة! الرعد! سيتساقط مطر غزير الآن! ستنمو الزهور!

في هذه اللحظة، بدأ تساقط المطر... ضغط الرجل الضخم بقوة على دواسة الوقود.

أما الشخص غريب الأطوار المربوط اليدين والقدمين والراقد في القسم الخلفي لسيارة «جيب» السوداء المبتعدة بسرعة عن مرج الزهور، فهو... مبارك، وكان المبارك شاعراً...

أصلان كاسايف

نصيب الإنسان البخيل

يتذكر أبناء الشعب الأوسيتي، لكونهم أحفاد الألانيين الأسطوريين، دائماً الشرف ويحفظونه. إنهم لم يحبوا العيش في رخاء فحسب، وإنما بشرف أيضاً.

عندما كان الأوسيتي، لاسيما من سكان الجبال، ينضج، كان يمسك حتماً البندقية ويذهب للصيد منفرداً، وفي ساعة الضرورة، كان يستطيع الدفاع عن شرفه في معركة مع أي عدو.

لم يكن الأوسيتيون صيادين متميزين فحسب، وإنما أيضاً هم أناس شجعان. وقعت حوادث مأساوية أثناء الصيد، إذ كان يمكن لأي صياد أن ينزلق من الصخرة إلى الهاوية. في حال سقوطه إلى الهاوية، كان الصياد المنفرد في عداد المفقودين، وكان جسمه من نصيب الوحوش البرية والطيور المفترسة.

عاش في إحدى القرى الجبلية ساكن جبلي ثري يدعى بيتشير. كان يعد واحداً من أفضل الصيادين في محيطه. كان لدى بيتشير عكاز من خشب البتولا، وبعد كل عملية صيد كان يضع علامة عليه، بغية تحديد عدد الكباش الجبلية التي قتلها. ووصل عددها إلى حد أنه لم يبقَ هناك مكان لعلامات جديدة.

عند توجهه للصيد، كان بيتشير، شأنه في ذلك شأن غيره من الصيادين، يأخذ معه قوساً وسهمين أو بندقية وطلقتين. كانت إحدى الطلقتين أو السهمين مخصصاً للفريسة، والثاني للذئب أو أي وحش آخر قد يصادفه في طريقه.

في ذلك اليوم، كان بيتشير بمزاج عكر. بعد العشاء، حين استغرق الجميع في النوم، لم يستطع هو النوم لفترة طويلة. وقبيل حلول الفجر فقط، تمكن من النوم، وحلم برجل عجوز ذي لحية بيضاء وبقرون الأيل ويحمل عكازاً

من خشب شجر البتولا. وجه العكاز إلى بيتشير، وقال له: «إذا تجرأت مرة أخرى على قتل أي كائن من قطيعي، فسألعنك!».

بعد هذا الحلم، استيقظ بيتشير فوراً، ولم ينم مرة أخرى. في الصباح، روى حلمه لزوجته التي سخرت فحسب من قصة زوجها. بعد وقت قصير، نسيا تماماً هذا الحلم.

لا يعرف أحد كم من الوقت مر، ولكن ذات يوم، حين أصيب ابنه الصغير بالحمى، توجه بيتشير للصيد مرة أخرى. أخذ القوس وسهمين، ودون إبلاغ أسرته، تحرك فجراً، وحتى لم يعلم أن حالة نجله تدهورت كثيراً في تلك الليلة.

لم يعد رب الأسرة في تلك الليلة، بل بقي للمبيت في كهف جبلي. وبعد أن هام طويلاً في الجبال، رأى في الصباح نعجة مع حملانها، فقتلها، وترك نسلها لمصير مجهول.

بعد تنظيف الذبيحة، عاد بيتشير إلى منزله، ورأى عبر المنظار من بعيد أن سكان قريته خرجوا إلى الشوارع وملأوها. لم يكن بيتشير يعلم ماذا حدث، ولكنه أسرع الخطى. وعلى مشارف القرية، خرج إليه أربعة رجال، وأبلغوه بوفاة ابنه الصغير في تلك الليلة.

سقط القوس من بين يدي بيتشير، وألقى بالذبيحة إلى الأرض، وأمسك رأسه بيديه. ناسياً نفسه، وصل إلى المنزل، ورأى ابنه على فراش الموت، وانفجر بالبكاء. في اليوم الثالث، تم دفن الصبي وفقاً للتقاليد.

ومنذ ذلك الحين، تدهورت حالة الصحية بيتشير كثيراً، بينما كان سكان القرية يتذكرون حلمه الغريب، متكهنين بأن الابن دفع ثمن ذنوب والده. وعلم سكان القرية بحلمه من زوجته. لذلك يقال إن المرأة تحفظ السر تحت لسانها، مثلما يحفظ الغربال المياه.

مرت أيام وشهور، وسارت الحياة في مسارها المعتاد. حزن الوالدان، ولكنهما تقبلا الأمر الواقع تدريجياً.

استعد بيتشير للذهاب للصيد مرة أخرى، إذ يقول مثل أوسيتي إن «الصياد الحقيقي لا يعيش من دون جبال».

حلت الشمس محل القمر، وذهب بيتشير إلى الجبال. وبحلول وقت الغداء وصل إلى قمة الجبل الأسود، وبحلول المساء قتل كبشاً سميناً. ثم ظل

ينظف الذبيحة خلال وقت طويل، وهام في الجبال، ولم يعد إلى منزله سوى بحلول الفجر. سلق لحماً، وأكلت الأسرة حتى الشبع، وظل يقوم بالأعمال البدائية للمزارع حتى المساء. حل الظلام، ونام الجميع بعد العشاء، واستغرق بيتشير في النوم فوراً. زاره نفس الرجل العجوز في منامه، ولكنه كان مختلفاً، ولم يتحدث بعظمة وبهدوء مثلما كان في المرة الماضية، وإنما بغضب. ولم يمسك بين يديه مجرد عكاز، وإنما عكاز بيتشير ذا علامات حساب الفرائس. وقف فوق بيتشير، وصرخ: «ألم تدفع ثمن أعمالك الشريرة؟! احذر حتى لا يحدث ما هو أسوأ من ذلك!»، ثم اختفى. عندما استيقظ بيتشير، ارتدى ملابسه فوراً ودون تناول الفطور، توجه إلى الحظيرة، وأخذ البندقية، وملأ جيوبه بالخراطيش، ودون أن يبلغ أحداً، ذهب إلى الجبال البعيدة للصيد. وظل يردد طوال الطريق: «من تحاول إخافته يا عجوز!».

ظل يهيم في الجبال نهاراً وليلاً، ولكنه لم يجد أية فريسة. تعب بيتشير، وغضب من نفسه ومن الرجل العجوز. فجأة رأى قطيعاً من الكباش الجبلية فوق واد طويل، وأقربها كبش أبيض مثل الثلج. لمعت عينا بيتشير سعادة. اقترب واختبأ خلف حجر، مصوباً بندقيته إلى القائد الأبيض. سمع صوت الطلقة، ولكن لأول مرة في حياته، خانته بندقيته، فجرى القطيع في مختلف الاتجاهات. جرى البعض إلى الأسفل، والبعض الآخر بزعامة الكبش الأبيض إلى أعلى منحدر الجبل. مضى بيتشير خلفها ببطء إدراكاً منه أن القطيع لن يذهب بعيداً. وبالفعل، رأى قريباً على مرتفع الكبش الأبيض الذي كان رافعاً رأسه بكبرياء.

لكن بمجرد أن صوب بيتشير، قفز الكبش إلى الجانب الآخر من المرتفع، مختفياً خلف صخرة. تبعه الصياد مرة أخرى. ظل الكبش الأبيض يستدرج بيتشير طويلاً إلى مكان يصعب على المرء الخروج منه حياً. رأى الصياد مرة أخرى فريسته، وصوب وأطلق النار. ولكن بيتشير لم يصب هدفه رغم أنه كان دقيقاً دائماً. أيقظ صوت الطلقة الجبال تحت قدمي بيتشير، وسقط الصياد في فج عميق. إلا أنه لم يكتب له أن يفارق الحياة فوراً رغم أنه بات عاجزاً عن السير.

بقي راقداً طوال الليل في واد بارد، وكان لديه الكثير من الوقت للتفكير في حياته، فأدرك أن الرجل العجوز ذا اللحية البيضاء هو أفساتي الراعي للحيوانات البرية. وأدرك أن أفساتي ظهر له أيضاً في شكل الكبش الأبيض. ولم يصدق سوى الآن أنه كان بنفسه السبب في فقدان ابنه عقاباً على ذنوبه وقسوته وكبريائه.

وعندما أضاءت أشعة الشمس قمم الجبال، لفظ بيتشير أنفاسه الأخيرة. لم يبحث أحد عن جثة الصياد المسكين في الفج العميق. الغراب الأسود وحده كان يحلق فوق الفريسة، مثلما كان هو نفسه يطارد فريسته يوماً في الجبال.

عن المؤلفين

نوزيت أوميروف: شاعر وناثر وكاتب مسرحي ومترجم من تتار القرم. ولد في سيمفروبول عام 1931، وتخرج في معهد غوركي للأدب. عمل مراسلاً لمجلة «الحياة الحزبية لكازاخستان»، ورئيساً لتحرير قسم الترجمة الأدبية بدار النشر «جازوشي» («الكاتب»)، ونائباً لرئيس اللجنة الحكومية للطباعة في كازاخستان، ورئيساً لقسم الأدب بالمسرح الحكومي الأكاديمي الكبير، ورئيساً لتحرير جريدة «راية لينين» («العالم الجديد» حالياً). كان نائباً بالمجلس الأعلى وعضواً باللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أوزبكستان، وأميناً لاتحاد الصحفيين، وعضواً بمجلس إدارة اتحاد كتاب كازاخستان. ألَّفَ 30 كتاباً (شعر للأطفال والكبار، وقصص، وحكايات، وروايات، وكوميديا). عضو اتحاد الكتاب الروس واتحاد كتاب تتار القرم. صحفي حائز لقب الجدارة في أوكرانيا. حصل على أوسمة وميداليات. حائز العديد من الجوائز الأدبية. يقيم في سيمفروبول.

إلدار غورتويف: ناثر وكاتب بلقاري. ولد في مدينة نالتشيك في جمهورية قبردينو-بلقاريا عام 1935. تخرج في معهد التمريض في مدينة فرونزه (بشكيك حالياً)، والجامعة الحكومية في نالتشيك. عمل كخبير في الأوبئة ومفتشاً صحياً، ومحرراً في دار النشر «إلبروس»، ورئيساً لتحرير إذاعة جمهورية قبردينو- بلقاريا ومجلة «نور» للأطفال الصادرة باللغة البلقارية. عضو بمجلس رئاسة صندوق رعاية الأطفال في جمهورية قبردينو- بلقاريا وهيئة تحرير مجلة «قبردينو- بلقاريا الأدبية»، ومجلس الأدب البلقاري باتحاد كتاب قبردينو- بلقاريا. ألف نحو 20 كتاباً بين الروايات والقصص القصيرة والسيناريوهات لأفلام تلفزيونية ومسرحيات إذاعية. ترجمت أعماله إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والإسبانية والتركية والمنغولية والأوكرانية

والمولدوفية والجورجية والبولندية. عضو اتحاد الكتاب الروس واتحاد الصحفيين الروس. فائز بالعديد من المسابقات الأدبية. مقيم في نالتشيك.

يونس تشوياكو: ناثر من جمهورية أديغيا. ولد في قرية غاتلوكاي في منطقة تيوتشيجسكي في جمهورية أديغيا في عام 1940. تخرج في معهد التربية في أديغيا. عمل في صحيفة محلية ومحرراً بلجنة التلفزيون والإذاعة في أديغيا وفي مجلة للأطفال. ألف 12 كتاباً باللغتين الأديغية والروسية. عضو اتحاد الكتاب الروس. حاز لقب كاتب الشعب في جمهورية أديغيا، ويحمل لقب جدارة في مجال الثقافة في روسيا، وحاز جائزة الدولة للأدب في جمهورية أديغيا مرتين. عضو شرف بأكاديمية العلوم الأديغية (الشركسية). مقيم في مدينة مايكوب.

آدم غوتوف: ناثر وباحث أدبي وناقد وكاتب قبرديني. ولد في قرية أوشيغير في منطقة تشيريكسك في جمهورية قبردينو- بلقاريا في عام 1944. تخرج في جامعة «بيربيكوف» في قبردينو- بلقاريا في تخصص اللغة الروسية والأدب الروسي، وحصل على درجة الدكتوراه في معهد غوركي للأدب في تخصص الأدب الشعبي، دكتوراه علوم في الفلسفة. يعمل في المركز العلمي التابع لأكاديمية العلوم الروسية في جمهورية قبردينو- بلقاريا: تدرج حتى منصب رئيس قسم الفنون الشعبية الأديغية و لا يزال يشغله حالياً. كما عمل أستاذاً غير متفرغ في الجامعة الحكومية في قبردينو- بلقاريا. ألف أكثر من 150 عملاً أدبياً وعلمياً وتثقيفياً، ومجموعة من القصص وخمس دراسات، وثلاث مجموعات من الدراسات الأدبية، وكتباً تعليمية. مؤلف مشارك ومحرر علمي بعدد من الإصدارات حول الفنون الشعبية. عضو اتحاد الكتاب الروس. يحمل لقب الجدارة في مجال العمل العلمي في جمهورية قبردينو- بلقاريا. حصل على شهادات تقدير رئاسة أكاديمية العلوم الروسية وحكومة جمهورية قبردينو- بلقاريا وبرلمانها، وبرلمان جمهورية الشيشان وغيرها. مقيم في نالتشيك.

عيسى كابايف: ناثر ومؤرخ من القومية النوغائية. ولد في قرية أركين-يورت في منطقة نوغايسكي في جمهورية قرشاي- شركيسيا عام 1949. تخرج في معهد غوركي للأدب. عمل رئيساً لتحرير مجلة «قمر بولوفيتسك»، وأسس المتحف الشعبي لتاريخ وثقافة النوغائيين. ألف 31 كتاباً باللغتين

النوغائية والروسية، بما فيها بحوث علمية في مجال الدراسات الأتراكية والأساطير النوغائية، وكتاب «مصطلحات المحادثة الروسية النوغايية». طبعت بعض أعماله وكتبه في كازاخستان وتركيا وبلغاريا وأوكرانيا وبولندا. ترجم العديد من النصوص والأعمال الشعرية إلى النوغائية. كاتب الشعب في جمهورية قرشاي- شركيسيا. يحمل لقب جدارة في مجال الثقافة في روسيا وجمهورية كازاخستان. فائز بمسابقة «أوستروفسكي» للأدب وجائزة رئيس جمهورية قرشاي- شركيسيا. مقيم في تشيركيسك.

روزا بازوفا: ناثرة أباظية. ولدت في قرية كوبينا في المنطقة الأباظية في جمهورية قرتشاي- شركيسيا في عام 1953. تخرجت في كلية الفيزياء والرياضيات بمعهد قرشاي-شركسيا للتربية. عملت مدرسة في تخصص الرسم الهندسي، والأخلاقيات وعلم نفس الحياة الأسرية، وشغلت وظيفة نائبة المدير للعمل التربوي والدراسي. تعمل في الوقت الحالي مراسلة لجريدة «أباظاشتا» وتترأس مجلة «أباظغي» الاجتماعية الأدبية. ألفت ثلاثة كتب باللغتين الأباظية والروسية. مقيمة في قريتها الأصلية.

موسى أحمدوف: ناثر وكاتب مسرحي شيشاني. ولد في قرية قزيل-أكتوبر في مقاطعة فرونزينسكايا (تشويسكايا حالياً) في قيرغيزيا عام 1956. عمل مدرساً في مدرسة ريفية وسكرتيراً مسؤولاً بجريدة محلية ومحرراً بمجلة «ستيلاياد» ورئيساً لتحرير مجلة «أورغا» ونائباً لمدير مركز التعليم والمناهج بوزارة الثقافة لجمهورية الشيشان. في الوقت الحالي، يترأس تحرير مجلة «واياخ». ألف عشرة كتب نثرية وتعليمية. ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الفرنسية والألمانية والإنجليزية واليابانية. كاتب الشعب في جمهورية الشيشان، ويحمل لقب الجدارة في مجال الثقافة في جمهورية الشيشان، وحائز جائزة «البومة الفضية» وميدالية الاستحقاق في الجمهورية ووسام أحمد حاجي قديروف. مقيم في غروزني.

نابيرا غيماتدينوفا: ناثرة تتارية. ولدت في قرية كاراسا في منطقة أكسوبايفسكي في جمهورية تتارستان في عام 1956. تخرجت في كلية الصحافة بجامعة قازان الحكومية. رئيسة تحرير المجلة الأدبية الفنية «إديل». ألفت 22 كتاباً. كاتبة الشعب في جمهورية تتارستان. حائزة عدداً من الجوائز الأدبية في تتارستان. مقيمة في قازان.

فخر الدين غيريبسيس (فخر الدين أوروجيف): ناثر وشاعر أذربيجاني. ولد في قرية ميتاغي في منطقة دربنت في جمهورية داغستان عام 1957. تخرج في معهد التربية الحكومي الداغستاني في تخصص فقه اللغة. يعمل في جريدة «وطن» المحلية والصادرة باللغتين التاتية والروسية. ألف ثلاثة دواوين شعرية وكتباً نثرية. يكتب باللغتين الروسية والأذربيجانية. عضو اتحاد كتاب أذربيجان واتحاد الصحفيين الروس. مقيم في قريته الأصلية.

إبراهيم إبراهيموف: ناثر داغستاني. ولد في قرية كيشا في منطقة داخادايفسكي في جمهورية داغستان عام 1957. تخرج في جامعة داغستان الحكومية. يعمل مدرساً. ألف 13 كتاباً نثرياً باللغتين الدارغينية والروسية. عضو اتحادي الكتاب والصحفيين الروس. مدرس يحمل لقب جدارة في داغستان. مقيم في قريته الأصلية.

أربين كارداش (أربين كارداشوف): شاعر وناثر وكاتب مسرحي ليزغيني. ولد في بلدة ميكراخ في منطقة دوكوزاباراينسكي في جمهورية داغستان في عام 1961. تخرج في معهد غوركي للأدب. أدى الخدمة في صفوف الجيش السوفيتي في تركمانيا وأوزبكستان. يعمل محرراً للمطبوعات الليزغينية في دار النشر الداغستانية. ألف أكثر من 15 كتاباً بين الشعر والنثر ومسرحيتين تم إخراجهما بمسرح «ستالسكي» بالمسرح الحكومي الليزغيني للموسيقى والدراما. ترجم أعمال الشعراء الروس إلى اللغة الليزغينية. عضو اتحاد الكتاب الروس، وشاعر الشعب في داغستان، وشخصية تحمل لقب جدارة في جمهورية داغستان. حائز جائزة «أوليمب» لاتحاد الشباب الديمقراطي في داغستان، وجائزة الدولة في جمهورية داغستان، وجائزة «شارفيلي». مقيم في محج قلعة.

غيبيك كوناكبييف: شاعر وناثر وصحفي وكاتب مسرحي قوميكي. ولد في قرية إنديريه في منطقة خاسافيورت في جمهورية داغستان عام 1961. درس في معهد دنيبروبيتروفسك الزراعي. عمل في الجمعية الزراعية ونائباً لرئيس مجلس القرية، ومراسلاً ثم رئيساً لقسم بجريدة «السهل القوميكي». في الوقت الحالي، يعمل مراسلاً لجريدة «يولداش» الجمهورية. مؤسس ومدير عام تلفزيون «أيتاش» المحلي. ألف 14 كتاباً وثلاث مسرحيات. تم تحويل أكثر من مائتين من قصائده إلى أغانٍ. عضو اتحادي الكتاب والصحفيين

الروس. حائز جائزة اتحاد الصحفيين في جمهورية داغستان وفائز بالعديد من المسابقات الفنية. يحمل لقب جدارة في مجال الثقافة في جمهورية داغستان. مقيم في محج قلعة.

فياتشيسلاف أر- سيرغي (فياتشيسلاف سيرغييف): ناثر وشاعر وكاتب مسرحي وسيناريست ومترجم أودمورتي. ولد في قرية نوفايا كازماسكا في منطقة زافيالوفسكي في جمهورية أودمورتيا في عام 1962. تخرج في كلية فقه اللغة بجامعة أودمورتيا الحكومية، والدورات الأدبية العليا بمعهد غوركي للأدب. عمل في وسائل الإعلام، قبل أن يتفرغ للكتابة. ألف أكثر من 40 كتاباً بين الشعر والنثر باللغتين الأودمورتية والروسية. عضو اتحاد الكتاب الروس. شاعر الشعب في جمهورية أودمورتيا. حائز العديد من الجوائز، بما فيها جائزة «ديلفيغ» الروسية للأدب، وجائزة «يوغرا» الدولية للأدب، والجائزة الأدبية لحكومة جمهورية أودمورتيا. عضو الاتحاد الدولي للأقلام. مقيم في إجيفسك.

ماشار أيضميروفا: ناثرة شيشانية. ولدت في قرية ميسكيتي في منطقة نوجاي-يورتوفسكي في جمهورية الشيشان. تخرجت في الجامعة الشيشانية- الإنغوشية في تخصص فقه اللغة. عملت لسنوات طويلة في مجال التعليم، وكانت نائبة بالبرلمان الشيشاني في دورته الأولى. ألفت عدة كتب نثرية باللغتين الشيشانية والإنغوشية. ترجمت قصصها إلى اللغتين الفرنسية والألمانية. عضو اتحاد الكتاب الروس. مدرسة تحمل لقب جدارة في جمهورية الشيشان. مقيمه في قريتها الأصلية.

بايرا بالبوروفا: ناثرة بورياتية. ولدت في قرية زوتكوليه في منطقة دولدورغينسكي في مقاطعة تشيتا (إقليم زابايكاليه حالياً) عام 1964. تخرجت في كلية فقه اللغة في جامعة «جدانوف» الحكومية في إركوتسك. عملت محررة أدبية ومراسلة لبضع وسائل إعلام في جمهورية بورياتيا. مقيمة في أولان-أودي.

إسيت تيركاكييفا: ناثرة وكاتبة مسرحية إنغوشية. ولدت في قرية كانتيشيفو في منطقة نازران في جمهورية إنغوشيا في عام 1968. تخرجت في كلية فقه اللغة بالجامعة الحكومية الشيشانية -الإنغوشية. عملت مدرسة اللغة والأدب الإنغوشي في المدرسة، وموظفة علمية في متحف التاريخ المحلي.

في الوقت الحالي، تعمل محررة بشركة «إنغوشيا» للإذاعة والتلفزيون. مؤلفة أربعة كتب. عضو اتحاد كتاب جمهورية إنغوشيا. تحمل لقب جدارة بمجال الثقافة في جمهورية إنغوشيا. نالت وسام الذكرى المئوية لميلاد ميخائيل شولوخوف، وفازت عدة مرات بمسابقتي «الريشة الذهبية» والكتابة المسرحية. مقيمة في قريتها الأصلية.

سليمة كوركمازوفا: ناثرة قرشية. ولدت في قرية كويدان بمنطقة بريكوبانسكي في جمهورية قرشاي- شركيسيا في عام 1968. تخرجت في كلية الفيزياء والرياضيات وكلية الصحافة في جامعة «عليف» الحكومية للتربية في قرشاي-شركيسيا. بدأت مسيرتها المهنية مذيعة بالتلفزيون والإذاعة، وهي حالياً رئيسة تحرير خدمة الإذاعة القرشية وكبيرة المذيعين بالخدمة القرشية بالتلفزيون، ومترجمة الرسوم المتحركة من الروسية إلى القرشية. صاحبة عدد من البرامج الإذاعية. عضو اتحادي الصحفيين في روسيا وقرشاي- شركيسيا. فائزة بالعديد من المسابقات الفنية في الجمهورية. مقيمة في شركيسك.

قربان أوماخانوف: ناثر وشاعر تساخوري. ولد في قرية تساخور في منطقة روتولسكي في جمهورية داغستان في عام 1970. تخرج في كلية فقه اللغة في جامعة داغستان الحكومية للتربية. عمل في الجمعية التعاونية الزراعية، وبعد التخرج عمل مدرساً للغة والأدب الروسي والتساخوري في المدرسة، وباحثاً بمعهد «تاخو-غودي» للتربية في داغستان. يعمل في الوقت الحالي رئيساً لقسم بجريدة «نور» الاجتماعية السياسية في الجمهورية، ويدرّس اللغة والأدب التساخوري في جامعة داغستان الحكومية. ألف كتابين للشعر والنثر، وأكثر من 500 مقال، وقاموساً روسياً - تساخورياً وآخر تساخورياً مصوراً. عضو اتحاد الصحفيين الروس واتحاد كتاب روسيا. مقيم في محج قلعة.

منير كونافين: ناثر وشاعر بشكيري. ولد في قرية سايتبابا في منطقة غفوريسكي في جمهورية بشكيريا في عام 1971. صحفي ورئيس تحرير المجلة الشبابية «شونكار». ألف ديوانين للشعر وكتابي نثر. عضو اتحادي كتاب روسيا وجمهورية بشكيريا. يحمل لقب جدارة في المجال الثقافي في

جمهورية بشكيريا، وحائز جوائز إقليمية كبرى، وفائز بمسابقة «شوكشين» للقصة القصيرة. مقيم في أوفا.

زوراب بيمورزوف: شاعر وناثر ومترجم شركسي. ولد في قرية علي-بيردوكوفسكي في منطقة خابيزسكي في جمهورية قرشاي-شركيسيا في عام 1976. تخرج في جامعة قرشاري-شركيسيا الحكومية للتربية. عمل مدرساً ومديراً للمدرسة. يعمل حالياً محرراً بقسم السياسة والتعليم في جريدة «شركيسيا». مؤلف ديوان شعر ونثر. عضو اتحاد الصحفيين الروس. صحفي يحمل لقب جدارة في جمهورية قرشاي-شركيسيا. فائز بالمسابقة الأدبية بمناسبة الذكرى الـ125 لميلاد بوريس باسترناك. مقيم في شركيسك.

حمزة عز الدينوف: ناثر وشاعر أفاري. ولد في قرية أراديريخ في منطقة غومبيتوفسكي في جمهورية داغستان عام 1981. تخرج في جامعة داغستان الحكومية في كلية فقه اللغة بتخصص الصحافة. عمل في عدد من الصحف والإصدارات الأدبية الأفارية، و له ديوان شعر. عضو اتحادي الصحفيين والكتاب الروس. حائز جائزتي محمد شامخالوف ويوسف خابالايف، وشهادة تقدير حكومة جمهورية داغستان. مقيم في قرية ميخيلتا.

أيغون جليلوفا: ناثرة روتولية. ولدت في بلدة خنوف في منطقة أختينسكي في جمهورية داغستان عام 1985. تخرجت في كلية اللغات الأجنبية في جامعة داغستان الحكومية. تحمل درجة الدكتوراه في علوم الفلسفة، وأستاذة بكلية اللغات الداغستانية في جامعة داغستان الحكومية. مقيمة في محج قلعة.

رستم غاليولين: ناثر تتاري. ولد في قرية نالاسا في منطقة أرسكي في جمهورية تتارستان عام 1987. تخرج في كلية فقه اللغة التتارية والتاريخ بجامعة قازان الحكومية. حائز لقب دكتوراه علوم الفلسفة. مدير ورئيس تحرير مجلة أدبية. ألف خمسة كتب باللغتين التتارية والروسية. عضو اتحادي الصحفيين والكتاب في جمهورية تتارستان. حائز جائزة «جليل». مقيم في قازان.

أصلان بك (ألامير) كاسايف: ناثر أوسيتي. ولد في قرية إلخوتوفو في منطقة كيروفسكي في جمهورية أوسيتيا الشمالية-ألانيا. تخرج في كلية فقه

اللغة الأوسيتية في جامعة خيتاغوروف الحكومية في أوسيتيا الشمالية في تخصص تدريس اللغتين والأدبين الأوسيتي والروسي. كبير المراسلين بالجريدة الشعبية في جمهورية أوسيتيا الشمالية. عضو اتحاد الكتاب المحترفين. حائز جائزة «كامبيرديف» للأدب. مقيم في فلاديقوقاز.

Notes

[1←]
حذاء نسائي جلدي تقليدي.

[2←]
أبريك - شخص منبوذ غادر إلى الجبال ويعيش خارج السلطة والقانون، وغادر قريته مضطراً بسبب ارتكابه جريمة ما أو الأخذ بالثأر.

[3←]
«إمكا» - سيارة خفيفة سوفيتية الصنع.

[4←]
وفقاً للقاعدة المتبعة لدى جميع الأديغيين، كان كل شخص ميسور الحال لا يبني بيتاً خاصاً به فحسب، وإنما أيضاً بيتاً للضيوف «خاتشيش». كان جزءاً أساسياً من فناء العزبة، وكان يجب نصبه في مكان يسهل على أي متجول أن يدخله في أي وقت من اليوم بمعرفته دون سؤال أصحاب البيت. كان يجد الضيف فيه مأوى ودفئاً وسريراً مريحاً والمتعلقات الأساسية. إذا كان يصـل ليـلاً، ما كان لأصحاب البيت أن يعرفوا ذلك إلا بحلول الصباح. وبصرف النظر عمن كان، كان عليهم الاعتناء به وبسلامته. وكان من المعتاد عدم سؤال الضيف حتى وقت ما عن الهدف من وصوله وحتى عن اسمه.

[5←]
يطلق الأديغيون اسم كاخيا على منطقة غرب شركيسيا الواقعة ضمن أراضي حوض نهر كوبان في مجراه الأسفل والمتوسط.

[6←]
كان الأديغيون، شأنهم في ذلك شأن بعض شعوب القوقاز، يستخدمون موائد مستديرة متنقلة كان يمكن فرشها في المطبخ وإحضارها للضيوف.

[7←]
تعني كلمة «تحمادة» الشخص الأكبر أو المحترم، ويعتبر الخبراء اللغويون أن أصولها تعود إلى كلمة «تمادة» أي عريف الحفل.

[8←]
من قصيدة للشاعر التتاري عبدالله طوقاي (1886- 1913) التي تحولت إلى أغنية شعبية.

[9 ←]
شوتكو: غطاء رأس للنساء يوجد تحت الغطاء الخارجي.

[10 ←]
باديش (اللغة الأودمورتية): حصان ذو ساق أمامية يمنى أو يسرى باللون الأبيض.

[11 ←]
أغاي: إضافة لمخاطبة الكبار باحترام.

[12 ←]
بيستير (أودمورتية): الحقيبة المصنوعة من لحاء البتولا.

[13 ←]
كيزيلي (باللغة الأودمورتية): نجمة

[14 ←]
صلامات: وجبة قومية بورياتية تصنع من القشدة الحامضة والدقيق.

[15 ←]
آرول: جبن أبيض مجفف.

[16 ←]
إيخي: كبير أو عظيم.

[17 ←]
البيت الجبلي: كانت بعض القبائل تدفن الموتى في الجبال.

[18 ←]
بولغان: أحد أنواع الطيور.

[19 ←]
شولموس: أرواح شريرة.

[20 ←]
لوفزار (بالإنغوشية): حفلة رقص.

[21 ←]
هتاف النصر.

[22 ←]
تشابش: شعيرة شركسية لعلاج المرضى في حالة خطرة.